حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

"نموذج لحياة المدن في ظل الاقطاعية الشرقية"

د. عبد الله حنا







حركات العامة

الدمشقية

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر



حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

"نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية الشرقية"

د. عبدالله حنا

دار ابن خلدون

الطبعة الاولى
١٩٨٥

دار ابن خلدون

صندوق بريد ١١٩٣٠٨ بيروت - لبنان
هاتف ٣١٢٣٣٥ - ٨١٧٣٨٥
تلكس LE ٤٣٦٩٣ KALDON

الباب الأول

الأحوال
الاقتصادية والاجتماعية والسياسية
لمدينة دمشق

لمحة عن البنية الاقتصادية لمدينة دمشق.

العامة.

مدن بلاد الشام والحكم العثماني الاقطاعي.

الحرف الدمشقية في كتاب القدسي (١٨٨٣).



الفصل الأول

لمحة عن البنية الاقتصادية لمدينة دمشق

تألف اقتصاد مدينة دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من عدد من القطاعات الرئيسية المنسجمة، إلى حد بعيد، مع طبيعة النظام الاقطاعي العثماني الشرقي، ومع وضع دمشق كعاصمة لولاية عثمانية هامة تقع على طريق الحج وهي منطلقه الرئيسي.

كانت القطاعات الاقتصادية الرئيسية لمدينة دمشق هي:

١ ـ **القطاع الحرفي** المتسع والمتشعب، والذي شكل في المدينة القطاع الرئيسي.

تاريخياً ظهرت الحرف اثناء عملية التقسيم الاجتماعي الثاني للعمل. فقد ظهر التقسيم الاجتماعي الأول في انفصال قبائل الرعاة وعشائرها عن الكتلة العامة لمشاعات المجتمع البدائي التي بذلت معظم نشاطها في العمل الزراعي. ومع تطور الزراعة وتربية الماشية وتحسن وتوسع أدوات العمل نشأ الإنتاج الحرفي كنشاط واعٍ في خدمة الزراعة وتربية الماشية. ومع تطور هذا الإنتاج وتعمق التبادل حدث ثاني تقسيم اجتماعي كبير

للعمل حين انفصلت الحرفة عن النشاط الزراعي ونشاط تربية الماشية. وفيما بعد حدث تقسيم العمل الاجتماعي الكبير الثالث بظهور فرع التجارة.

كان أول شكل للحرفة هو **الحرفة المنزلية**، التي ولدت في أحضان الاقتصاد الطبيعي، وظلت محتفظة بوجودها إلى هذا الحد أو ذاك حتى العصر الرأسمالي. ومع تطور التقسيم الاجتماعي للعمل ظهر شكلان جديدان للحرفة أكثر تطوراً تمركزا في المدن وهما:

الحرفة بناء على الطلب، التي نشأت نتيجة تطور التبادل. في هذا النوع من الحرفة تمتع الحرفي باستثماراته الخاصة وأنتج منتجاته بناء على طلب الموصين سواء استخدم مواده الأولية أو مواد الموصين أنفسهم. كما يلحق بهذا النوع من الحرفة انتقال الحرفي إلى استثماره الآخرين على أساس الدفع له مياومة أو حسب القطعة.

الحرفة المنتجة للسوق، التي نشأت مع تطور التبادل واتساع دائرة التخصص. وفيها يتخصص الانسان الحرفي في عمله الصناعي ويتابع نشاطه الإنتاجي ويكدس منتجاته ليعرضها على السوق بذاته وهكذا يكون منتجاً وتاجراً. وكلما تطور السوق زاد تقسيم العمل في النشاط الحرفي وتنوع التخصص لا سيما عند ظهور المدن وتطورها.

سنستعرض هنا حول الحرف وثيقتين كتبت الأولى في القرن السادس عشر والثانية في أواخر القرن التاسع عشر واوائل

القرن العشرين لالقاء بعض الضوء على النشاط الحرفي في فترتين مختلفتين.

الوثيقة الأولى بعنوان «ضوء السراج فيما قيل في النساج» لمؤلفه المؤرخ الدمشقي العلامة «شمس الدين أحمد بن طولون الحنفي المتوفى في سنة ٩٥٣ م. ومع أن هذه الوثيقة لا تعالج إلا حرفة النسيج، إلا أنها تلقي الأضواء الكافية على حرفة من أكثر الحرف أهمية واتساعاً. يقول ابن طولون أن أنواع الحياك، في القرن السادس عشر قد تفوق ألف نوع «إذ ليس ثمة صنعة من الصنايع تتفرع إلى أكثر منها» و «عليها مدار أكثر الخلق». ولم يتطرق ابن طولون إلى الألف نوع من الحياك، بل اقتصر على ابراز خمسة عشر نوعاً منها فقط وهي حياك القطن، وحياك الكتان، وحياك الحرير، وحياك المناشف، وحياك العبي، وحياك الصوف، وحياك البسط، وحياك البلاسات، وحياك النوارات، حياك الزوامل، الحياكون، حياك الجوخ، حياك الحصر، المناخلية، الغرابلية.

وبعد أن يفصل ابن طولون في هذه الحرف النسيجية وفي تقنيتها ينتقل إلى الوضع الاجتماعي للحياك (حرفيو النسيج) مشيراً إلى نظرة الازدراء التي أحاطهم بها المجتمع الاسلامي أو قل فقهاؤه. ويبدو أن الحياك لم يكونوا يتمتعون بحقوق انسان القرن السادس عشر العثماني من حيث الكفاءة في النكاح والشهادة. والغريب أن القاسمي كتب، في أواخر القرن التاسع عشر، عن الحياكة أنها «صنعة دنيئة غير شريفة» !!!

الوثيقة العربية الأخرى الهامة، التي تعالج الانتاج الحرفي هي «قاموس الصناعات الشامية»١/١ الموضوع في أواخر القرن التاسع عشر. هذا المعجم، وهو من انتاج آل القاسمي العائلة الدمشقية، تضمن وصفاً لأربعمئة وسبع وثلاثين صناعة، أي حرفة، زال قسم كبير منها أو استبدل بعضها بصناعات جديدة.

وقد عقد صاحب القاموس فصلاً سماه: «في ذكر بعض آداب الكسب والمعاملة» مبني على أحكام الشريعة الاسلامية والخبرة الاجتماعية للمجتمع. فهو يحدد أولاً الذين لا يجوز التعامل معهم، وهم: الصبي، المجنون، العبد، والأعمى.. وثانياً ـ ان يتحرى عند العقد الايجاب والقبول.. وثالثا ـ أن يمتنع عن الاحتكار.. ورابعاً ـ أن ينصح في المعاملة.. وخامساً ـ أن يمتنع عن الغبن الفاحش.. وسادساً ـ الورع.. وسابعاً ـ ذكر الله تعالى في السوق.. وثامناً ـ أن لا يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه.

وفي فصل آخر سماه «في الاشارة إلى أمهات الصناعات» يعتبر المؤلف الفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة من الصناعات الضرورية. ويرى من الصناعات الشريفة في الموضوع: التوليد، الكتابة، الوراقة، الطب.

والواقع ان دراسة النشاطات الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية تقدم لنا مادة غنية عن الحرف ومشكلاتها في القرن التاسع عشر.

إن قاموس الصناعات الشامية» ودراسة الياس قدسي الموضوعة عام ١٨٨٣ حول الحرف الدمشقية، والتي سننقل عنها في فصل المنظمات الحرفية، تعد من المواد الغزيرة والهامة المكتوبة باللغة العربية، والتي سنستقي منها في أكثر من مكان.

٢ - **قطاع التبادل** بين المدينة والقرى القريبة المجاورة لها. فالفلاحون حملوا يومياً انتاجهم السريع العطب والتلف إلى المدينة وبادلوه بحاجتهم من الحبوب واللحوم والبضائع الحرفية نصف المصنعة. وعن هذا الطريق ارتبط فلاحو القرى المجاورة باقتصاد المدينة وتحسسوا السياسات اليومية الجارية فيها وكوّنوا قطاعاً من العامة سيكون له دور ملحوظ في انتفاضاتها في كثير من الأحيان.

٣ - **قطاع تجارة الاستيراد والتصدير** مع مراكز التصنيع والمعالجة الأخرى في مختلف مناطق بلاد الشام والولايات العثمانية الأخرى المجاورة، وحتى خارج حدود الدولة العثمانية. وقد أحرز هذا القطاع نجاحاً ملحوظاً في فترات متعددة دلّ عليه كثرة الخانات، التي بنيت لتخزين البضائع وتوضيبها وتسويقها. وقد كان لتلك الخانات حياة خاصة قائمة بذاتها تبدأ من المكاري، الذي ينقل البضائع من مكان إلى آخر وتنتهي بالتاجر «صاحب» البضاعة مروراً بالمختصين في توضيب البضائع وتصنيعها وحزمها وتحميلها. وكثير من وثائق ذلك العهد تتكلم عن الحياة في الخانات، التي كانت عبارة عن مستودعات لخزن البضائع من جهة، وفنادق لايواء الغرباء من جهة أخرى.

٤ ـ **قطاع التبادل مع المناطق المنتجة للحبوب والبوادي المنتجو للمواشي وحيوانات الركوب**. وقد شغل هذا القطاع حيزاً هاماً من نشاط المدينة وبخاصة قسمها الجنوبي (حي الميدان) المرتبط بسهول حوران منتجة الحبوب، أو بالأقسام الأخرى المرتبطة بسهول حمص وحماة، التي كانت تموّن المدينة أيضاً بالحبوب والمواشي[١/٢].

ولا شك أن دراسة تفصيلية معمقة لتجارة الحبوب والمواشي بين دمشق والمناطق البعيدة ستكشف جانباً هاماً من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية لمدينة دمشق، وبخاصة قضية العلاقة بين تجار الحبوب والمواشي من جهة وسلطات الولاية العثمانية من جهة أخرى.

٥ ـ **قطاع التبادل مع العالم الخارجي (الأوروبي)**. هذا القطاع كان نامياً في حلب منذ القرن السابع عشر، في حين تأخر ظهوره في دمشق إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإن هذا القطاع بقي في تلك الفترة محصوراً بالنشاط التجاري القائم مع مينائي بيروت وحيفا.

٦ ـ **وثمة نشاط اقتصادي من نوع خاص** فرضه موقع دمشق على طريق الحج وما تحتاجه قوافل الحجيج من منتجات حرفية ومواد غذائية. وكان موسم الحج فترة ازدهار ملحوظة لمعظم الفئات الاجتماعية في دمشق من حرفية وفلاحية وتجارية. وكانت المضاربات بالبضائع تشكل أرباحاً ضخمة خصوصاً عندما يبتعد موسم حصاد الحبوب في شهري أيار وحزيران عن موسم الحج المتحرك على مدار السنة.

الفصل الثاني

العامة

العامة * هي خلاف الخاصة. وقد اختلف مدلولهما من عصر لآخر ومن مؤرخ لآخر منذ دخولها اللغة في العصر العباسي، فكان يراد بالخاصة أصحاب الخليفة من ذوي قرباه ومن رجالات الدولة البارزين كالوزراء والكتاب والقواد والأشراف والقضاة.

وثمة من يضيف إلى الخاصة بعض المقربين من أهل الفن الموهوبين والعلماء وأهل الأدب، كما وضع البعض التجار في عداد الخاصة ١/٣.

وكان هؤلاء الخاصة يختلفون نفوذا أو سطوة باختلاف الحكام واختلاف الظروف الداخلية والخارجية المحيطة بهم.

أما سبب تسمية العامة بهذا الاسم فيعود إلى كثرتهم وعدم احاطة البصر بهم. ويصفهم ابن الأثير بـ «السواد الأعظم» أي أنهم كان يشملون القطاع الأوسع من الشعب[٢].

ولم تختلف العامة عن الخاصة بكثرة عددها فقط، بل اختلفت عنها ـ وهذا هو الأهم ـ بكونها ليست من أصحاب

السلطة، وما تجره وراءها من مغانم وثروة ونفوذ وحياة ناعمة هادئة مريحة غير منتجة، ومن هنا جاء الاختلاف في وضع التجار: هل هم من العامة أم من الخاصة؟

والواقع أن التجار كانوا حلقة وصل بين العامة التي انتسبوا اليها وتحدروا منها، وبين الخاصة التي يتصلون بها ويؤمنون لها الكماليات ويشاركونها في تقاسم الثروة واستثمار العامة.

ومن معاني العامة: «السوقة»، وهي كما يقول الجوهري (١٠٠١ م). «خلاف الملك، والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان، الذكر والأنثى سواء، والجمع السوق وقيل أوساطهم».

وقد أكد ذلك ابن منظور (١٣١١ م) بقوله: «السوقة. بمنزلة الرعية التي تسوقها الملوك. وسموا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم. يقال للواحد سوقة وللجماعة سوقة»[٣].

أما الذين انتموا إلى العامة في العصر العباسي فهم أهل المهن والصنائع والتجار والخدم (من الاماء والرقيق)، والفلاحون والجند واللصوص والعيارون والشطار.

ولم تكن النظرة إلى العامة في غالب الأحيان تنطوي على احترام. ومن هنا نجد التسميات الأخرى التي أصبحت مرادفة لكلمة العامة، والتي لا تخلو من استهانة أو نقد، ففي رسالة الجاحظ في وصف العوام وصف بعض أهل الصنايع والباعة بأنهم من سفلة الناس، أمثال الحائك والطيان والفلاح وبائع

السمك، وقد وصف بأنهم من سقاط الناس[٤].

وللعامة أوصاف أخرى، فالمسعودي (٩٥٧ م) يقول «بأن الناس قد أجمعوا على تسميتهم بالغوغاء». أما الصابي، والغزالي في «تهافت الفلاسفة» فسمياهم بـ «الجماهير الدهماء» ولقبهم ابن عساكر بـ «الجهال الأغتام». ومن الأوصاف التي اطلقت عليهم: «الأوباش» و «الرعاع»، وذلك بسبب جهلهم وفقرهم[٥].

اشتهرت في العصر العباسي، وبخاصة في القرن الخامس الهجري حركات العيارين والشطار من العامة.. واتخذت تحركاتهم طابعين متميزين: الطابع الأول اتخذ شكل حركات ثورية عنيفة قام بها بعض أجزاء العامة من العيارين والشطار، وتوجهت ضد السلطة الحاكمة وأصحاب الأموال. والطابع الثاني اتخذ شكل ثورات، اشتركت فيها العامة قاطبة، وتوجهت ضد السلطة الأجنبية البويهية أولا والسلجوقية ثانياً[٦].

* * *

إذا انتقلنا إلى المجتمع العثماني في مدن بلاد الشام وبخاصة في دمشق وحلب نجد أن الفئة العليا من الخاصة لم تكن بسبب نظام العزل والمصادرة مستقرّة، فالوالي والدفتردار والقاضي وقائد الانكشارية وغيرهم من كبار الموظفين كانوا يعزلون سنوياً، وندر من بقي منهم في منصبه أكثر من عدة سنوات. ومعنى ذلك أن الفئة العليا من الخاصة لم تنعم بالاستقرار

والهدوء بل سيطر عليها الخوف والقلق من العزل والمصادرة، ولهذا تميزت بالبطش والشراسة والركض لجمع أكبر كمية ممكنة من الثروة. ولم تكن حال الفئة الدنيا من الخاصة، العاملة تحت امرة سلطة الولاية بأحسن من حالة اسيادها المؤقتين، وهي تعرض خدماتها على كل حاكم جديد، فتنجح في المحافظة على سلطتها أحياناً، ويطالها سيف العزل والمصادرة أحياناً أخرى.

أما العامة في مدينتي دمشق وحلب في القرنين السابع عشر والثامن عشر المقصودة في البحث، فتألفت من فئات عديدة هي:

الحرفيون:

وهم عماد العامة وروحها، وهم بمنزلة عمال الصناعة بالنسبة إلى الطبقة العاملة في عصر الرأسمالية. وعلى الرغم من وجود تناقضات بين شرائح الحرفيين المختلفة، المعلمون، الصناع، الاجراء فصّلنا في مبحث المنظمات الحرفية، الا انهم كونوا، على العموم، كتلة متحدة وقفت للدفاع عن مصالح الحرفة ومصالح أفرادها ومقاومة ظلم الحكام وتعسفهم.

كان الحرفيون يرون في استثماراتهم وانتاجهم وتبادلهم، أي في استقلالهم الاقتصادي، القوة الرئيسية التي تمكنهم من نيل استقلالهم السياسي وتوطيده. وعلى هذا الأساس دخلوا كما سنرى في صراعهم الطبقي مع ممثلي الاقطاعية الشرقية العثمانية

وتعـددت تحركـاتهم الثوريـة التقدميـة الموضـوع الرئيسي لهـذا الكتاب.

ومثّـل الحرفيـون الجانب الايجـابي الثوري للعـامة وجنـاحها التقـدمي الأكثر وعيـاً في ذلك الحـين، على الـرغم من الطابـع المحـافظ للحـرف وكـونها أحـد وجهي النـظام الاقـطاعي. وسنبحث الشرائح الاجتماعية داخل الحرف في فقرة المنظمـات الحرفية.

الخدم:

وكـانوا رقيقـا وأحرارا عملوا في قصـور الحكـام والأغنيـاء، وتكـونت لديهم الأخـلاق المعروفـة للخـدم، ولهـذا لم يكـونـوا كشريحة فئة ثورية متماسكة ذات شأن.

الجند:

والمقصود هنا الجند المتحدرة من دمشق وحلب، وليس الجند الأغـراب المـرتـزقـة الـذين وقفـوا دائـماً إلى جـانب الخـاصـة واضطهدوا العامة وكـانوا السـاعد الأيمن للحكـام. أما الجنـود الدمشقيون والحلبيون الذين يرجعون بـأصولهم الاجتمـاعية إلى العـامة فلم يكن وضعهم المعـاشي متميزاً عن العـوام. ونجـد لديهم طبيعتين مختلفتين، فهم بصفتهم من العامة وقفوا أحيـاناً إلى جانبها وشدوا أزرها في صراعها مع الخاصـة، ولكنهم كثيراً ما أيدوا الخاصة وقمعـوا تحركـات العامـة لقاء أجـور تقاضـوها ثمن خدماتهم ودفاعهم عن النظام الاقطاعي السائد.

الباعة:

وهي تلك الفئة من العامة التي تتولى بيع المواد الاستهلاكية الضرورية لحياة الناس اليومية. وهم بحكم عملهم على تماس مع المشترين من جهة، ومع التجار والحرفيين من جهة أخرى، وهم مستثمرون من الأعلى، ويسعون لاستثمار الأدنى منهم من جهة أخرى. وهذا أمر خلق لديهم مواقف متناقضة غير ثابتة.

التجار:

ويضعهم البعض بسبب ثروتهم في صف الخاصة، في حين يعتبرهم الآخرون من العامة. والواقع أن التجار يؤلفون فئة خاصة متميزة تتصل بالحكام وتسعى لكسب حمايتهم لتأمين عملية التبادل التجاري وضمان الربح على حساب العامة، ولكنهم من جهة ثانية يؤيدون بعض تحركات العامة إذا كانت تهدف إلى تطوير الاقتصاد أو الخلاص من تعسف الحكام الموجه في بعض جوانبه ضد التجار وثرواتهم.

والتجار أصناف، فمنهم من يتاجر بالمنتجات المحلية، وكان معظمهم من المسلمين، ومنهم من اختص بالتجارة الخارجية، وبخاصة في حلب، وكان معظمهم من المسيحيين العرب أو المستعربين. ولقد قام عدد من التجار بتخزين البضائع واحتكارها وتحقيق الارباح الباهظة. وكثيرا ما ثارت العامة على هؤلاء في أيام الجوع والازمات.

ولقد مثلت الفئات التجارية ذات العلاقة الوثيقة مع الانتاج الحرفي المتطور والمتطلعة الى إقامة بعض الصناعات، بداية

التفكير البورجوازي الناقم على النظام الاقطاعي. وسنرى فيما بعد ان أحد الاسباب الذي أخر نمو التطور البورجوازي هو ظهور البذرة البورجوازية في الوسط التجاري المسيحي وعدم تمكن هذا الوسط من قيادة العامة المسلمة، بل على العكس فان الفئات الرجعية في المجتمع استطاعت تحريك الفئات المتخلفة من العامة المسلمة ضد طلائع التطور البورجوازي المتمركزة في الاوساط المسيحية.

العامة الرثة:

وهي ما تقابل في المصطلح الماركسي البروليتاريا الرثة، وتألفت من اللصوص والمجرمين، والشحاذين، والقوادين والمومسات، المتسكعين في أزقة المدن وساحاتها، والغرباء العاطلين عن العمل، والمهرجين، والمغنين، والطبالين، والراقصات، والمجاذيب.. الخ.. وهؤلاء هم نتاج المجتمع الاقطاعي المتفسخ، وأحد مظاهره وثماره المرة.

وقد تمكن الحكام من شراء شرائح من العامة الرثة واستخدامها ضد ابناء جلدتها من العامة أو ضد حاكم آخر في منطقة أخرى. وكثيرا ما انتقلت شرائح العامة الرثة من منطقة الى أخرى عارضة خدماتها كمرتزقة لمن يدفع الثمن.

وهكذا كانت العامة الرثة في كثير من الاحيان احدى عناصر الثورة المضادة لتحركات العامة. ومع أنها شاركت في كثير من الاحيان في تحركات العامة إلا أن ضررها كان اكثر من نفعها.

لقد أضرت العامة الرثة التحركات الجماهيرية في النواحي التالية:

- عدم انضباطيتها وفوضويتها في أثناء التحرك.
- ميلها للسلب والنهب والتخريب بسبب ودون سبب.

- الخروج من أهداف التحرك ومراميه واتباع سياسة عشوائية مدمرة.

- صرف مسار التحرك عن وجهته الصحيحة وتحويل هدفه الاجتماعي أو المطلبي الى تحرك غوغائي طائفي، ضد الاقلية المسيحية لصالح الطبقة الحاكمة الاقطاعية.

- عدم الصمود في أثناء القتال والتراجع بسرعة وخلق بلبلة في صفوف العامة.

- إعطاء المبرر لوصف تحرك العامة، ذي المضمون الاجتماعي والسياسي باللصوصية والزعرنة والفجور والتعصب المذهبي.

- إضاعة فئات واسعة من العامة ودفعها إلى مقاومة التحرك والوقوف على الحياد.

الفصل الثالث

مدن بلاد الشام والحكم العثماني الاقطاعي

١ ـ المدن السورية قبل الفتح العثماني:

عرفت المدن السورية ازدهارا ملحوظا في العهد الاموي، الذي اتخذ من دمشق عاصمة له. وبعد انتصار العباسيين ونقل عاصمة الخلافة إلى العراق تراجعت المدن السورية، لأن العباسيين ارهقوا سورية ومدنها ارهاقاً منظماً متعمداً حتى لا تقوم للأمويين قائمة. ثم توالت عصور الفوضى والحروب وغزوات التتار والصليبيين وكذلك البدو، فازداد الخراب وتراجع العمران. ولم يوقف الحكم الفاطمي هذا التدهور، بل ازدادت الحالة حرجا ولا سيما في دمشق، التي نكبت، فوق المفاسد الحكومية، بتلك الاختلافات المتتابعة، التي كان يثيرها في جمهور السكان تسلط العسكر البربري القادم مع الفاطميين من المغرب. ولم ينته هذا العصر الحافل بالاضطرابات والاغتصابات، وهو من أدكن العصور التي عرفتها سورية في تاريخها، إلا بظهور الأتراك السلجوقيين. وفي عهد الأتابك والأيوبيين وبخاصة أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث عرفت دمشق نهضة حقيقية ذكرتها بأيام الامويين. فهي مقر

البلاط السلطاني والمركز الاقتصادي والعسكري والديني والثقافي لمحاربة الفاطميين أولا والصليبيين ثانيا والتيارات الشيعية ثالثا. ولكن الاجتياح المغولي عام ١٢٦٠ وما نجم عنه من خضوع سورية للمماليك في مصر عرقل التطور الصاعد للمدن السورية، وبخاصة بعد وصول المماليك الجراكسة الى السلطة، الذين بدأوا عهدا من الارهاب والسلب والتعديات والتهاون في ضبط الأمور. وهذا مما عجل، مع أسباب عدة، في خراب البلاد حتى مجيء الاتراك العثمانيين، الذين احتلوا سورية ومصر بجهود طفيفة.

٢ - المدن السورية في مطلع الحكم العثماني:

بعد تجاوز الازمة السياسية الداخلية والخارجية في منتصف القرن الخامس عشر بدأت مرحلة الفتح التركي، التي أدت إلى قيام الدولة العثمانية وتحولها الى امبراطورية عالمية هددت حكم آل هابسبورغ في النمسا ودولة الصفويين الشيعة في إيران. لقد امتدت الدولة العثمانية من شمالي أفريقيا حتى القوقاز ومن جنوب شرقي اوروبا حتى سواحل شبه الجزيرة العربية.

في عام ١٥١٦ احتل السلطان سليم الأول سورية الخاضعة لمماليك مصر. وفي العام التالي استولى على القاهرة وقضى على دولة المماليك ودانت له الحجاز. وفي السنين التالية خضعت بلدان أفريقيا العربية وكذلك العراق للسلطة العثمانية.

وعلى العموم احتفظ العثمانيون في بلاد الشام وسائر الأقطار العربية بالنظام الاجتماعي السائد آنذاك. فنظام ملكية الأرض

بقي مقسما إلى ثلاثة أصناف رئيسية: أراضي الدولة الأميرية وأراضي الاوقاف وأراضي الملكيات الخاصة وهي قليلة نسبيا.

أما المدن العربية السورية فبقيت حتى القرن الثامن عشر متسمة بطابع القرون الوسطى. فالانتاج الحرفي والتجارة هما النشاط الاقتصادي الملحوظ في المدن. واتصفت دمشق وحلب بالأضافة إلى ذلك بأنها مراكز إدارية تربع فيها الباشوات والبكوات الاتراك وعدد من الموظفين ورجال الحامية. والواضح أن نسبة كبيرة من سكان دمشق وحلب كانت غير منتجة من أمثال العساكر وأصحاب الاطيان ورجال الدين والتجار وخدمهم واعداد من المجاذيب والمهرجين والمغنين والطبالين والراقصات... الخ. وقد أعاق النظام الاقطاعي العثماني تطور المدن العربية وحد من منافسة التجار المحليين للتجار الاجانب. وقام نظام الادارة المركزية والمحلية بإعاقة تطور القوى المنتجة وأدى إلى تأخر الزراعة وتراجع الحرف. وكل ذلك أدى إلى القضاء على كل إمكانية لقيام المانيفناكتورات (الورشات) الرأسمالية المبكرة.

ومع أن اكتشاف رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين في أواخر القرن وانعزال المشرق العربي عن الطرق التجارية العالمية احدث تراجعاً في التطور الاقتصادي، إلا أن مدينة دمشق بفضل موقعها على طريق الحج من الاناضول الى الحجاز استطاعت أن تحافظ على بعض مظاهر الحركة الاقتصادية، وبخاصة ماله علاقة بشؤون قوافل الحجاج، فعلى طريق الحج

تمركزت الى الجنوب من دمشق مستودعات الحبوب القادمة من حوران وبدا حي الميدان في الانتشار على جانبي الطريق المؤدي إلى حوران والحجاز. وكانت مواسم الحج فترة التحرك الاقتصادي في المدينة ينتظرها السكان ويعلقون عليها الآمال لتبادل السلع. أما حلب فسعى تجارها جاهدين للمحافظة على مركزها التجاري كصلة وصل بين الشرق والغرب.

٣ ـ حكام المدن:

تتألف أركان الولاية من: الوالي، المتسلم، القاضي، المفتي، الدفتردار، وآغا الانكشارية.

وكانت الصفة الغالبة تغيير الولاة بحيث لم يقض الوالي عادة في ولايته اكثر من عام وندر من بقي في منصبه عدة سنوات. فقد ولي الشام واحد وتسعون واليا في القرن الحادي عشر / السابع عشر حكم خمسة منهم ربع المدة. وانخفض الرقم الى النصف في القرن الثامن عشر فحكم اثنان ربع المدة وخمسة ولاة أكثر من نصفها. وعادت النسبة فارتفعت إلى أربع وستين واليا في القرن الثالث عشر / التاسع عشر. وقد بلغ عدد الولاة العثمانيين على دمشق من عام **١٥١٦** إلى **١٩١٨** قرابة مائتين وسبعين والياً حكموها قرابة أربعة قرون. أما حلب فحكمها خلال الفترة ذاتها أكثر من مائتي وال[١٠] فكان معدل ولاية الحاكم سنة ونصف.

هؤلاء الولاة انحدروا من جنسيات مختلفة صربية والبانية وشركسية ومجرية وايطالية وشعوب أوروبية أخرى. وندر من

كان منهم من أصل عربي أو تركي. وكان اكثرهم قد بدأ حياته غلاما نصرانيا دخل في خدمة السلطان كأحد مماليكه بطريق الاسر أو الشراء أو المصادرة (دفشرمة) ثم الحق بمدرسة البلاط وتخرج منها بعد ذلك وترقى في مناصب الدولة... كما وجد بعض الولاة المتخرجين من قسم الحريم أو كانوا مماليك لدى الولاة وتخرجوا من ديوان الموالي[11].

واستمر الوضع على هذا المنوال حتى القرن الثامن عشر حيث وصل إلى سدة الولاية «الاحرار» المنشأ.

وعلى العموم فإن الوالي كان يسعى لدى وصوله إلى الولاية إلى بعث الرهبة والخوف في قلوب الرعية. فكثيرا ما يقتل أعيان المدينة خوفا من نفوذهم ويأمر بجمع الاموال من الناس وبنهب الحارات. وكان آخرون يأمرون بمعاقبة القتلة والمجرمين واللصوص بشنقهم. وبعضهم يقوم «بأعمال الخير» لكسب ود العامة مثل الامر بتطهير الاولاد الصغار وكسوهم الثياب الجديدة. واهتم بعضهم بالمكاييل والاوزان.

على أن هناك أمرين عني بهما ولاة دمشق، الاول الاشراف على بناء الترب والمساجد والحمامات والخانات والتكايا والقصور والاسواق والمدارس والجسور، والثاني العناية بطريق الحج[12]، إذ أن هذه هي المهمة الرئيسية لوالي دمشق وعلى نجاحها يتوقف مستقبله.

لا بد عند الحديث عن الشؤون المالية من التعرض لليهود، الذين ارتبط اسمهم في بلاد الشام بجباية الاموال الاميرية

وصرفها وسرقتها ومسك حسابات الولاية والاطلاع على أسرارها وابتزاز الاموال وتحقيق النفوذ. ومع أن عدد اليهود في مدن الشرق كان قليلا إلا أن نفوذهم كان كبيرا. ومرد ذلك إلى تعاطيهم التجارة والولاية والصرافة وبعض الصناعات البسيطة.

في أوائل القرن التاسع عشر لمعت أسرة فارحي الاندلسية الاصل، التي جاءت الاناضول على أثر حوادث محاكم التفتيش **١٤٩٢** في اسبانيا. ثم انتقل قسم من العائلة الى دمشق وكانوا كتاب الحكومات في عكا ودمشق وخزان الاموال فيها. وترسخ نفوذهم بفضل فروع العائلة الموجودة في استنبول والمسيطرة أيضاً على دوائر المالية فيها[١٣].

وقد احتكرت أسرة فارحي اليهودية، بفضل صلاتها هذه، الشؤون الحسابية وأسراراها المالية، حتى ما كان متعلقا منها بقافلة الحج الشامي[١٤].

وكان آل فارحي يبغضون الكتاب المسلمين والمسيحيين، الذين يتقربون من السلطة ويشون بهم للولاة لابعادهم واحتكار الدواوين لهم، وعندما ظهرت أسرة آل البحري المسيحية نشب في الربع الثاني من القرن التاسع عشر صراع قوي بين الاسرتين.

وقد تقدم أهالي الشام ممن يطمع في الحصول على مراكز آل فارحي بالشكوى من هؤلاء الصيارفة وطلبوا إبعادهم. ولم يكن ذلك بالأمر السهل نظراً لمركزهم القوي في العاصمة

استنبـول، وبسبب تمكنهم من مهنة الحسـابات وكتـابتهم لهـذه الحسـابات بـاللغة العبـرية، التي لا يعـرفها سـواهم. وكـانـوا يحصلون من استنبـول عـلى أوامـر سلطانيـة تشـير الى تـوظيف الصراف على خزينة الولاية. وبمـا أن الوالي كـان يعزل بسـرعة وهم باقون، فان حكم الولاة الفعلي الخفي يصبح في أيـديهم. وكـان الوالي مضـطرا إلى مجاملتهم حتى يستـطيع الحصـول على كميـة كبيرة من الغنيمـة، وهم يؤمنون لـه الحمايـة الماليـة عن طـريق تقديم حسـابات الـواردات والصادرات المـزورة مغفلين منها المبالـغ المنهوبـة لهم وله ولاركـان الولايـة ولصراف البـاب العالي وكبار موظفيه.

عدا عن ذلك استفاد صيارفة اليهود من إضـطرار الفلاحـين الى الاستدانة لدفع الاموال الاميرية قبل الموسم بسبب الحساب القمـري، الذي لا يتفق مـع السنـة الشمسيـة، التي بحسبهـا تكون الغلال، وكان الصيارفة اليهود يقـدمون المـال للفلاحـين كـدين حتى المـوسم بصـورة ربـا رهيب. كـما تمكنـوا من جمـع الاموال عن طريق رفع أسعار النقود قبل موسـم الحـج وتخفيضها بعد سفر الحجاج بصورة استطاعوا أن يـربحوا في أثنـاء ارتفاع سعر العملة وفي اثناء هبوطها.

بعـد الحملة المصريـة على سـوريـة ١٨٢٢ ـ ١٨٤٠ ضعف نفـوذ اليهـود في دوائـر الخـزينـة، فلجـأوا، من أجـل استعـادة نفـوذهم، إلى بعض أعيان دمشق للتـوسط بينهم وبين الـوالي. ولكن ذلك كان يكلفهم نفقات باهظة يدفعونها للوساطة. ولذا لجأوا الى طريقة طريفة، إذ قام كبيـرهم (شمعايـا) ببناء قصـره

المشهور في دمر إلى الغرب من دمشق على الطريق المؤدي الى المدينة. وصارت طائفة الصيارفة اليهود لا يدعون والياً يدخل الشام قبل استضافته في قصر شمعايا «معززاً مكرماً»، بحيث يخرج من القصر وجيوبه ملآنة وصلاته مع الصيارفة اليهود متينة. وهكذا تمكن الصيارفة اليهود من السيطرة المالية على الولاية بنفقات قليلة وهمة قصر شمعايا.

وعلى الرغم من هذه الصلات الوثيقة مع أركان الولاية فان اليهود بقوا من ناحية أخرى منعزلين عن السكان. وعرفوا ببغضهم للمسيحيين وتوثيق علاقتهم مع المتنفذين لحمايتهم وتسهيل اعمالهم، واتصف يهود دمشق وحلب بالتعصب الشديد وبالخرافات والاساطير المنتشرة بينهم وبالسرية في كل أمر من أمورهم(١٥)، ومع أنهم تمكنوا في أثناء الثورات والقلاقل من إرضاء الزعماء وبقائهم بعيدين عن الاعتداء والنهب، إلا أن بعض تحركات العامة طالتهم بسبب غناهم الفاحش، وهذا ما سنعالجه فيما بعد.

وكان المتسلم أو قائمقام الولاية ممثلا للوالي الشرعي في حال غيابه أو عزله. وكثيرا ما أصطدم الوالي مع نائبه، وحيكت المؤامرات والدسائس من قبل الطرفين من أجل كسب المعركة.

وكان على الدفتردار (مدير الخزينة) أن يؤمن، بمساعدة الوالي إرسال الميري إلى الباب العالي. والميري هو المبلغ المرسل من الولاية لسد مصاريف الادارة المركزية. وكان الدفتردار منفصلا عن الوالي ويعين مباشرة بفرمان من العاصمة حيث

فوضت إليه أمور الولاية المالية. والهدف من ذلك خلق التوازن بين الوالي والدفتردار(١٦).

وتحت أمرة الدفتردار عدد من الجباة وصفهم الشماس قسطنطين في منتصف القرن السابع عشر بأنهم «عتق كفرة أشرار ما يقدر أحد على عزلهم لانهم كانوا يدخلوا يبرطلوا الخراجي كل سنة ويبقوا جباة بحمايته ويتحكموا بالفقراء والمساكين»(١٧).

بالاضافة إلى الوالي ونائبه والدفتردار وجد في قمة السلطة في الولاية المفتي والقاضي، اللذين استقرت في يديهما السلطة القضائية. وقد اختلف نفوذ كل منهما تبعا لاختلاف الولاة ورجال السلطة الادارية وحدة الصراعات الاجتماعية ودرجة الامن السائدة.

وقد تمتع قضاة دمشق ببعض النفوذ واعتبروا ـ حسبما ورد في البديري ـ مسؤولين عن مكافحة الغلاء ومراقبة الاسعار. وكان على القاضي المعين بأمر من استنبول ان يدفع الرشوة لمن يساعده في الوصول إلى المنصب. ولهذا فكان عليه أن يمارس الدور نفسه ويرتشي لكي يعوض ما دفعه ويحقق الربح المطلوب. والرشوة كانت إما عن طريق الاحكام الصادرة عنه، أو عن طريق تعيين نوابه. وكان في دمشق ثماني محاكم شرعية كان على قضاتها، وهم من أبناء العائلات المحلية مثل الغزي والكزبري والاسطواني.. الخ، شراء مناصبهم من القاضي. وسيرد دور القاضي، وهو مستقل عن الوالي في كثير من

تحركات العامة سلباً أو إيجاباً. (نلفت نظر القارىء إلى مراجعة الهامش لمعرفة نوعية المواضيع والقضايا، التي عالجتها المحاكم الشرعية مأخوذة من إحدى سجلاتها في سنة **١٠٣٦** هـ)[١٨].

أما المفتي فكان يعين من قبل شيخ الاسلام في استنبول وقد اختلفت منزلته من زمن لآخر. وكان رجال الافتاء، على العموم أقل منزلة من القضاة، وجهازهم أقل تنظيما. ومن مهام المفتي إبداء الرأي في بعض المسائل الفقهية عند استشارته، فيضع السائل مشكلته في نصوص محدودة بحيث يجيب عنها المفتي بالسلب أو الايجاب ولم تكن الفتاوي المتناقضة نادرة الوقوع[١٩].

إن الوالي والمتسلم والقاضي والمفتي والدفتردار يمكن وضعهم جميعا في كفة ميزان الجهاز الاداري حتى يعادلوا الكفة المقابلة، التي تربعت فيها السلطة العسكرية، أي الانكشارية، التي كان دورها في الحكم وفي تحركات العامة بارزاً، واتسمت علاقتها مع السلطة المركزية والجهاز الاداري في الولاية والاشراف والعامة بسمات واضحة لا يمكن اغفالها.

ابتكر سلاطين بني عثمان ـ منذ عهد اورخان ـ طريقة جديدة لبناء جيش جديد عن طريق استرقاق أطفال بلاد «دار الحرب» وتدجينهم في مؤسسات خاصة وتربيتهم للخدمة في المؤسسات المدنية والعسكرية. ومن هؤلاء الاطفال المصادرين تكون الجيش الانكشاري ومعناه «يني تشري» أي النظام الجديد. وبهذا الجيش الانكشاري استطاع العثمانيون توسيع

ممتلكاتهم وبناء امبراطورية عالمية. ولكن هذا الجيش أصبح مع الزمن عامل خراب هذه الامبراطورية وتحول إلى آلة فساد وفوضى وخراب. ومع قلة خبرتهم في شؤون القتال كثرت حوادث تعدياتهم على أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم. فقد تحولوا من «ضباط أمن ودفاع» الى «آلات شر وفساد». وعلى الرغم من تطور الاسلحة وفنون القتال، التي هيأتها الثورة الصناعية في أوروبا، احتفظ الانكشاريون بأسلحتهم وانظمتهم القديمة المستمدة من ظروف العصور الوسطى الاقطاعية. وأمسوا بذلك مرآة التخلف الاقطاعي وأداته في تثبيت العلاقات الاقطاعية الشرقية السائدة آنذاك.

وبسبب اختلال الاوضاع الاجتماعية وتمثيلهم للنظام الاجتماعي الاقطاعي الشرقي المتصدع ومنشئهم التاريخي المأساوي تضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم، وصار الكثيرون منهم لا يذهبون الى الثكنات إلا لاستلام المرتبات - التي كانت تسمى باسم «العلوفات». وكثيراً ما باعوا تذاكر علوفاتهم الى الراغبين من الناس، كما تباع الاسهم والسندات. وأمسوا لا يجتمعون إلا لاعلان العصيان والمطالبة بزيادة العلوفات والعطايا، أو تنصيب وزير وعزل وال أو قتله عن طريق الدسائس والمؤمرات[٢٠] وعند إعلان الحرب لم تجد منهم إلا أعداداً ضئيلة سرعان ما كانت تولي الادبار من أول اصطدام مع العدو، ثم يعودون الى المدن، لينشروا الشائعات عن بطولاتهم وانتصاراتهم الموهومة.

تغلغل الانكشاريون في الحرف والنقابات واحتكروا كثيراً

من المهن مما أدى إلى فساد الحرف وتأخرها. وقد فشلت جهود الدولة لقطع العلاقة بين العسكريين والحرف. وتحولت القوى العسكرية الى كتل ترث احتكار المهن والحرف وتتمتع بامتيازات كثيرة وتتناول جرايات ثابتة ومحددة ومعينة. وسنرى فيما بعد كيف قامت العامة والعلماء لمقاومتهم والحد من نفوذهم والقضاء على بؤر الفساد ومصدر الفتنة واحد أسباب التخلف والفوضى والتأخر.

في أواخر القرن السابع عشر دخلت الدولة العثمانية أزمة خطيرة جدا تردد صداها في كافة ميادين الحياة الاجتماعية. فقد تدهور الاقتصاد، ودب الفساد في جهاز الدولة، وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية، وانحطت الثقافة. وقارن كارل ماركس وفردريك انجلس تركيا في ذلك الحين بجثة حصان تعفنت ودب فيها الفساد، «فانتشر منها ما فيه الكفاية من غاز المستنقعات وغيره من المواد «العطرية» الغازية»(٢١).

بعد قيام الثورة البورجوازية الفرنسية وهجومها الظافر سعى السلطان لاقامة حلف ضد هجمات البورجوازية الفرنسية مع بريطانيا وروسيا القيصرية. وبدأت محاولات الاصلاح تسير سيرا حثيثا ولكنها سرعان ما أصيبت بنكسة خطيرة في عهده السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧). إذ ثار الانكشارية على حركة الاصلاح وخلعوا السلطان وقتلوه. وبدا واضحا أن حركة الاصلاح لن يكتب لها النجاح إلا بإبادة قوى الانكشارية

أحد مصادر الفساد والفوضى. وهذا ما قام به السلطان محمود الثاني في ١٥ حزيران ١٨٢٦، إذ قام هذا السلطان بحركة جريئة أدت إلى إبادة الانكشارية ومحوهم وحل فرق الدراويش التابعة لهم المعروفة بالبكتاشية. ومع القضاء على الانكشارية في العاصمة أولا وفي الولايات ثانيا زال أحد مصادر الفوضى والفساد في الدولة العثمانية، التي تلقت في هذه الفترة ضربات من الغرب في البلقان ومن الشرق مع فتح إبراهيم باشا لسوريا ووصوله الى مشارف العاصمة عام ١٨٣١.

٤ ـ حركة الاصلاح لا تصل إلى أعماق المدينة:

إن تلك النكبات أدت إلى دفع حركة اصلاح النظم الادارية وأساليب الحكم خطوة إلى الامام باعلان «خط شريف كلخانة». في أواخر عام ١٨٣٩ وبهذا بدأ ما عرف باسم «التنظيمات» التي دشنت عهد الاصلاحات البورجوازية في الدولة العثمانية. وهذه «التنظيمات» كانت ردة فعل ضد نمو حركة التحرر الوطني المناهضة للاتراك. كما رمت أيضا الى تثبيت دعائم السلطة المركزية والحد من تدخل الدول الاوروبية في الشؤون الداخلية السياسية للدولة العثمانية.

إن حركة الاصلاح بمرحلتها الاولى الممتدة من ١٨٣٩ الى ١٨٥٦ تميزت باصلاح النظم الادارية والمالية والحقوقية والعسكرية والتربوية. وبعد حرب القرم ١٨٧٤ وبتأثير الدول الغربية اعلن السلطان في شباط ١٨٥٦ «الخط الهمايوني»،

الـذي دشن المـرحلة الثـانيـة من «التنـظيمـات من ١٨٥٦ الى ١٨٧٠».

ضمنت القوانين الجديدة الصـادرة بموجب «الخط الهمـايوني حرية حركة رأس المال الاجنبي في الدولة العثمانية. فتأسس في عام ١٨٥٦ البنك الامبراطوري العثمـاني برأسمـال انكليزي. وفي سنـة ١٨٦٧ اعترفت الـدولة العثمـانيـة بحق الاجـانب في تملك الاراضي. ونـال الرأسمـال الاجنبي عددا من امتيـازات مد الخطوط الحديدية. كما دشنت قوانين لصـالح البـورجوازيـة الناشئة مثل قانون الملكية في عام ١٨٥٨ وتأسيس محاكم تجاريـة مختلطة (١٨٦٠)، واصـدار قانـون الملاحـة (١٨٦٩) وقـانـون الجنسية (١٨٦٩). ولكن هذه التنـظيمات اصـطدمت بمقاومـة القوى الاقطاعية الفئة العليـا من رجال الـدين المسلمين وكبـار الموظفين وطغمة البلاط[٢٢].

وفي هـذه الفتـرة ظهـرت جمعيـة تـركيـا الفتــاة الليبـراليــة البورجوازية، التي سعت الى إقامة ملكية دستورية وإصـلاحات بورجوازية في الحقل السياسي والاقتصادي. وفي النصف الثاني من القرن التاسـع عشر بـدأت بالانتعـاش حركـات أدبية ذات محتوى سياسي عرفت بأسم النهضة.

وأخيراً تمكنت جمعية تركيا الفتـاة في سنة ١٨٧٦ من إصـدار الدستور «القـانون الاسـاسي للدولة العثمـانية»، الـذي عرف باسم «المشروطية» ورمى الى القضاء على الحكم المطلق والسـير بالاصلاح الى الامام. ولكن السلطان الجديد عبد الحميد الثاني

(١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) عطل الدستور وحل البرلمان وابعد مدحت باشا الصدر الاعظم، صاحب اليد الطولي في وضع الدستور. وهكذا انتهت حركة الاصلاح، وأقام السلطان عبد الحميد حكما اوتوقراطيا مطلقاً. واضطهد الحركة البورجوازية ـ الليبرالية، وأرهب الاقليات القومية وبخاصة الارمن، اتبع عبد الحميد سياسة الجامعة الاسلامية بهدف السيطرة على العالم الاسلامي تحت ظل خلافته. وسعى للاستفادة من التناقضات القائمة بين الدول الكبرى الطامعة في الدولة العثمانية وهي روسيا، بريطانيا، فرنسا، المانيا، وأخر بذلك انهيار الدولة العثمانية لفترة من الزمن. وفي هذه الاثناء. في ١٩٠٨ قامت جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب على عبد الحميد واعلنت الدستور المعطل منذ ١٨٧٦ وحكمت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، التي أدت الى زوال الحكم الاقطاعي التركي عن الاقطار العربية ومجيء الاستعمارين البريطاني والافرنسي عام ١٩١٨ باسم الانتداب.

٥ ـ المنظمات الحرفية:

سادت حياة الطبقة الحاكمة في مراكز الولايات السورية ـ من ولاة ومتسلمين ودفترداريين وقضاة وقادة الانكشارية ـ الاضطراب والقلق والتوتر وعقد النقص والخوف من العزل في كل لحظة فهؤلاء الحكام في الولايات لا يثقون بالمستقبل، لا يعرفون ما يخبئه لهم. ولهذا اقتصر همهم الوحيد على إرهاق المحكومين بالمال في أقل ما يمكن من الوقت. ولا سيما وانهم

اشتروا مراكزهم بالمال فعليهم أن يسعوا سعياً حثيثاً لاسترجاع ما انفقوا أضعافا مضاعفة قبل عزلهم.

وقد أدت حالة اضطراب الامن هذه وعدم الاستقرار الى دفع العامة الى المقاومة والتكتل. إذ لم يكن أمام العامة من ضمانة لحماية نفسها إلا التكتل وطلب الحماية الوهمية ضد الظلامات من الخليفة البعيد، الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بشق الانفس وبصورة نادرة.

ولهذا فالعامة كانت مضطرة الى مقاومة استبداد الحاكم أو تجنب هذا الاستبداد بالتعاون وتأليف الجمعيات ذات الطابع الديني والمحتوى السياسي والاجتماعي.

إن تلك الاوضاع المضطربة دفعت الناس إلى التكتل أيضا في الحرف حتى يتمكنوا من الدفاع عن حياتهم وأموالهم بالقوة أحياناً أو بشراء الشفاعات ورضى الحكام أحياناً أخرى. وهذا مما قوى روح المشاركة بين الجماعات الحرفية ورسوخ اتحاد أرباب الحرف. وأمسى كل انسان، حتى المكدون والبغايا، ينتمي الى عصبة أو نقابة حرفية لها أنظمتها الخاصة، التي تحمي أعضاءها من الحكام أولا ومن مزاحمة الآخرين ثانيا وتقوم بمساعدة المصابين والعاطلين ثالثا[٢٣].

قامت المنظمات الاولى للحرف على مبدأ سرية المهنة وخضوع الانتساب لهذه المنظمات الى شروط معينة، كما كان للترقي من درجة أجير الى صانع ومن ثم الى معلم شروط خاصة وحفلات معروفة. وقد ترأس كل منظمة رئيس عرف

باسم شيخ الحرفة أو شيخ الكار، ولمشايخ الحرف هؤلاء رئيس أعلى تخضع له سائر المنظمات الحرفية في المدينة ويساعده نقيب هو المسؤول عن الحرف مباشرة والعالم بأحوالها في حين كانت وظيفة شيخ المشايخ معنوية واشترط فيها النسب الهاشمي. وبعد تطبيق التنظيمات الخيرية العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر انتقصت سلطات شيخ المشايخ وسلبت منه بعض الصلاحيات مثل الضرب والسجن.

ولم تكن في منظمات الحرف قواعد موحدة في تحديد علاقة الصانع بالمعلم، بل كانت هذه القواعد تختلف من مهنة الى مهنة أخرى بحسب طبيعتها. وقد كانت بمجموعها قواعد عرفية تحدد الاجور وتعين ساعات العمل وتفرض التعطيل في الاعياد وأيام الجمع. ولم توضع قوانين تنظم العلاقات الحرفية والنقابية والعمالية إلا في مستهل القرن العشرين، بعد ظهور المشكلات العمالية في الدولة العثمانية واستفحال امر التناقضات بين الاجراء والصناع من جهة والمعلمين من جهة ثانية، وبعد تسرب أفكار الحركة العمالية الاوروبية الى الشرق(٢٤).

الفصل الرابع

الحرف الدمشقية في كتاب القدسي (١٨٨٣)

إن وصفاً شيقاً للحرف الدمشقية، أو بالاصح للعلاقات الاجتماعية الحرفية نجدها في مؤلف «**نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية**» في كتاب المؤتمر السادس للمستشرقين لعام **١٨٨٣** الصادر في ليدن **١٨٨٥ لمؤلفه الياس بن عبده بك قدسي**، الذي عاش في دمشق واطلع عن كثب على الحرف وجمع مادة البحث لتقديمها لمؤتمر المستشرقين[٢٥].

عقد القدسي الفصل الأول من دراسته لـ «شيخ المشايخ» للحرف وكان أيام القدسي (١٨٨٣) هو «السيد الشيخ أحمد أفندي منجك أرشد عايله بني عَجْلان من اشراف دمشق ومن السلالة النبوية الحسينية». وكانت عائلة العجلاني تحتكر منصب شيخ مشايخ الحرف كما احتكرت، لفترة، نقابة الاشراف ومشيخة الطرق، التي تولاها الأكبر سناً من أعضاء العائلة. ويذكر قدسي أن الشيخ أحمد تنازع على هذا المنصب مع أخيه عطا أفندي، الذي بويع في البدء على المشيخة. مما اضطر أحمد إلى الذهاب إلى استنبول واستحصل (طبعاً بعد دفع رشوة كبيرة) من السلطان على فرمان عال مثبت لحقوقه في

مشيخة المشايخ، لأنه أكبر سناً من أخيه عطا.

كان شيخ مشايخ **الحرف** الشيخ أحمد العجلاني يسكن في بيته بالقرب من الجامع الأموي ويعيش من إيراد أوقافه في ضواحي دمشق. وحسب رواية القدسي كان الشيخ أحمد «على جانب من التقى الإسلامي ويعرف فرض الكفاية من الفقه الديني ولكنه ليس على شيء كثير من العلوم الرياضية وبأقل من ذلك على صنعة أو حرفة».

وشيخ المشايخ كان يُعينّ مشايخ الحرف لأكثر من مئتي صنعة ويأمر وينهي ويعاقب ويفصل في المسائل الهامة ويحسم في الأمور الهامة للحرف. وهو الشيخ الأعلى لمشايخ الحرف والآمر والحاكم الأعظم والرئيس الأسمى الذي لا يُنتخب ولا يُعزل ولا يُبدل ولا يخلعه من منصبه إلاّ الموت أو الاستقالة. وكان بإمكانه أن يلقي من تعدّى من المشايخ أو من سائر أهل الحرف في السجن وأن يكبله بالقيود أو أن يضربه بالعصا. ولكن التنظيمات الخيرية في منتصف القرن التاسع عشر سلبت كثيراً من صلاحيات شيخ مشايخ الحرف وحدّت من سطوته وجبروته وتسلطه. وغدا منصبه مقتصراً على التصديق على تنصيب شيخ حرفة من الحرف بعد أن ينتخبه **معلموها**. وحتى هذا التصديق لم يبق الزاماً، إذ أن كثيراً من مشايخ الحرف لم يهتموا بالحصول على تصديق شيخ المشايخ، وبخاصة إذا كانوا من غير المسلمين، وسعوا للحصول على البيولوردي (الأمر) وختم المشيخة من قبل مجلس البلدية وبذلك تخلصوا من دفع رسوم

المشيخة وحلف يمين الصداقة، ذي المحتوى الديني الإسلامي. وهـذا السبب كان يـدفع المتـدينين من مشـايـخ الحـرف، وهـم الكثـرة الغالبـة، للحصول عـلى تصديق شيـخ مشايـخ الحرف لاعتقـادهم «بسريـرة شيخ المشايخ سليـل النبي وببركـاته التي تجلب الخيرات وتدرأ المضرات».

ولكن شيـخ المشايـخ بسبب منصبه الـديني لم يكن بـوسعـه حضور الاجتماعات العمومية، التي تعقد من الحرف للمذاكـرة في شؤونها أو لتـرقية صـانع أو معلم من مـرتبة أدنى إلى أعـلى، ولهذا فإن شيخ المشايخ كان يبعث من قبله رَسُلاً يدعون النقباء لحضور الاجتماعات وتلاوة الأدعية. وقبل التنـظيمات الخيـرية عند ما كانت سلطة شيخ المشايخ واسعـة غير محـددة كان نقبـاء شيخ المشايخ أكثر من شخص وذلك لمساعدة الشيخ الأعـظم. وبعد التنظيمـات أخذت أهميـة شيخ المشـايخ تتضـاءل لحساب القوانين العامة للدولة، وهذا ممـا قلّل أيضاً من أهميـة النقيب، الـذي كان بمثـابة سكـرتير خـاص للشيـخ الأعـظم. وفي زمن القـدسي (١٨٨٣) لم يوجـد إلّا نقيب واحـد هـو السيـد أنيس الجزايري القماقمي وهو من الاشـراف. ولكن وظيفة النقيب لم يكن يشتـرط فيهـا النسب النبـوي وهي لا تـورث. فقـد كـان لشيـخ المشايـخ الحق في تنصيب وعـزل من شـاء من النقبـاء. ولكن عـلى العموم كـان النقيب عليماً بـأحوال الحـرف وخبيـراً بمشاكلها بسبب اتصاله اليومي والمباشر بالحرف، بعكس الشيخ الأعظم.

لكل حرفة شيخ ينتخبه شيوخ أي معلمـو الكار ممن اشتهـر

بحسن الاخلاق والطوية وامتاز بمعرفة أحوال الحرفة. وإذا اختلف شيوخ الكار على انتخاب أحدهم فيرجعون إلى شيخ المشايخ، الذي يعين أحد المرشحين. وفي كلا الحالين فإن التصديق على انتخاب شيخ الحرفة من قبل شيخ المشايخ كان واجباً. فبعد الانتخاب يذهب أهل الحرفة للمثول أمام شيخ المشايخ، الذي يتلو آيات قرآنية ونصائح ضرورية لإدارة الحرفة مثل العدل والاستقامة والسهر على صالح الحرفة والدفاع عنها. ثم يسلم شيخ المشايخ «العهد» لشيخ الحرفة الجديد وتحتهما ممدود بساط أخضر اللون تيمناً ببساط النبي عليه السلام. وعندها يقال ان شيخ الحرفة الجديد (فلان) دخل على بساط الشيخ أي فاز بالتصديق ونال «العهد». ولكن بعد التنظيمات الخيرية لم تعد هذه الموافقة ضرورية كما مرّ معنا.

لم يكن يشترط في شيخ الحرفة الجديد أن يكون أكبر شيوخ (معلمي) الحرفة سناً ولا أكثرهم مالاً وغنىً. كما أن وراثة المشيخة ليست ضرورية، وإن كانت تنتقل أحياناً بالإرث. ولم يكن ذلك يخالف، إلى حد ما، قاعدة الانتخاب، لأن انتقال المشيخة عن طريق الإرث كان يتطلب موافقة شيوخ الكار. . ويبقى الشيخ شيخاً طول حياته ما لم يجد ما يوجب إبداله بسواه.

كان لشيخ الحرفة جملة من الحقوق والواجبات فهو، الذي يدعو مجلس الحرفة للانعقاد ويترأسه ويسهر على حفظ ارتباط الكار، ويقاص من أتى بذنب مخل بحق الصنعة وكثيراً ما يكون مكلفاً بإيجاد عمل للفعله (الصناع) فيوصي بهم المعلمين

(شيوخ الكار). وله الحق في التصديق على ترفيع المبتدئين إلى صناع والصناع إلى معلمين كما سيمر معنا. وكانت له بعض الايرادات من الحرفة. وهو وساطة الاتصال بين شيخ المشايخ ومعلمي الحرفة وصناعها. وبعد التنظيمات الخيرية أمسى اتصاله بدوائر الولاية (الحكومة) فيما يتعلق بأمور حرفته ضرورياً.

إلى جانب شيخ الحرفة وجد أيضاً شاويش الحرفة ونسبته للشيخ كنسبة النقيب إلى شيخ المشايخ. والفرق بينهما هو في كيفية التعيين. فالنقيب يعينه شيخ المشايخ أما الشاويش فينتخب من قبل أهل الحرفة. ولم يكن للشاويش حق أو سلطة قضائية على أهل حرفته وإنما كان رسول الشيخ ومتمم أوامره، وهو أشبه بسكرتير يدعو للاجتماعات ويشارك في مراسم الترفيع ويبلغ العقوبات.

والطريف أن الشاويش كان يعتبر نفسه من الصناع ويطالب بحقوقهم من المعلمين. وكما كتب القدسي فإن الشاويش كان يقف إلى جانب الصناع «عند الثورات التي تحدث من الفعلة على المعلمين بطلب تزييد الأجرة (ويعبرون عنها بقولهم «الكار قالع» أي ثائر) ص ١٥. وكان الشاويش يطوف على الصناع ويحثهم على الثبات لنوال مقصودهم في زيادة الأجر. وإشارة قدسي هنا واضحة إلى كثرة الخلافات والتناقضات بين المعلمين والصناع، وإلى حدوث عدد من «ثورات» الصناع، التي لم يصل لنا منها إلاّ القليل.

بعد أن كتب الياس عبده قدسي في الفصول الأربعة الأولى من دراسته عن شيخ المشايخ والنقيب وشيخ الحرفة أو الكار والشاويش مبتدئاً من الأعلى إلى الأدنى يخالف هذه القاعدة في الفصل الخامس ويبدأ في دراسة الحرف من الأدنى إلى الأعلى فيخصص الفصل الخامس للأجير أو المبتدىء والفصل السادس للصانع وبين ثنايا الفصلين يتكلم عن معلمي الحرفة دون أن يخصص لهم فصلاً مستقلاً. ثم ينهي دراسته بفصل سابع عن المكافأة، والقصاص. وقبل أن نستمر في تلخيص ما كتبه قدسي أو تفريغ معلوماته وغالباً ما نقوم بالنقل الحرفي لنعطي القارىء فكرة أوضح عن الحرف، التي كتب عنها القدسي معتمداً على الدراسة الميدانية وليس على النقل عن الكتب الأخرى سنقوم بنقل ما كتبه الدكتور بدر الدين السباعي في دراسته، التي لا تزال مخطوطاً (حتى ١٠/٢/١٩٨٠)، بعنوان: «أضواء على قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي. وبما أن السباعي باحث نظري اقتصادي ضليع فإن الجمع بين ما هو نظري وما هو ميداني يدفع بالبحث في طريق الكمال. كتب السباعي: «إن تقسيم العمل الطبقي الذي نقصده هو تقسيمه بين المعلم والصانع والأجير. فهو تقسيم يستند إلى الملكية من ناحية، وإلى الخبرة والمعرفة في أمور المهنة من ناحية أخرى. ويبدو أن هذا التقسيم كان شاملاً جميع أنواع الحرف والمهن تقريباً. صحيح أن مرتبة الصانع قد تسقط أحياناً هنا وهناك، عندما يقوم المعلم بدور المعلم والصانع معاً، ولكن الغالب الأعم هو وجود هذا الثالوث في التقسيم».

فالمعلم هو مالك أو مستأجر لأدوات العمـل ووسائله، وهـو الذي يصدر أوامره للطرفين الآخـرين في عملية الانتـاج الحرفي وهما الأجير والصانع، لتحـديد نـوعية المنتـوج وشكله وكميته، وهو الذي يشرف على العمـل ويساعـد فيه، وهـو الذي يـدفع أجور الصانع والأجير، ويملك الحرية الكاملة في عمله، إن شاء خففه وإن شاء شدده، وإن شاء أبقاه ما بين بين. وبالتالي فهـو الذي يملك المنتوج ويدفعه إلى السـوق وينال الـربح أو يحتمـل الخسارة.

أما الصانع فهو الـذي لا يملك ولا يستأجـر شيئاً من أدوات العمـل ووسائله ومـواده. وهو الـذي يقـدم عمله القـائم عـلى خبرته ومهارته الشخصيـة في إطار سـاعات عمـل محددة. وهـو مجبر على إطاعة أوامر المعلم وتنفيذ تعليماته، وحريته مقيـدة في ورشته، طليقة خارجها. وهو مسؤول أمام المعلم عما يسببه لـه من ضـرر في العمل، وينـال أجراً متكـافئاً من حيث المبـدأ مع عمله سواء حسب القطعـة أو الزمن. إن أجـور هؤلاء الصناع ليست الأجـزاءاً من ثمن قـوة عملهم، التي تؤمن لهم الحـد الأدنى الضـروري لمعيشتهم ومعيشة عـائلتهم. أمـا البـاقي من هذا الثمن فيناله المعلم مجاناً لمجرد أنه رب العمل ولأن الصانع لا يملك أدوات عمله ومـواده. ولهذا يقـوم أساس التنـاقض في المصالح، وصراع طبقي قد يكون أحياناً حاداً وضارياً، لا سيما إذا كـان الصناع في حـال من التعاون والتنـظيم والـوعي تمكنهم من الـوقوف صفـاً واحـداً تجـاه معلميهم ومن تنـويـع أشكـال

النضال حسب الظروف المحيطة. وقد يجر هؤلاء فئة الاجراء وراءهم.

وأما الأجراء فهم الفئة الدنيا في المهنة. فهم لا يملكون شيئاً لا مادياً ولا معرفياً ولا مهنياً. لقد دخلوا المهنة ليتعلموا فنونها، بادئين من نقطة الصفر. ولهذا فهم لا يشتغلون، في المرحلة الأولى، إلّا في الأعمال الثانوية غير الفنية. وبقدر ما يستطيعون استيعاب بعض فنونها بقدر ما يعتمدهم الصانع والمعلم للقيام بما يستطيعونه من أعمال المهنة. وغالباً ما يبدأ عمل هؤلاء مجاناً بلا أجر أو بأجر صوري زهيد. ويبدأ الأجر بالزيادة عند بدء الالمام بالعمل المهني والتدرج في اكتسابه. ومع مضي الزمن واكتساب المهارة والخبرة تزداد أهمية الأجير، ويصبح مقترباً أكثر فأكثر من درجة الصانع، حتى يصبحه. إن وضع الأجير أعظم استثماراً وأحط منزلة. فعمله متواضع متنوع وأجره زهيد، ولا يتزايد إلّا بنسب بسيطة جداً. وهو محل استثمار الصانع والمعلم على السواء، ومجبر على إطاعة أوامرهما وتنفيذ رغباتها. وغالباً ما يكون عمله في المراحل الأولى دائراً في نطاق الخدمات الشخصية والعائلية لكل من المعلم والصانع. ولهذا فهو يستشعر العداء الطبقي الغامض ضد معلمه وصانعه معاً، وقد يتضامن إذا وعى الأمور مع صانعه ضد معلمه في معركة الأول ضد الأخير».

هذا ما كتبه السباعي حول المعلم والصانع والأجير معتمداً على خبرته وعلى معارفه النظرية. والآن نعود مرة أخرى إلى

كتاب القدسي وكتاب «قاموس الصناعات» لننقل المعلومات أو نفرغها بدرجة أساسية من الأول وثانوية من الثاني.

جاء في «قاموس الصناعات الشامية» (جـ ١ص ٣٥) حول تعريف الأجير ما يلي: الأجير من لا يحسن صنعة ولا يتقنها. وكل من اشتغل عند معلم تحت يد صانع يقال له أجير. وهو كالخادم عند المعلم أو الصانع، اللذين يلاحقانه بالتعليم والتأديب ومشقات الخدمة من أجل أن يكتسب المهنة. والأجير بهذه الصورة هو «أجير مقيد» بتعلم مهنة. وثمة نوع آخر من الأجراء هو الأجير المطلق وله مفهومين (نوعين): الأجير (الفاعل)، الذي يشتغل بصنعة الطين (البناء) تحت يد معلم أو صانع ويقوم بنقل الماء أو الحجارة أو رفع الطين وأجرته في أواخر القرن التاسع عشر كانت حوالي سبعة غروش(*). (القاسمي ج ـ٢ ص ٣٣٣). والنوع الآخر من الأجراء المطلقين هم الذين يؤجرون نفسهم لمن أراد، أي يبيعون قوة عملهم يومياً وفي أية مهنة من المهن، التي لا يحتاج العمل فيها إلى خبرة أو ممارسة. ومعنى ذلك أن الأجير المطلق لا يحسن صنعة وهو من الفقراء والمساكين. ويمكن القول أن معظم القامدين إلى المدن من الريف كانوا أجراء مطلقين بالمفهومين. وليس بإمكاننا في هذه الدراسة تتبع أوضاعهم الاقتصادية وتطوراتهم النفسية ومواقفهم من مستثمريهم المباشرين أولاً والحكام مستثميريهم غير المباشرين ثانياً. ولا شك أنهم شاركوا

(*) كانت اجرة الصانع في البناء خمسة عشر قرشاً والمعلم عشرين قرشاً.

في عدد من تحركات العامة بالغريزة ودون أن يكون لديهم وعي واضح في كثير من تصرفاتهم.

نعود مرة أخرة إلى تعريف الأجير حسب وصف الياس قدسي فيكتب: الأجير أو المبتدىء هو الولد الحديث السن الداخل إلى الحرفة بغية احتراف حرفة أو ليملك بيده ما يصون مستقبله. ويبقى المبتدىء عدة سنين بلا أجر أو **معاش** حتى يبلغ سن الرجولة أو يصل في صنعته درجة **الاتقان** فيُدعى صانعاً، على الرغم من أنه لم يُشد **بالكار** بالمراسم التي سنذكرها بعد قليل. أما أجرته فتبقى زهيدة ولا يسمح له أن يفتح محلاً منفرداً لحسابه. وهذه القاعدة كانت سائدة حتى صدور التنظيمات الخيرية **١٨٥٦**، التي حررت الصناع من سيطرة مشايخ الحرف لكي تحل السلطة الحكومية محلهم. فبعد **١٨٥٦** لم يعد الشد إلى الحرفة أو عدمه سبباً لإغلاق محل فتحه أحد المبتدئين.

إن إرسال الأطفال إلى ورشات الحرف للعمل كأجراء واتقان مهنة ما كان هو السمة الغالبة للأغلبية الساحقة من أطفال العامة. ويورد القدسي عدداً من أمثلة العامة للدلالة على أهمية الحرف بالنسبة لعامة المدن وبخاصة للأجيال الصاعدة المفروض أن تكون مؤهلة للحياة. من هذه الأمثلة:

«كار باليد أمان من الفقر».
«صاحب صنعة مالك قلعة».

«اللي ماله كـارات بيعايـر رطيلات» ـ أي يقضي عمـره مهتماً بتقدير الأوزان دون جدوى.

«إشتغل بفلس وحاسب البطال» ـ أي خير من البطالة.

«من كثرت كاراته قل ما بيده» ـ حتى لا ينتقل إلى كار آخـر ودليل على عدم الاتقان.

«خدمتها أجير معلم» ـ أي عمل في الحرفة بالتدريج.

«إنصفـوني يا مسلمـين علمت إبني كـار الحـرافـة وجـوزتـه وشديته فما له برقبتي بعد هل قصرت معه» ـ إشارة إلى واجبات الأب.

إن مراسم انتقال الأجير (المبتدىء) إلى صانع دعيت بـ «شدّ الصانع»، ومـراسم الانتقال من صـانع إلى معلم دعيت بـاسم «شد المعلم»، ومع أن مـراسم شد الصـانع والمعلم تختلف عن بعضهـا، إلّا أنه كثيـراً ما جـرت مراسم شـد الأجير، في وقت واحد، إلى صانع فمعلم. والشد إلى الحـرفة لا يجـري إلّا بعد اتقان المهنة إتقاناً تاماً وفحص إنتاج المرشح وعدم اعتراض أي فرد على انتاجه. فالصانـع على هـذا الاساس وحسب تعـريف القـاسمي «هو من يحسن الصنعـة ولم يصـل إلى مهـارة المعلم» ص ٤٥٨ جـ ٢.

بعد إتقان الأجير للمهنة يـأخذ شـاويش الكار في الالحـاح على

الأجير لكي يُشد إلى الكار حتى يأخذ نصيبه من رسوم الشد. كما يلح على شده زملاؤه المشدودين إلى المهنة لكي يكثر عددهم ويربطو الداخل الجديد بعهود الاخاء. أما المعلم، الذي يرغب في استثمار الأجير أطول مدة ممكنة، فإنه يماطل ويسوّف قائلاً: «لسا ما حلّه بعدا دبساته مراق»، أي ليس بإمكانه مالياً أن يدفع نفقات مراسم الشد، التي أطلقوا عليها أيضاً اسم «التمليحة»، أي أكل الخبز والملح وإقامة الوليمة وتقديم الهدايا. ولكن الحاج الشاويش، وهو كما ذكرنا وقف مع الصناع، يدفع الأمور لصالح الأجير المتقن لمهنته. وعندما يقدم له الشاويش عرقاً (غصناً) أخضر، على الغالب من الريحان، ويقبله، فهذا دليل على موافقة الأجير على إقامة وليمة لرفاقه والاستعداد لمراسم الشد، التي تجري في إحدى البساتين نهاراً أو في أحد البيوت نهاراً وليلاً.

كيف تجري مراسم «شدّ» الصانع!!

في الوقت المحدد وبعد أن يجتمع المدعون من أبناء الحرفة وغيرهم يقوم الشاويش بإيقاف الأجير المرشح على بساط أخضر ويشد يديه على صدره ويجعل إبهام رجله اليمنى تعلو إبهام رجله اليسرى. وبناء على طلب النقيب يقرأ الشاويش الفاتحة ثلاث مرات والجميع راكعون على ركبهم. ثم يشرع النقيب بترداد «السبعة سلامات» الآتية: الزوار الكرام، أهل الصدر (شيخ الحرفة ومعلموه، أهل ميمنة الحي، أهل ميسرة الحي، السادات، أهل الاصلاح، الأحباب). وبعد أن تتلى بعض الأناشيد النبوية ذات الأسلوب الركيك والأوزان المكسورة

والمختلة، التي عبّرت عن عصر الانحطاط الأدبي، لأن النهضة العربية، التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر كانت مقتصرة على عدد ضئيل من المثقفين ولم تكن قد شملت قطاعات واسعة من الشعب.

في المرحلة الثانية من مراسم «الشد» يربط النقيب الأجير المرشح بمحزم اعتيادي أو بشال رافعاً يدي الطالب من على صدره إلى قمة رأسه، ثلاث ربطات أو خمس أو سبع إشارة إلى سكرة تمسك أهل الحرفة بحفظ العهود والأمانة. وعُقد الربط تدل على عَقْد العد والميثاق حيث يمسي المشدود أخاً لأهل الحرفة. وعندها يعيّن للمشدود أباً بالكار من المعلمين الحاضرين وهو بمثابة كفيل مطالب بما يقع للمشدود، الذي أمسى صانعاً، من خلل أو سوْء استعمال لمهنته. وبعدها يقدم شيخ الحرف للمشدود النصيحة التالية: «الحرف هي كارات أمانة على الأموال والاعراض والأرواح». ثم يتقدم أبو المشدود بالكار لمبايعته وفق طقوس خاصة وليأخذ منه العهد الا يخون أهل الحرفة ولا يفشي الكار. ويأتي دور الشاويش مرة أخرى إذ يطوف بالمشدود على الحاضرين ليحلوا العقد ويبقى لشيخ الحرفة شرف حل العقدة الأخيرة ووضع المحزم على كتف المشدود.

ثم توزع الهدايا على صينية وهي عبارة عن لوح صابون مطيب (لتنظيف اليدين)، وشورة شاش مطرزة (لمسح الفم)، وخلال (لتنظيف الاسنان) وعرق أخضر (لتزال رائحة الأكل)

وأحياناً تنباك ومسبحة.

بعد الانتهاء من توزيع الهدايا تبدأ الوليمة (التمليح ـ كناية عن الأكل المتضمن للملح)، التي يسبقها تهليلة معبرة عن مشاعرهم مثل قولهم مهللين: «صلوا على عيس وموسى ومكحول العين، ومن يقدر يعادينا». ويورد قدسي أن عملية مراسم «الشدّ» عند المسيحيين لم تكن تختلف عنها عند المسلمين، إلاّ في قراءة الفاتحة، إذ إن المسيحيين كانوا يتلون «أبانا الذي في السموات...»، والتي سمتها العامة باسم «فاتحة النصارى». وثمة استثناء هو حرفة البنائين والنحاتين، الذين لم يعرفوا الشد ولم يكن لهم علاقة بشيخ المشايخ لأنهم بمجموعهم من المسيحيين الراغبين في الاستقلال عن شيخ المشايخ والتهرب من دفع الرسوم المتوجبة على ذلك. وفي أواخر القرن التاسع عشر أسس البناؤن «جمعية معلمين» مؤلفة من اثنتي عشر عضواً اجتمعت شهرياً وعينت لها رئيساً لكل ثلاثة أشهر لمتابعة مشكلات المهنة.

إن الصناع المهرة، الذين اتقنوا المهنة يسون معلمين بعد «شدهم». ومن الواضح أن عدداً محدداً من الصناع كان يصل إلى مرتبة المعلم، في حين تبقى أعداد كبيرة منهم في مستوى الصانع، إما لعدم اتقانه المهنة تماماً أو بسبب عدم وجود رأسمال ما يمكنه من إدارة المهنة مستقلاً مالياً عن الغير.

ويمكن تقسيم المعلمين في الحرف والصنائع إلى ثلاثة أصناف:

١ ـ معلم يعمل بيده يساعده عدد من الصناع والأجراء. وهو في الغالب المعلم المبتدىء، الذي لم يجمع رأسمالاً معيناً تمكنه من تطوير ورشته، أو أن صنعته ليست من الصنائع المدرة للربح. ولهذا فإن نفسيته تبقى قريبة من نفسية صنّاعه، الذين يشاركهم همومهم وأفراحهم.

٢ ـ معلم ترك العمل اليدوي أو الجسمي بعد أن جمع مبلغاً من المال وأمسى يشرف على انتاج عدد من الصناع يشتغلون لحسابه بالقطعة أو بأجر يومي معلوم. والمعلمون هنا نوعان: معلم يملك المكان (دكان) الذي يعمل به، ومعلم يستأجر المكان (مطاحن، حماميم... الخ) من أصحابه بأجرة يتفق عليها وتدفع نقداً أو بالتقسيط ثم يشغل عدداً من الصناع والأجراء بأجر معلوم. ويقول القاسمي أن هذا العمل نوع من التجارة «يحتاج لكبير رأس مال». وعلى العموم فإن المعلم من هذا النوع هو نصف تاجر أو أكثر. وإذا كانت المهنة مدرة للربح فكثيراً ما يتحول إلى تاجر يشتري منتجات الحرفة ويحتكرها. فمعلم العبجي ذو الرأسمال «شغل الصناعية على حسابه ويتجر لجهة بغداد والموصل». ويقول القاسمي أن كثيراً من أصحاب هذه الحرفة أثروا جداً ص ٢٩٨. وكل ما ينتجه «صناعية» حرفة العقّاد (الحرير والصوف والقطن والشرايط) يسلموه إلى المعلم الذي يبيعها في دكانه لمن يرغب ذلك جـ ٢ ص ٣١٣.

من هنا نلاحظ عملية تدرج معلمي الحرف في المهنة وجمع الثروة وتحولهم إلى إنصاف تجار أو تجار بكل معنى الكلمة

يبيعون إنتاج الصنعة وهكذا نصل إلى النوع الثالث.

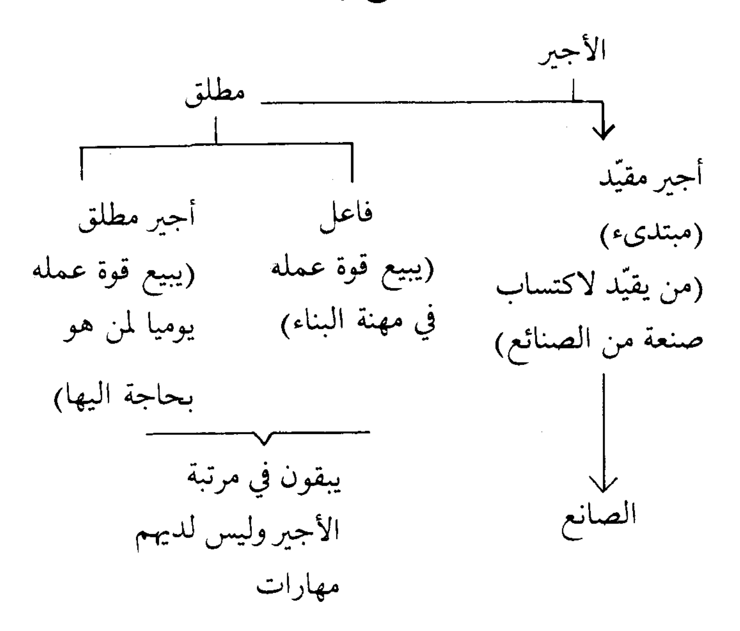
٣ ـ معلم ترك المهنة نهائياً وأمسى تاجراً يبيع منتجات المهنة بعد أن يكون قد ربط عدداً من الصناع والمعلمين به و «أجبرهم» بوسائل متعددة على بيع انتاجهم له وهو يقوم بتوزيعه.

وإن بحثاً دقيقاً لعملية تراكم رأس المال بين فئات الصناع والمعلمين بخاصة والصراعات الناشبة بينهم من الأمور الهامة لتحديد عملية سير التطور الاجتماعي وعلاقة ذلك بالسلطة الحاكمة ودورها في تأخير هذه العملية وإبقاء المجتمع راكداً.

الفصل السابع والأخير عقده الياس قدسي للمكافآت والقصاص. ويذكر القدسي أن المكافآت لم تكن موجودة. وهذا الحكم صحيح إذا قصد بذلك المكافآت الرسمية الخاضعة للعرف أو القانون. واعتبر القدسي أن انعدام المكافآت كان من الاسباب، التي أدت إلى عدم تطور الحرف وظهور الصناعة، وأورد على ذلك عدداً من الأمثلة. ولكن المكافآت التشجيعية عير المرئية كانت، مما لا شك فيه، موجودة بين المعلمين والصناع. ومن المنطقي أن المعلمين كانوا مدفوعين، من أجل زيادة الانتاج كما أو كيفاً ، أن يقدموا مكافآت للصناع وحتى للمبتدئين.

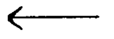
أما القصاص أو العقوبات فكانت موجودة وهدفها الحفاظ على مستوى جيد للانتاج وصيانة سمعة الحرفة وحفظ أسرارها.

مخطط يبين التدرج في الحرف



من يحسن صنعة ولم يصل إلى مهارة المعلم. يبيع قوة عمله إلى المعلم؛ .

الصناع: «هم العدد الأكبر والسواد الأعظم في كل الحرف والكارات وهم كالأرض ينبوع ثروة البلاد. الصانع والفلاح هما القوتان الماديتان للتطور» قدسي ص ١٨.



المعلم

معلم يعمل بيده تحت سقف واحد مع عدد من الصناع والأجراء.

معلم فتح دكاناً، وأمسى تاجراً يبيع انتاج الحرفة.

معلم ترك العمل اليدوي وأمسى يشرف على عمل عدد من الصناع والأجراء مستمراً عملهم. وهؤلاء يعملون بالمياومة أو بالأجرة لحساب المعلم.

↓

شيخ الحرفة (رئيس الصنعة)
له مساعد اسمه الشاويش

↓

شيخ المشايخ (يشترط فيه النسب النبوي)
لا يمتهن مهنة ويشرف على سائر الحرف بواسطة النقيب بعد منتصف القرن التاسع عشر تضاءلت سلطاته لحساب سلطة الدولة.

(١) ضوّ السراج فيما قيل في النساج تأليف العلامة الشمس محمد بن علي ابن طولون الصالحي رحمه الله، مخطوط موضوع في القرن السادس عشر قامت بنشره مع دراسة واسعة عنه الدكتورة ليلى صباغ. والمخطوط والدراسة منشوران ضمن وثائق المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ـ دمشق من ٢٧/١١ ـ ٣/١٢/١٩٧٨.

(١/١) قاموس الصناعات الشامية» باريس ١٩٦٠. ألف الجزء الاول محمدسعيد القاسمي، ووضع الجزء الثاني محمد جمال الدين القاسمي بالاشتراك مع خليل العظم. وما نشرناه هنا مأخوذ عن دراسة لظافر القاسمي مقدمة الى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام.

(٢/١) شيلشر شانكوفسكي ليندا: «بعض مظاهر وضع الاعيان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في دمشق» بحث قدم إلى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ص ٢٠ ـ ٢١.

(١) بدري محمد فهد: «العامة، ببغداد في القرن الخامس الهجري». بغداد ١٩٦٧. المقدمة.

(٢) نقلاً عن المصدر السابق، ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٧) سوفاجيه، جان «دمشق الشام» بيروت ١٩٣٦، ص ٢٧ ـ ٤٣.

(٨) عرفت دمشق في بعض عهود المماليك ازدهاراً مؤقتا وهجرة ريفية دائمة ومؤقتة إليها، وفي تلك الاثناء ظهرت ضاحية السويقة لسكني الريفيين ومكاناً لاستقبال القوافل التجارية. كما قامت ضاحية سوق ساروجة، التي اختصت ببيوت سكن الخاصة وكبار العسكر وذلك لقربها من القلعة. راجع محمد رئيف الحاج «تطور مدينة خلال الربع قرن الاخير» دمشق ١٩٦٤ - ١٩٦٥. ص!

(٩) سوفاجيه... ص ١٣.

(١٠) غرايبة عبد الكريم: «مقدمة تاريخ العرب الحديث. ١٥٠ - ١٩١٨». ج ١. دمشق ١٩٦٠، ص ٥٦.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المنجد، صلاح الدين: «ولاة دمشق في العهد العثماني» دمشق ١٩٤٩. ص ٤.

(١٣) مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٦، ص ٢٢٨ - ٢٣٢.

(١٤) المغربي، عبد القادر: «يهود الشام منذ مئة عام»، محاضرة القيت سنة ١٩٢٣ ونشرت في مجلة المجمع العلمي سنة ١٩٢٩ عدد تشرين الثاني، ص ٦٤٤ وما يليها. وعن المغربي نقلنا هذه المعلومات.

(١٥) توتل فرديناند اليسوعي حاشية الصفحة ١٨٧ عن مجلة المشرق البيروتية، آذار ١٩٣٩.

(١٦) غرايبة... ص ١٤.

(١٧) الشماس، قسطنطين: «المخبأ من سفرة البطريرك مخاريوس» بيروت ١٩٢٢. ص ١١٢.

(١٨) بلغ عدد مواضيع المحكمة الشرعية بدمشق من ٢٠ رمضان ١٠٣٥ موالي غرة صفر ١٠٣٦ هـ ٤٠٢ موضوعا منها عشر دعاوي عتق أناس من العبودية. وفيها يلي أهم المواضيع الواردة التي بتت فيها المحكمة مأخوذة من سجلاتها الموجودة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢، وهي:

عتق من العبودية، تقسيم ارث، بيع أرث، خطوبة، ذمة (أي إقرار شخص بما في ذمته لشخص آخر)، عقد قران، بيع عقار، حصر أرث، وكالة للمطالبة بأرث، إقرار بدين، إقرار بأجرة بيت، وصية أرث، ادعاء

وصية أرث، تسلم موجودات، دفع ذمة، ضبط اختصاص أرث، حق بيع أرث، وكالة أرث، حق التصرف بأرث، بخصوص اتلاف مال ايتام، فرض نفقة، حكم بمبلغ من تركة، شراء أبقار، حق انتفاع بأجار، صداق ـ مهر، وضع وصي، بيع وشراء، وصية تركة، وصية ـ تعاطي مصالح الموصي عليها، وقف أراضي، وصية ـ وكالة بأجار أملاك لمصلحة الموصي عليه، وصي بوكالة شرعية مستحق أرث من أخيه، دفع ذمة لجهة وقف من قبل الوصي، وكالة شرعية للمطالبة بما يخصها من تركة زوجها، ورثة بالولاء لابن معتق والده من دار ـ وقفة على مصالح الحرمين الشريفين وصي يحق له البيع والشراء الى حين بلوغ الموصى عليه سن الرشد، آجار واستئجار، إقامة ناظر شرعي على وصي للاطلاع على كل ما يقوم به الوصي، وصية شرعية لبيع ثيابها الموضوعة في صندوق لتكفينها ومداراتها، مسها، دفع صداق، ـ مهر ٧٥ قرشا منها ٥٠ قرشا معجل و ٢٥ قرشا مؤجل، دفع مهر ٧٠٠ قرشا ٤٠٠ قرشا معجل و ٣٠٠ قرشا مؤجل، فرض نفقة لايتام من وقف جدهم، ادعاء بفتح دار المتوفي زوجها واختلاس ما في البيت، عتق من الرق قبل الوفاة، وقف عمارة وارض لزوجته وأولاده وأولاد أولاده لبطنه في قرية حزة، بيع معصرة في جوبر وبستان في دمشق من قبل ورثة الامير مصطفى منجك.

وكانت دعاوي عتق العبيد تأخذ حيزا من سجلات المحكمة وفيما يلي نموذجا من قضايا العتق قامت به رابية خاتون بنت خسر زوجة المرحوم بلد كباش. فقد جاء في سجل المحكمة «بأنها اعتقت وحررت جاريتها المدعوة كلستان بنت عبد الله الروسية الجنسية المربوعة القامة البيضاء اللون والشعر والزرقاء العين المعترفة لسيدتها المرقومة بالرق والعبودية، حسبة لله العظيم وابتغاء مرضاة الرب الرحيم ورغبة بما وعد به النبي المختار. فصارت بذلك حرة كسائر احرار المسلمين الاصليين لها مالهن وعليها ما عليهن. فلم يبق لاحد عليها حكم الملاك لحصول العتق والنكال سوى حق الولاء للموالي على كافة العتقاء بحسب الشريعة الغراء».

وجاء في دعوى أخرى ان (فلان) «اعتق مماليكه حاملين هذا الكتاب رغبة في الاجر والثواب» وهم: ١ ـ الابيض اللون ٢ ـ الابيض اللون

الكـورجي الجنسيـة ٣ ـ الاسـود اللون ٤ ـ الحبشيـة ٥ ـ الابيض ٦ ـ السـوداء . . . ». ومعنى ذلك أن شخصـا واحدا حـرر قبل مماته وهـو في الشيخوخة ستة عبيد وذلك «ابتغاء مرضاة الرحمن الرحيم ورغبة بما وعـد بـه النبي المختار عليـه صلاة الله وسـلامـه». والعبـد المعتق يلحق دائما باحرار المسلمين بعد حضور الشهود.

ويتبين من مراجعة سجلات المحكمة الشرعية ومن كثرة دعاوي العتق ان الطبقة الميـسورة في المدن كانت تملك، عددا من العبيد للقيام بالاعمال المنزلية والخـدمات الاخـرى. ومعروف ان سـوق العبيد كـانت رائجة في ذلك العهد وهم من جنسيات مختلفة. ولكن وضعهم الذليل وهم غـرباء قلة لم يـسمح لهم، على ما نعتقد بـالاشتراك في تحـركات العـامة في ذلـك الحين.

(١٩) عوض، عبد العزيز محمد: «الادارة العثمانيـة في ولاية سـورية» القـاهرة ١٩٦٩، ص ٤.

(٢٠) غرابية. . . ص ٧٤.

(٢١) ماركس انجلز: «الـسياسة البريـطانية، تـركيا ـ المؤلفـات المجلد ٩، ص ٥؛ نقـلا عن لوتسكي «تـاريـخ الاقـطار العـربيـة الحـديث». مـوسكـو ١٩٧١. ص ٢٧.

(٢٢) لوتسكي. . . ص ٣٥.

(٢٣) سقط المصدر اثناء جمع المواد ولم استطع العثور عليه.

(٢٤) حنا عبد الله: «الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» دمشق ١٩٧٣. ص ٣٤٦.

(٢٥) قـدسي اليـاس: «نبـذة تاريخيـة عن الحـرف الـدمشقيـة في كتـاب المؤتمـر السادس للمستشرقين لعام ١٨٨٣ طبع ليدن ١٨٨٥.

يـذكـر قـدسي ان فكـرة الكتـابـة عن الحـرف نشأت بعـد أن التقى بـ «العالم العلامة البحر الفهّامة الدكتور كـارلو لنْـدْبرج الاسـوجي الشهير الذي قصد جمع لغة العامة في دمشق وضواحيها».

(٢٦) يـروي قـدسي سنـة ١٨٨٣ ان احـد الحـرفيـين بـرع في علم الآلات الميكـانيكية وصنـع بندقيـة من طراز هنـري قرْتيني وعـرضهـا عـلى بشـير العسكـر متكفلا ان يقـدم لعساكـر الدولـة (العثمانيـة) العدد الكـافي من

البنـادق. فما كـان من مشير العسكـر الا ان هدده بـالسجن ان هو انتـج غيرها خـوفا من تمكن اهـل الحرف من صنعهـا وانتشار البنـادق بـأيـدي الاهالي، التي يمكن ان تستخدم السـلاح ضد السلطة.

وحـرفي آخر تمكن من صنـع قارب عجيب يـدفعه البخـار الى مسافـة بضعـة أميال في عـرض البحر ثم يـرجعه. واهـدى القـارب الى الـوالي، الذي اكرمه (كافأه) بنقود أقل من كلفة القارب. وبذلك قض على محاولة تطوير هذا النوع من القوارب.

وحرفي ثالث صنع كرة ارضية بعناية فائقة الدقة. ثم اهداهـا الى احد ولاة سوريا فقبلها واكرمه (كافأه) بقوله «افرين»، أي عفـارم عليك، أي عافاك الله، دون أن يشجعه مالياً ويحثه على تطوير عمله. يوسف قدسي ص ٣٢.

وهذه امثلة واضحة عن اثر السلطة الاقطاعية الشرقية في عرقلة تـطور الحرف الى المانيفاكتورات فالصناعة.



الباب الثاني

الحياة الفكرية للعامة

العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الفكرية .

طرق الصوفية .

رجال الصوفيه اعيان العصر .

حركة التنوير .

نماذج من روحانيات العامة وفروسيتها .

- مراسم الاذكار .
- الخلوة واستحضار الجن .
- الاوراد .
- الجو الروحي السائد في الاوساط المسيحية .
- تسلية العامة وفروسيتها .
- الحمامات وقصصها .
- السمرمر ومكافحة الجراد .
- الشيخ رسلان .



الفصل الاول

العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الفكرية

تـأثـر المنـاخ الفكـري والنفسي ومستـوى الثقـافـة للعـامــة الدمشقية والحلبية في القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر بجملة عوامل رئيسية واخرى ثانوية أهمها :

١ ـ نظام ملكية الأرض، التـابعة في معـظمها للدولـة اي للسلطان وولاته والجهاز الاقطاعي الحاكم. ان نظام الاقطاعيـة الشرقية هذا، المتميز بعدم وجود طبقـة إقطاعيـة ترث الامـلاك وتورثها، وخضوع هذه الطبقة الاقطاعية المقيمة في المدن لسيف المصادرة، الذي يـلاحقها بعـد إقالتهـا من مناصبهـا خلق جوا اخلاقيا معينا لدى الفئات العليا اتسم بالحذر والرياء والخـديعة والكذب والغدر وحبك المؤامرات. . . الخ.

وقد أدى عدم وجود طبقة اقطاعية مستقرة لفترة من الزمن، كـما جرى الامـر في اوروبا، الى انبعـاث جملة ظاهـرات طبعت المدن العربية العثمانية بطابـع خاص وأثـرت في طبقتي الخاصـة والعامة بما فيها القوى العسكرية حامية النظام. وقـد أثر وجـود القوى الاقطاعية الدائم في المدن الى جانب سكان المدن وفـوق رأسهم، اثر في أصباغ لون خاص على المناخ الفكـري للسكان

المكتوين يوميا بنار الارهاب العسكري الاقطاعي الشرقي وشروره وآثامه.

٢ - العلاقات التجارية المتسمة بتبادل المواد الخام، التي انتزعتها الطبقة الاقطاعية الحاكمة من منتجيها كريع عيني، بسلع الترف والابهة المستوردة من البلدان الاجنبية لتغذية عجرفة الباشاوات العثمانيين وسد حاجات حرمهم وحشمهم الى البذخ والترف وكل أمر ليس له صلة بالانتاج الحقيقي.

ومع ان التجارة الداخلية وتبادل السلع بين المدن والقرى أخذ يتطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن تطوره تراوح في مكانه ولم يؤد حتى نهاية القرن التاسع عشر الى تطور يخلق البذور الصالحة لنمو الرأسمالية والانتاج الصناعي. أي ان الانتاج البضاعي البسيط تراوح في مكانه ولم يتطور باتجاه الانتاج البضاعي الرأسمالي.

٣ - الصناعات الحرفية الطوائفية المبنية على العمل اليدوي وتنظيم الحرفيين في طوائف ذات تسلسل هرمي اسهم الى حد كبير في بلورة المناخ الفكري للعامة المؤلفة بمعظمها من طوائف الحرفيين، فكان لكل طائفة حرفية تقاليدها وعاداتها الخاصة وسلوكها المعروف. وقد أسهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي للحرفيين في دفعهم الى الانتظام في الطرق الصوفية، التي عرفت ازدهارا ملحوظا في هذه الفترة. ولكنه ازدهار بالمعنى التراجعي للكلمة وليس بمعناها

التقدمي الثوري. فصوفية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صوفية جامدة مغلقة على نفسها ليس فيها الاساطير والخرافات. وكانت كل طائفة حرفية تربط نفسها بولي وطريقة صوفية وتساهم في إحياء حفلاتها الدينية. هذا الجو الفكري الصوفي المتزمت المتخلف للحرفيين هو في الواقع نتاج الركود الاقتصادي وبقاء المدن العربية العثمانية تعيش حياة ساكنة راكدة عديمة التطور والحياة بسبب سيطرة النظام الاقطاعي الشرقي العثماني، وعدم تمكن النواة البورجوازية من التطور والانطلاق. ولهذا بقيت الطرق الصوفية مسيطرة على اذهان الجماهير، على الرغم من صيحات حركة الاصلاح الديني الاسلامي في أواخر القرن التاسع عشر، ذات المحتوى البورجوازي.

٤ ـ التراث القومي والديني وما يضم في ثناياه من عناصر ثورية نيرة وأخرى رجعية متزمتة. وقد أدى التخلف الاقتصادي والركود الفكري الى قيام «رجال الثقافة» المتخلفين بالالتجاء إلى الجوانب السلبية الرجعية المتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخدير العامة وحرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها. ومع ان مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت في كثير من الاحيان مع الطبقة الحاكمة عندما كانت مصالح الحرفيين معرضة للخطر الداهم، إلا أن الطرق الصوفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تؤد دورا ثوريا عارما، كما كان الامر عند نشوء بعض هذه الفرق. ولجأت الطبقة الحاكمة العثمانية الى استغلال

الطرق الصوفية ووضعها في خدمتها والسيطرة عن طريقها على الجماهير واخضاعها فكريا لنفوذها. فالصوفية، التي كانت في كثير من الاحيان احتجاجا على النظام الاقطاعي الشرقي القائم، اخذت تتحول أحيانا الى أداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور وبقاء التخلف والتحجر سائدين.

٥ ـ أثر الفكر البورجوازي الاوروبي بتياراته المتنوعة تأثيرا واضحا في العناصر البورجوازية الناشئة في الشرق العثماني. ومع أن تأثيره كان واضحا وجليا في المثقفين المستنيرين المسيحيين، إلا أن هؤلاء لم يكن بامكانهم ان يتغلغلوا في قلوب العامة، بأكثريتها المسلمة، ويسيطروا على تفكيرها. واقتضى الامر فترة من الزمن الى ان شرع المثقفون المستنيرون المسلمون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في حمل بعض الوية التطور البورجوازي مستعينين في مقارعة الرجعية الفكرية والسياسية بالرجوع الى الجوانب الثورية التقدمية من التراث، والدعوة الى نبذ الجوانب السلبية أو الجامدة. التي تكرس التخلف الاقطاعي وتحد من التطور البورجوازي.

وقد اتهم رجال التنوير بدمشق بالوهابية احيانا[١] وبالماسونية، التي دخلت دمشق سنة ١٨٦٤، احيانا[٢] اخرى. والوهابية من جهة والماسونية من جهة أخرى كانتا الملاذ الامين للمثقفين البورجوازيين في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين.

وعندما اطل التطور البورجوازي برأسه على المدن العربية

الشامية العثمانية كان منذ ولادته مهيض الجناح، لان حملة لواء هذا التطور تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية، التي لم يكن بامكانها التصدي للطرق الصوفية والوقوف امام سيلها الجارف. إذ أن كل محاولة بورجوازية لمقارعة الاقطاعية ورديفها الفكري الطرق الصوفية بمضمونها المتخلف المتزمت اتهمت بأنها هجوم من المسيحية على الاسلام. ولم تبدأ المقاومة البورجوازية الجدية للفكر الاقطاعي، إلا عندما بدأت قوى التنوير الاسلامي المتمثلة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا بمقاومة الفكر الديني السائد والدعوة الى الرجوع الى الينابيع الاولى، أي الى القرآن الكريم وعهد الصحابة الاولين. وسنرى مدى المقاومة، التي قادها هذا التيار في كل من دمشق وحلب.

حتى منتصف القرن التاسع عشر، بالتحديد حتى مجيء الحملة المصرية كان الفكر السائد بين العامة هو الفكر الصوفي بتياراته المتخلفة الجامدة المتلائمة مع النظام الاقطاعي العثماني. وبعد الحملة المصرية ونتيجة عوامل متعددة أخذ الفكر البورجوازي يشق له طريقا بين الفئات المثقفة المستنيرة المسيحية اولا ومن ثم المسلمة. ولهذا لا بد من أجل فهم تحركات العامة من الاطلاع على فكرها وعاداتها واخلاقها ونفسيتها حتى يتسنى لنا الاحاطة بكل ما كان يتجاذبها أو يعتمل في صدورها. ويأتي في طليعة ذلك معالجة الطرق الصوفية، التي كانت بمثابة احزاب العامة في ذلك الزمن،

ومجالها الاساسي في التنفيس عن كربتها واحزانها وهمومها، وفي دفعها الى الثورة والتمرد أو الخضوع والاستسلام.

الفصل الثاني

طرق الصوفية

بلغت الصوفية أوجها[٢] في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث ظهر عدد من كبار المتصوفة، الذين تركوا اثرا واضحا في بلاد الشام والمشرق العثماني عامة. وأشهر المتصوفة، الذين خلدت طرقهم في بلاد الشام هم: عبد القادر الجيلاني (ب ٥٦١ هـ)، عمر بن الفارض والشيخ عبد الغني النابلسي (ب ١٤٤٣ هـ / ١٧٣١ م)، الذي شرح ديوان ابن الفارض وأوغل في التفسير والتأويل. ولا تزال أصداء الشيخ عبد الغني وكراماته تتردد اصداؤها في الاوساط المتأثرة بالصوفية، محي الدين بن عربي، الذي أثار مذهبه اختلافا كبيرا في الآراء، وجلال الدين الرومي وغيرهم.

في العهد العثماني أصاب التخلف والانحطاط الفكر الصوفي، وتحول الى فكر سطحي متزمت، ولكنه أدى حاجة ملحة تتناسب مع ظروف حياة الجماعات وعهد الفوضى والاضطراب والقلق السائدة آنذاك. وكان انتشار تيار الصوفية وحلقاتها المتعددة وفرقها الكثيرة الوجه الآخر لمتطلبات المجتمعات العثمانية الاقطاعية الشرقية والحرفية. وكان انتشار

الفرق الصوفية على نطاق واسع ودخولها الى أعماق جماهير المدينة صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك، ومظهرا من مظاهر الحياة الحرفية وحاجتها الى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية. وقد قامت هذه الجماعات الحرفية بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية الى تعبيرات عملية وأسس اخلاقية تسير حياتها الاجتماعية، متبعة في ذلك تقاليد معينة وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين[٤].

ويمكن القول الى حد بعيد، ان فرق المتصوفة كانت لها دويلاتها الخاصة بها في إطار الدولة العثمانية واحيانا خارج اطارها. فمواكب المتصوفة في الشوارع وولائمهم في البيوت واجتماعاتهم في المساجد والزوايا، وتغلغل نفوذهم في المدن والقرى وامتداد سلطانهم الى مختلف فئات الشعب وتسربهم الى قصور الحكام والاغنياء. وقد زادت دويلات الطرق الصوفية من عروشها بالايمان وبما لها من سلطان في قلوب العامة وقسم كبير من الخاصة. وهذا ما دفع توفيق الطويل الى القول: «ان دولة الفقراء الصوفية كانت اثبت قدما واعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بني عثمان»[٥].

ولا شك أن نظام الاقطاعية الشرقية في عصوره الاخيرة، وما ساده من ظلام وجهل وشدة وفقر وفوضى وقهر وظلم وعهر أسهم في ثبات دويلات الطرق الصوفية ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس. ووصل الامر ببعض فرقها

وخاصة الدراويش والمجاذيب ـ أو من تظاهر بالجذب لتغطية أهداف اجتماعية أو سياسية ـ الى الضرب بعرض الحائط بأعراف البلاد وتقاليدها وحتى بدينها. ومن هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية بأنها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع الطبقي القائم، بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج.

كانت أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بين عامة بلاد الشام هي: (٦)

١ ـ البكتاشية، التي تغلغلت في صفوف الانكشارية.

٢ ـ المولوية، التي اشتهرت بحفلاتها الدينية في التكايا والزوايا، حتى أطلق عليهم اسم الدراويش الراقصين.

٣ ـ النقشبندية، التي تعتبر نفسها أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول الى درجات التوحيد.

هذه الطرق الثلاث لم يكن معترفا بها من الطرق الرئيسية الاربعة للصوفية، التي قالت بنسبها الى الامام على وفاطمة الزهراء، وهي:

٤ ـ الرفاعية، التي لمعت مع وصول احد مشايخها الى قصر السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر، وهو محمد أبو الهدي الصيادي من خان شيخون الى الجنوب من حلب. وقد مثل الصيادي الجانب الرجعي من الصوفية ووقف في وجه حركة التجديد الاسلامي، وقام بنشر عدد من الكتب الموضحة

والمفسرة للطريقة الرفاعية[٧].

٥ ـ الجيلانية أو القادرية، التي ظهرت في بغداد واحيط مؤسسها بهالة من التقديس والاساطير.

٦ ـ البدوية، التي لاقت رواجا كبيرا في مصر، ولم تنتشر انتشارا واسعا في بلاد الشام.

٧ ـ الدسوقية، وظهرت في مصر أيضا. وانتشرت في بلاد الشام وينسب إليها كثير من الخوارق.

٨ ـ بالاضافة الى هذه الفرق عرفت الشام أيضا السعدية والشاذلية وغيرهما من الفرق، التي كانت في الواقع احزابا للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن.

الفصل الثالث

رجال الصوفية أعيان العصر

مع أن الانتاج الفكري للحضارة العربية الاسلامية أخـذ في الهبوط منذ القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن بعض ومضات هذه الحضارة ظهرت هنا وهناك في القرون التالية. ولكن ومـع مجيء القرن الثامن عشر أمست الأرض الفكرية العربية في بلاد الشـام قاحلة إلا من بعض الاشـواك الجافـة ذات المذاق المـر، واستمـر الامـر عـلى هـذا المنـوال في النصف الاول من القـرن التاسع عشر، ثم أخذت، بفعل العوامل المذكـورة آنفا، بعض الاعشاب النافعة والازهار اليـافعة بـالظهـور والتفتح في خضم ذلك المحيط القاحل القاتـل. وأخذ الصـراع يشتد بـين القديم المهتم بتوافه الامور والمعتقد بالخرافات والاساطـير وبين الجـديد السـاعي الى إحيـاء الـتراث الحي وإلى الاقتبـاس من الحضـارة البورجوازية الناهضة في أوروبا.

أرخ فكريا لهذه الفترة عدد من الدمشقيين والحلبيين المهتمين بتلك المـواضيع، فـالشيـخ راغب الـطبـاخ أرخ عـام ١٩٢٣ «لعلماء» حلب في كتابه «اعلام النبلاء بتاريخ حلب» تنـاول فيه سائر رجال الدين ومشايخ الطرق وأصحاب الكرامات بتفصيل

زائد. وتعليقا على صدور كتاب الطباخ كتبت مجلة المجمع العلمي العربي ذات الاتجاه المستنير قائلة ان الطباخ «ترجم للمجاذيب ولكرامات المغفلين والمطنبر والعاشق والمعمار ممن عدهم في العوام»[٨]. وتعليق مجلة المجمع العلمي العربي المستنيرة هو احتجاج على نشر فكر متخلف جامد من بقايا عصر الانحطاط.

وقام الاب فردينان توتل اليسوعي بنشر وثائق عن حلب بعنوان «أولياء حلب في منظومة الشيخ محمد أبي الوفاء الرفاعي (١٧٦٥ ـ ١٨٤٧)». حيث جمع الشيخ أبو الوفاء في منظومته أسماء أولياء حلب وبعض الرجال ممن رفعتهم العامة الى مقام الاولياء اعتمادا على الآية الكريمة: ﴿**إلا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. ولحلب أولياؤها الخاصون بها دون غيرها، كالنبي بنقوس والنبي أبلوقيا، ومنهم من هو معروف في غير حلب كنعمان وشمعون وزكريا. ويرى توتل أن التفتيش في أصول هؤلاء الاولياء يكشف عن آثار مسيحية ترجع بأصولها الى آثار يهودية أو وثنية سبقتها.

وفي دمشق اهتم عدد من المؤرخين باعيانها. وعن هذا الطريق وصلت أخبار كثيرة عن الفترات السابقة. وعلى الرغم من الشك في بعضها إلا أنها مصدر خصب لتلك الفترات. فالمحبي ألف كتاب «خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر» والمرادي ألف كتاب «أعيان القرن الثاني عشر».

وفي عام ١٨٨٦ م صدر في بيروت أول كتاب مطبوع لعبد

الـرحمن بن شاشـو تناول الحيـاة الفكريـة لـدمشق تحت عنـوان «تراجم بعض أعيان دمشق»، وهو كنايـة عن مجموعـة قصائـد شعرية لاكثر من ٧٥ أديبا من أدباء دمشق وأعيانها ومشايخها.

خصص ابن شاشو الفصـل الاول من كتابـه لذوي البيـوت والـوجاهـة والمجد مثـل السيد محمـد بن السيـد كمـال الـدين الحسيني نقيب دمشق الشام، وكتبه مرجع ذوي النقـل.. ومثل بيت محاسن وهو بيت حسن ومال وثروة واقبال.

واقتصر الفصل الثاني على العلماء الاعـلام والاجلاء العـظام ومنهم شيـخ الاسلام وبـركة الخـاص والعـام. وخص الفصـل الثالث بالادباء وانتاجهم المتميـز بالسـطحية واللغـو والمفتقر الى الحياة.

ثم تناول عدد من المؤرخين الحياة الفكرية في دمشق في هذه الفتـرة مثل: الحصني في كتـابه «منتخبـات التواريـخ لـدمشق» المـطبوع عـام ١٩٢٧. و«أعيان القـرن الثالث عشـر في الفكر والسياسة والاجتماع» لخليل مـردم بك. وكتـاب «اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر للعلامة الشيخ محمـد جميل الشـطي إصـدار المكتب الاسـلامي سنـة ١٩٤٦. ويذكر الشطي أسماء المصـادر، التي استقى منها معلومـاته، وفي مقدمتها مخـطوط الاستاذ البيـطار. وقد طبـع هذا المخـطوط في دمشق عام ١٩٦١ بعنوان «حلية البشر في تاريخ القـرن الثالث عشـر» تأليف الشيـخ عبـد الـرزاق البيـطار ١٢٥٣ ـ ١٣٣٥، حققـه ونسقه وعلق عليـه حفيده محمـد بهجت البيطار. ولهـذا

الكتاب أهمية خاصة لما فيه من معلومات مكتوبة بروح مستنيرة نسبيا، ولما احتوى من تعليقات الشيخ بهجت البيطار، الشيخ المستنير، الذي انتقد كثيرا من مفاهيم ذلك العصر ساعيا لوضع الامور في إطارها التاريخي. ونورد فيما يلي مقطعا من مقدمة الشيخ بهجت لكتاب جده. قال: «كان عصره عصر جمود على القديم وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم... بعضهم زعم مرة انه يجب القيام، عند ذكر ولادة الرسول تعظيما له... ولكن عبد الرزاق البيطار اعتبر ذلك وجوبا بدعيا، وقال: ان تعظيم النبي الحقيقي باتباعه في أقواله وأفعاله ونشر هدايته التي جاء بها عن ربه مشتملة على سعادة خلقه... وكان محمد عبده يجل الشيخ عبد الرزاق ولا يتقدمه أبدا... واشتهر بالانكار على أرباب الخرافات، وممن يقاوم بلسانه وبراهينه تلك الخزعبلات...».

كانت الاوصاف التي تطلق على الاعيان في القرن الثالث عشر، كما وردت في الشطي هي: فاضل ـ طبيب ـ معتقد ـ مرشد ـ فقيه ـ والي ووجيه ـ نقشبندي ـ شاعر ـ محدث ـ مفتي ـ قاضي ـ رئيس مؤذنين ـ خطاط ـ صوفي ـ ذكي ـ فلكي ـ محدث اكبر ـ صالح ـ فرضي (الذي اتقن علم الفرائض وتقسيم المواريث) ـ عالم محدث ـ عالم ـ شيخ قراء ـ شيخ الشام ـ إمام ـ خطيب ـ مولوي ـ مجذوب ـ خطاط ـ زاهد ـ عابد معتقد ـ تاجر ومدرس ـ رفاعي ـ شاذلي ـ قادري ـ دسوقي ـ مقرىء ـ عالم مرشد(٩).

والواقع أنه لا يمكن أخذ فكرة شاملة عن المناخ الفكري

السائد بين جماهير العامة وفهم نفسيتها ومزاجها وبعض أخلاقها، وبالتالي إدراك تحركاتها وتململاتها، دون القاء الضوء على حياة عدد من «أعيان» القرن التاسع عشر ممن كانوا من العامة أو على صلة بها أولهم سلطان التأثير فيها.

ولا يتسع المجال هنا لتقصي الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية لهؤلاء «الأعيان»، فهذا بحاجة إلى دراسة خاصة. إن ما يهمنا في هذه الدراسة هو حياة «الأعيان» في ضوء تحركات العامة. وقد صنفنا هؤلاء إلى الفئات التالية[٩]:

١ ـ **«أعيان» اشتهروا بالخوارق** تراجعهم العامة والخاصة للاستشفاء في وقت تراجعت فيه العلوم الطبية وساد الظلام مما رفع من شأن هؤلاء. وكانت تقصدهم الرجال والنساء، هذا يسألهم عن تجارته وهذا عن زوجته، وهذا عن سفره، وهذا عن شراكته، والنساء يسألون عن كل شيء. ولم تكن الأجوبة دائماً واضحة فتارة يجيبون السائل بلسان مفهوم وطوراً يتكلمون بكلام غير معلوم لحفظ خط الرجعة في حال عدم تحقق النبوءة. ولقاء ذلك كانت ترد عليهم الأموال والهدايا بسخاء من العامة والخاصة، حسب ذكاء الشيخ ومقدرته على التأثير في نفوس سامعيه واستقراء أفكارهم والافصاح عنها.

ومن المعروف أن مشايخ الاستخارة أثروا اثراءً فاحشاً. وكان كل شخص تتيسر أموره وكل تاجر تربح تجارته بناء على استخارة الشيخ يدفع له مبلغاً من المال ويقوم بالدعاية له لدى الآخرين.

٢ ـ «**أعيان» عرفوا بالجذب** وهم خلفاء الأولياء ينالون اكرام الناس. وبعضهم كان يخلع ثيابه ويدور في الأسواق. فتهابه العامة وتخشى مقاومته ومخالفته وبطشه. وعندما يتكلمون كلاماً غير مفهوم تعتبره العامة أنه كلام ملهم، وإذا التقطوا منه ما فهموا معناه أخذوه واستوسموا منه خيراً. **وقسم** من هؤلاء كان مقصوداً في طلب الدعوات لتيسير الحاجات. وهؤلاء لا لوم عليهم فيما يتكلمون ولا حرج. ولهم كشوفات عجيبة واخبارات غريبة.

٣ ـ «**أعيان» أولياء تُزار قبورهم** والدعاء عند قبورهم مستجاب.

٤ ـ «**أعيان» فقراء** خدموا السلك (الطريق) بأمانة وصدق ومكارم أخلاق وحافظوا على املال التكايا والزوايا، وكانوا محبوبين من الناس بسبب مسلكهم هذا.

٥ ـ «**أعيان» تجار ومعلمو حرف** ومعظمهم تجنب رجال السلطة وسعي للابتعاد عنهم والاهتمام بعمله أو الانزواء في زاويته، وبعضهم، وهم القلة اتصلوا بالحكام ولكن في حدود ضيقة. ويعود سبب ذلك إلى طبيعة كادر السلطة العثمانية، الذي تكوّن من عناصر جاهلة للدين ترتكب الموبقات وتخالف تعاليم الدين في حياتها الخاصة.

٦ ـ «**أعيان» علماء** والمقصود بالعلم هنا العلم الديني إذ أن العلوم الأخرى كانت مجهولة.

٧ ـ «**أعيان» على صلة بالسياسة** وهؤلاء دخلوا ميدان

السياسة في أواخر القرن التاسع عشر بعد مجيء السلطان عبد الحميد إلى السلطة وسعيه لكسب قاعدة اجتماعية واسعة عن طريق الدين وبخاصة مشايخ الطرق. وأتى في طليعة هؤلاء أبو الهدى الصيادي الرفاعي، الذي تولى في البدء نقابة الأشراف في حلب ثم قصد «دار الخلافة»، أي استنبول، حيث حاز على ثقة السلطان عبد الحميد وجرى تبادل المنافع بين الشخصيتين. فعبد الحميد أغدق عليه الأموال ومنحه السلطة وأبو الهدى وصفه بأنه «الخليفة المعظم ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا وسيدنا محمد (ص) ناصر الشريعة الغراء، وناشر الوية الطريقة السمحاء خادم الحرمين الشريفين إمام المشرقين والمغربين. . .».

ولا شك أن صعود أبي الهدى وصلاته القوية بعبد الحميد هي نتيجة المناخ الفكري السائد في عصر الاستبداد الحميدي.

وهؤلاء الأعيان، الذين عملوا في السياسة أيام السلطان عبد الحميد مثلوا الاتجاه الرجعي المناهض للتقدم والتطور واعتبروا ذلك من البدع المخالفة للشريعة. فالشيخ سعيد الغبرة تمكن من اصدار ارادة سنية من السلطان عبد الحميد بمنع تمثيل الروايات في دمشق، مما اضطر رائد المسرح السوري أبا خليل القباني إلى مغادرة دمشق والالتجاء إلى مصر.

٨ ـ **الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣، وجه آخر للتصوف** المتمثل بالشجاعة الروحية والمادية والفروسية والفتوة، التي انتهجها في ميادين القتال في الجزائر وفي منفاه في دمشق.

الفصل الرابع

حركة التنوير

في ذلك الجو الفكري السقيم كان من الطبيعي «أن تقل» كما قال القساطلي سنة ١٨٨٠ : «بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي»[١٠]. وفيما عدا بعض مدارس الارساليات الضئيلة والمقتصرة على العموم على بعض ابناء الميسورين من المسيحيين، فإن فرص التعليم المحدودة اقتصرت على الجوامع والزوايا والخوانق والكتاتيب.

ومع أن عدد المدارس في دمشق وحلب بلغ ٣٠٠ مدرسة، الا أن «الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها فخربت» كما «استحلوا أموال المدارس والمعابد» و«استقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف»[١١].

وتعويضاً عن المدارس المندثرة قامت الكتاتيب، التي أشرف عليها مشايخ الكتاب وهم أناس أقرب إلى الأمية منهم إلى المتعليمن، وكانت وظيفتهم الرئيسية تعليم الأطفال قراءة القرآن بأجر زهيد[١٢].

أما الزوايا، التي كثرت مع كثرة الطرق الصوفية، وكانت

مـركزاً لاقـامة الأذكـار، والخانِق والـرباطـات (التكـايـا)، فلم تلامس من المعرفة الا جوانبها السطحية. وندر أن درس كتاب ذو قيمة فيها، وإذا درس كتاب فيها، كما جرى تـدريس كتاب «الشفـاء» لابن سينـا في تكيـة السلطان سليم[١٣]، فلن يـطول أمر هذا التدريس إذ سرعـان ما يعم الـظلام والتجهيل بسـرعة غريبة.

وعـلى أثر حـركة الاصـلاحات في منتصف القـرن التـاسـع عشر، ظهرت في دمشق المدرسة الجقمقية، التي درست الفنون واللغـات العربيـة والتركيـة والفـارسيـة. وقـد تخـرج من هـذه المـدرسة عـدد ممن حملوا ألويـة التنويـر. وبعـد أن ألغيت سنـة **١٣٠٥** هـ استبدلت بمدرسة أرقى هي المكتب الأعدادي الملكي المعـروف بمكتب عنبر، الـذي حمل آراء العلم، غـير الطائفي، حتى تأسيس «التجهيز الأولى» في أوائل الثلاثينات[١٤].

وسنتناول بالبحث بعض من أسهموا في حركة التنوير وأثروا بهذا الشكل أو ذاك في فكر العامة المتنورة وحملوا مشعل النهضة في تلك الفتـرة. ومن هؤلاء الشيـخ طـاهـر الجـزائـري وعبد الرحمن الكواكبي وعدد من المتنورين المسيحيين.

١ ـ الشيخ طاهر الجزائري[١٥]: ولد في دمشق سنة **١٢٦٨** هـ، ونشأ في حجر والده مفتي السادة المـالكية، وتلقى مبـادىء العلوم المعـروفـة في ذلـك العصـر من أستـاذه الخـاص الشيـخ عبـد الغني الغنيمي الشهـير بـالميـداني (**١٢٢٢ ـ ١٢٩٨** هـ). وكـان الغنيمي كما روى الشيـخ طاهـر: «من العلماء المحققـين

الـواقفين عـلى لباب الشـريعة وأسـرارها، البعيـدين عن البدع والخـرافات». ومن الغنيمي أخـذ الجزائـري بذرة التمـرد عـلى الجمـود. والغنيمي هي إحدى الـطرق الصـوفيـة المتشعبـة عن الشاذلية. وقد ترك الغنيمي طـريقة أجـداده الصوفيـة، وسلك طريق الكتاب والسنة[١٦]. ولا نعلم المؤثرات، التي دفعتـه إلى سلوك هذا السبيل. هل هو التـأثير الـوهابي، أم طـريق خاص اختطه لنفسه أخذ في الظهور في معظم المـدن الشرقيـة في خضم التيارات الصوفية المائجة؟

والملاحظ أن الشيخ طاهر كـان صوفيـا ثم أخذ في الابتعـاد عن التصـوف، وفتح طـريقـاً جـديـداً في دمشق كـان لـه أثـره العميق في مسار التطور الفكـري اللاحق في النصف الأول من القـرن العشـرين. فمن حلقتـه تخـرج عـدد من قـادة الحـركـة الوطنية العربية في الربع الأول من القرن العشرين[١٧].

اضطر الشيخ طاهر وبسبب سياسته المستنيرة هذه إلى مغادرة سورية والالتجاء إلى مصر سنـة **١٣٢٥** هـ، شأنـه شأن معـظم الوطنيين المعادين للاستبداد العثماني. وبقي في مصـر حتى قيام الحكومة العربية (الفيصلية) في دمشق، فعاد اليها وعين اكـراماً له مديراً لدار الكتب الظاهرية، التي كان أسسها. ولكنه تـوفي بعد ثلاثة أشهر من عودته في أوائل **١٩٢٠**، وقام تلميـذه محمد سعيد الباني بنشـر تراثـه الفكري في كتـاب مطبـوع أيام الحكم الفيصـلي، ومنه سنـأخذ أهم أفكـار الجزائـري، التي كـان لهـا الريادة في حركة التنوير الدمشقية وهي:

١ - وقف ضد المؤلفين، الذين يضيعون الوقت بالمؤلفات الفارغة، إذ يتناولون كتابا قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس الفاظ الشراح السالفين بدون ادخال اصلاح أو تجديد أو اختراع في الأسلوب.

٢ - توحيد المكتبات الموجودة في دمشق وجمع الكتب النفيسة المخطوطة فيها.

٣ - سعيه لاحياء اللغة العربية واستثارة دفائنها، والعناية باحياء التاريخ ونبش الآثار.

٤ - السعي وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران. فقام أولا بنسخ واستنساخ كتب ابن تيمية وابن القيم الجوزية وأبي شامة المقدسي وأمثالهم ممن لهم اليد الطولى في مكافحة البدع. فكان يدعو إلى العودة إلى روح الشريعة وحكمتها والعمل على تنقيحها مما الصق بها من الحشو والبدع وجميع ما لم يثبت به نقل ولا يقبله عقل. وجاهد للبرهنة على أن الدين يسير مع العلم والعمران والرقي الاجتماعي واقامة الأدلة الشرعية على أن الدين لا ينافي العلوم الكونية. وهكذا يتقلص جمود أعداء التجدد ويتضح أن علة انحطاط المسلمين ليست منبثقة عن دينهم بل ناشئة عن انحرافهم عن منهج دينهم القويم.

ويرى الجزائري أن جمود المعلمين السطحيين المنكرين للخسوف والكسوف والقائلين بتسطح الأرض وارتكازها على قرن الثور. (هذا في أواخر القرن التاسع عشر) يبعد خريجي

المدارس العصرية عن الدين. ولهذا تجب الحرب ضد جمود الجامدين من أدعياء نصرة الدين الذين يحاولون الحيلولة بينه وبين العلم والعمران ويضعون العقبات في سبيل التجدد والرقي.

٥ ـ دعا إلى مطالعة الصحف والمجلات. وكان له شغف بالاطلاع على ما تنشره الصحف من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليافعة. وكان يدعو إلى الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً ونبذ الضار منه. ولهذا حث على تعلم لغات الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة.

٦ ـ كان عدوا للاستبداد ساعياً لتنوير عوام المسلمين عن طريق الاتصال بالعامة من أرباب الذكاء الفطري الذين لم يمارسوا الدرس والبحث على الأصول بالتلقي من الأساتذة (رجال الدين الجامدين)، وهم الذين يدعون بنبلاء العوام ولهم اليد الطولى في افادة العامة لأنهم يتمكنون من مخاطبة العامة بلسانهم.

٢ ـ عبد الرحمن الكواكبي: ولد سنة ١٨٤٨ في حلب. في محيط ديني ينتمي إلى الطبقة الوسطى. وبعد أن أصاب حظا من العلوم العصرية والدينية عمل في الصحافة الرسمية، ثم أصدر جريدة «الشهباء» أول جريدة تصدر باللغة العربية في حلب. ولكن السلطات العثمانية سرعان ما أغلقتها لانتقادها الأوضاع الفاسدة. ثم عمل الكواكبي في التجارة واتصل عن هذا الطريق بالأجانب من تجار وقناصل وسياح وأعجب

بالحضارة الغربية (البورجوازية) وكان في الوقت نفسه على اتصال مع العامة عارفاً بهمومها ولهذا أمست مكانته عظيمة وتقلب في وظائف حكومية كان آخرها من رئاسة غرفة التجارة فرئاسة المصرف الزراعي. ثم اضطر في سنة **١٨٩٨** إلى الرحيل إلى مصر هرباً من الاستبداد الحميدي[١٨]. وهناك نشر كتابيه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، و «أم القرى».

وواضح أن الكواكبي تأثر تأثراً واضحاً بالفكر البورجوازي وبمعاناته الشخصية في حلب وبالأرث الحضاري العربي الاسلامي.

يرى الكواكبي أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة، والطرفان يتجاذبان العوام. ولكن من هم العوام؟ «هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا. وهم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا **فعلوا**»[١٩] وفي رأي الكواكبي أن جهل العامة هو سبب شقائهم، «فإذا ارتفع الجهل زال الخوف، وانقلب الوضع، أي انقلب المستبد»[٢٠]. وهنا يورد الكواكبي معاناته مع السلطان عبد الحميد وخضوع العامة لهذا السلطان وخوف هذا المستبد من العامة. ثم يلح الكواكبي على ما يسميه بالمسليات، فالفقراء يشعرون بآلامهم ولكنهم يجهلون أسبابها، وقد يعيدونها إلى السعد أو الحظ أو الطالع أو القدر والعوام تسيء فهم ما ورد في التوراة والانجيل والقرآن حول الخضوع للحكام خلفاء الله في الأرض[٢١].

ويختتم الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد» بالدعوة إلى

الوحدة الوطنية بين الناطقين بالضاد من المسلمين وغير المسلمين وتناسي الاساءات والأحقاد. ومع هذه النزعة القومية نرى عند الكواكبي نزعة شرقية وانسانية واضحة.

وهو، شأن سائر المستنيرين المسلمين، يدعو إلى العودة إلى المنابع الأولى للإسلام وتنقيته مما غشاه من البدع والأساطير. ومع أن كتب الكواكبي أحدثت ضجة لا تزال اصداؤها تتردد إلى الآن، إلا أن تأثيره في العامة الحلبية في زمانه لم يكن قوياً. ولم يخلق تياراً فكرياً واضحاً في الداخل، كما فعل الشيخ طاهر الجزائري، الذي عرف داخلياً وكان مغموراً خارجياً، بعكس الكواكبي.

مثل الشيخ طاهر الجزائري في دمشق وعبد الرحمن الكواكبي في حلب الاتجاه المستنير داخل الأكثرية السنية، وعبرا عن بعض آمال الطبقة الوسطى ذات التفكير البورجوازي، وساهما مساهمة واضحة، وبخاصة الجزائري، في خلق تيار فكري سياسي كانت له آثاره البعيدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعدها. وقد واجه هذا التيار مقاومة ضارية من التيار الرجعي. والحادثة التالية تقدم صورة عن ذلك الصراع:

في رمضان **١٣٢٦** هـ/**١٩٠٨** م بعد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد أثر ثورة الأتراك الاتحاديين البورجوازية المشارب. وقف الشيخ رشيد رضا، أحد زعماء التجديد الاسلامي والمؤيد للانقلاب الجديد، خطيباً في الجامع الأموي بدمشق وأخذ **يشرح** الآيات والأحاديث بمنظار التجديد الاسلامي، ويطلب

إلى الناس الرجوع إلى سيرة الصحابة، وأتباع أوامر النبي والعمل بها. وإذا بالشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقاً بين الواقفين حتى وصل إلى وسط الحلقة وصاح بصوته: أيها المسلمون اسمعوا لي كلمتين. فالتفت الناس جميعهم إليه وسكت الشيخ رشيد، فراح الشيخ صالح يحذر من الوهابية ومن هذا الشيخ الذي يحرم زيارة قبور الأنبياء الصالحين، يمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم، وحذرهم منه. ولم يمهل معظم الحاضرين الشيخ رشيد رضا للرد عليه فهاجوا وماجوا وكادوا يفتكون بالشيخ رشيد لولا أن حماه بعض الشبان المتنورين، وخرج من المسجد إلى الشارع بهياج عظيم. وازداد هياجهم بعد اعتقال الشيخ صالح من قبل السلطة الجديدة فخرجت المظاهرات المسلحة من الأحياء باتجاه سراي الحكومة وهي تسقط جمعية الاتحاد والترقي، التي نظمت الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد. مما اضطر السلطات إلى اخراج الشيخ صالح حالاً. وكانت هذه الفتنة المبيتة من الرجعيين ذات ذيول في دمشق لم تنقطع لفترة من الزمن[٢٢]. ودلت على أن حركة التجديد الإسلامي لم يكن لها، حتى في مستهل القرن العشرين، جذور بين العامة الخاضعة للرجعية ويبدو ذلك جلياً في (٢٢/١) المقالة، التي كتبها أحد رجال التنوير في المقتبس بعنوان: «العلم والعامة».

٣ ـ التيار المسيحي المستنير: تأخر ظهور مثقفين مستنيرين من المسلمين حتى نهاية القرن التاسع عشر. وبقي تيار التجديد حتى نهاية الدولة العثمانية ضعيفاً مهيض الجناح، ثم أخذ في

الصمود والتغلب على تيار الجمود والتزمت.

أما في الأوساط المسيحية فإن حركة التجديد ظهرت فيها منذ منتصف القرن التاسع عشر. وقد عبر عدد من المثقفين المستنيرين المسيحيين، بصورة أوضح من رفاقهم المسلمين عن تطلعات الفكر البورجوازي النامي في أوساط البورجوازية التجارية المسيحية وبخاصة في مدينة حلب.

دعا التيار المسيحي المستنير إلى حكم ديموقراطي يتساوى فيه الجميع، ويعطي لكل حسب كفاءته وجهده (لا حسب دينه)، ويفصل فيه الدين عن السياسة، ويقوم على العلم الحديث. كما نادى أنصار هذا التيار بالوطنية والقومية التي نشأت وترعرعت في البدء في الأوساط المسيحية ثم انتقلت في مستهل القرن العشرين إلى الأوساط المسلمة المتأثرة اقتصادياً أو فكرياً بالتطور البورجوازي[٢٣].

أتى في طليعة هذا التيار رزق الله حسون[٢٤] (**١٨٢٥ ـ ١٨٨٠**) الحلبي، الذي عاش في الوسط التجاري، وفرنسيس المراش (**١٨٣٥ ـ ١٨٧٤**) الحلبي، الذي عاش في جو أدبي، ومزج في مؤلفاته الفلسفة بالشعر. وتنم بعض كتاباته عن روح ديموقراطية ثورية. فهو في كتابه «غابة الحق» المؤلف في باريس والمنشور بعد مماته في مصر يقول: «فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير، ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر أرباب الغنى، ولم تحرس أموالهم، ولم تقم قصورهم، وسرادقهم المشيدة». ولكن هذه النزعة التقدمية لا تظهر في كتاب المراش

«مشهد الأحوال» المؤلف في حلب والمطبوع في بيروت ١٨٨٣ على نفقة الخواجات ابراهيم صادر وايليا باسيل[٢٥]. ويعود سبب ذلك إلى تقيته وخوفه وهو في حلب من بطش الحكام وأعوانهم، فغلف أفكاره التقدمية الجريئة بالأفكار المألوفة مازجاً الشعر بالنثر معالجاً نظرية أصل الأنواع والأجناس مروراً بالمجتمع والسياسة والغزل.

المفكر الحلبي الثالث المشهور هو جبرائيل دلال[٢٦] (١٨٣٦ - ١٨٩٢) صاحب القصيدة المشهورة «العرش والهيكل»، التي هاجم فيها رجال الدين والحكم الاستبدادي، ودعا الناس إلى الثورة عليه وتأسيس الحكم الجمهوري. ولهذا القي في السجن حيث مات فيه بعد سنتين، دون أن تشفع له قصائد المديح بالسلطان عبد الحميد.

الفصل الخامس

نماذج من روحانيات العامة وفروسيتها

روحانيات العامة غزيرة وبحاجة إلى كتاب خاص ودراسة مستفيضة. وليس هدف هذا البحث الا تقديم بعض النماذج عن هذه الروحانيات لأخذ صورة أوضح عن الجو الروحي للعامة بما يساعد على فهم تحركاتها وهياجها من جهة أو ركودها واستكانتها من جهة أخرى. وروحانيات العامة هي مرآة صادقة للمجتمع الاقطاعي الشرقي المتخلف في الشرق، الذي لم تتمكن قواه الثورية من نقله إلى مجتمع متطور كما جرى في الغرب. ولهذا فإن هذه الروحانيات عكست الجوانب المتخلفة لذلك المجتمع الاقطاعي الشرقي من جهة، والتيارات الثورية المعتملة في قلب ذلك المجتمع من جهة أخرى.

إن العلاقة تبدو وثيقة هنا بين التأثيرات المتبادلة للبنيتين التحتية «العلاقات الاقتصادية الاجتماعية» والفوقية للفكر والأيديولوجيا. فروحانيات العامة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكيفت، شأنها شأن الأيديولوجية، مع ضرورات المجتمع الراكد الخامل والمتصف بقمع الفئة المستثمرة للمنتجين الحقيقيين.

وقد مثلت الفئة العليا من رجال الدين أيديولوجية عصور الانحطاط الاقطاعي الشرقي. وكانت هذه الفئة تلجأ إلى تلفيق الخرافات والأساطير والبركات واقامة المزارات لكي تبتز أكثر ما يمكن من المال. وقد لاقت هذه الفئة نجاحاً باهراً ولمدة طويلة من الزمن. أما الفئات الفقيرة من رجال الدين، التي انحدرت من الفلاحين أو عامة المدن فإنها كانت أقرب إلى حياة الجماهير وتعاطفت معها وأمدت حركة العامة بالمنظرين الفكريين لتحركاتها وكون هؤلاء، جزءاً من المعارضة الثورية للاقطاعية الشرقية، التي اتخذت شكل الصوفية أو الزندقة الواضحة والمتسترة أو العصيان المسلح حسب الظروف والأحوال.

ولهذا فإن الاطلاع على روحانيات العامة يكشف لنا الوجهين المتناقضين للمجتمع الاقطاعي الشرقي: وجه الفئة المستغلة المستثمرة من حكام وأعوانهم، ووجه الفئات الاجتماعية المستثمرة المستغلة المنهوكة من جهة أخرى. وكثيراً ما اختلطت الأوجه وامتزجت الصور لدى انعكاسها في روحانيات العامة، التي نحن بصددها.

وانسجاماً مع البنية الاقتصادية الاجتماعية المتخلفة اتصفت روحانيات العامة بالتخلف في الشكل والمضمون. ومع اهمال **العلوم عم الجهل بين الناس وعششت السذاجة في رؤوس العامة** والخاصة، وبدت في ضعف التعليل لظاهرات الطبيعة والمجتمع. فإذا أصاب البلد القحط أو دهمه الجراد أو حلت به

الأوبئة (الطاعون والكوليرا) والأمراض أو ضـربة الـزلازل، أو إذا نـزل بالبلد عـدو داخـلي أو خـارجي، نـرى الحكـام وقـادة العامة الفكريين في ذلك الزمن يتجهون إلى التماس زوال هـذه الـظواهر بـالأدعية والأوراد والصلوات واقـامة الـذكر واخـراج «السيـارة» لكي تزايلهم هـذه الشدة. كـما ان مختلف تسليـات العامة رمت إلى تخفيف وطأة الشدة الحالة بها سواء من الـطبيعة أو من النظام الاجتماعي السائد. ومن خلال هذا المنظار يمكن فهم كثير من روحانيات العامة.

١ ـ مراسم الأذكار:

هي إحدى الوسائل، التي لجـأت اليها العـامة، للبحث عن طرق النجاة في الدنيا والآخـرة. وبسبب جهل العـامة وانعـدام ثقافتها كانت حفلات رجـال الطرق الصـوفية ومـراسم الاذكار وما يتبعها خير وسيلة لتنظيم شؤ ون العامة والـدفاع عن بعض حقوقها وادخال الطمأنينة إلى قلبها وضمان أمور دينها ودنياها. وكـانت الطرق الصـوفية، ومـا يتبعها من مـراسم واحتفـالات حـاجة مـاسة في مجتمـع تسـوده الفـوضى وتنعـدم فيـه السلطة الحقيقية والقوانين الضامنة لأرواح الناس وحقوقهم.

أقيمت حفلات الأذكار في ليـالي الأعياد الـدينية كـافة، وفي كل ليلة اثنين أو جمعة في المساجد أو في الدور والزوايا. وكانت الحفلات تقام وفق مراسم خاصة من تهليل وتكبير قياما وركوعا وقعـودا وهم يذكـرون الله تعالى في اثنـاء ذلك، ويـرافق ذلك انشاد الأناشيد وتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم. ومن الـطرق

ما يجري فيهـا التهليل والتكبـير على ضـرب الطبـول وبلهجات خاصة تتحشرج في حلوقهم كلمات تهليـل، فلا يسمـع البعيد عنهم قليلا إلا أصواتـاً كأصـوات المصابـين بالسعـال، وحكمة ذلـك، ان كثـرة تـرديـد اسم الله تعـالى ينتقـل من اللفظ إلى القلب. وعن هـذا الـطريق يتجـردون في حـالهم عن الـرؤ يـة وتتعلق بصائرهم بالأنوار الرحمانية، فلا يكـاد أحدهم في ذلـك الوضع من الاخلاص لله أن يشعر ولا بجزء من أجزاء جسمـه ولو قطعت اعضاؤه أو سلخ جلده وذلك بتوجه القلب مـع نور الفكر مع سائر شعور الأعصاب الى تخيل الأنوار الالهية(٢٧).

هذا المبدأ الصافي للصوفية داخله مع الزمن العبث بالغايات الحقيقية من هذه الأذكار. وأمسى رجال التنوير من المتدينين في مستهل هذا القرن ينادون بازالة معالم الطرق الدخيلة والاكتفاء في حفلات الأذكار بذكر الله تعالى بأدب وهـدوء. وفي منتصف القرن العشرين تجـرأ عدد من المتنـورين ونادوا بـالغاء حفـلات الاذكار نهائياً، وتم لهم ذلك في منتصف هذا القرن.

ونقدم نموذجاً من حلقة الذكر المقامة في مـزار الشيخ جـاكير بحلب، وهو شيخ من أولياء حلب المشهورين في القرن التاسع عشـر والقرن العشـرين. والقبة المبنيـة فوق قبـره كـانت مـزاراً للمتعبدين ولمن يعتقد بكراماته. وفي ثلاثينات القرن الحالي زار الراهب اليسوعي توتل مقامه واجتمـع بالمؤمنـين بالـولي الشيخ جاكير. وحضر رتبتهم الدينية للفرجة. وننقل فيـما يلي مـا كتبه توتل حرفيا نـظرا لأهميته ولعـدم اختلاف طقـوس الصوفيـة في

أوائل القرن العشرين عنها في القرن التاسع عشر وما قبله، قال توتل[٢٦]:

«وحضرنا رتبتهم الدينية للفرجة. فكانت غريبة بمشاهدها، وقد صارت بعد العشاء نحو الساعة العاشرة ليلا، على نور المصابيح الضئيلة، وكانت هناك حلقة واسعة من الرجال في نصفها الأول جلس البدو، وظهرهم إلى الشمال ووجوههم إلى القبلة. وفي نصفها الثاني جلسنا، أعني الداعي، وكاهنا ثانيا يسوعيا بولونيا، وجماعة من العسكر الافرنسيين، وضباطهم. وكان في وسط الحلقة مجمرة نار متقدة فدارت علينا القهوة العربية مع لفائف التبغ، وبينما كانت الحفلة حافلة إذا المزاهر تقرع والضجيج يزداد دقيقة عن دقيقة وصوت المغنين والقوالين يرتفع ثم سكت الجميع الا الشيخ فأخذ ينشد الشعر:

الله الله ياستار يالي للذنب غفار
ياربي تغفر ذنبي ونجني من حر النار
فننخيك ياأبا الزهرا انجدني منك نظرة
أنا داخل على الجهرة مددك مددك يامختار
لا **نتخي** أنا الرفاعي بسره لجسم السباع
بيوم الضيق نفاع للفزعة دوم محضر
أنجدني يادسوقي عرجي راعي البروق
أنا بشدة ومضيوق أدركني راعي الأسرار
انجدني ياطنطاوي يا قطب ويا علاوي
ياأحمد يابدوي للفزعة دوم محضر

انجدني ياعبد القادر برمحك دائم ظاهر
دخيلك عبد القادر ادركني راعي الأسرار
لاستنجد بعز الدين عرجي راعي البراهين
ادركني نسل الحسين للغزوة دوم محضر
يافتاح ياعليم المدد يامفيض النور على الوجود المدر
يارسول الله غوثا ومدد يارسول الله عليك المعتمد
يارسول الله فرج كربنا ما رآك الكرب ولا وشرد
يارسول الله كن بنا شافعا انت والله شفيع لا ترد
ياأبو بكر ياصديق المدد ياعمر يابن الخطاب المدد
ياعثمان يابن عفان المدد يا إمام على المدد
ياأربعين يامتدركين المدد ياأربعة أقطاب ياسلاطين المدد
ياسيد أحمد الرفاعي المدد ياأحمد البدوي المدد
ياعبد القادر الجيلاني المدد ياابراهيم الدسوقي المدد
أهل المدد بالمدد ادركونا يارجال الله بالمدد

إلى أن قال:

شيخ العواجز أبا اسماعيل مالي حال
ياسعي القوم نظرة للمريد بالحال
محبوبك يناديكا ياشيخ جاكير أنا بالحال
أدرك محبك اذا ناداك سيدي بالحال

وقال الشيخ راوية هذا الشعر، عند ختام الكلام تظهر اشارة نورية في نظر منشد الشعر فيفهم منها ان قد أذن له بان يأمر بالخوارق، فيأخذ المستعمون من الحاضرين بطعن انفسهم بالسلاح. واليك صورة صادقة لما شاهدناه وكنا جمهورا، فلا

سبيل إلى الشك بصدق نظرنا وقد أجمعنا عليه.

سكت الشيخ وعاد المغنون الى غنائهم، والى ضرب المزاهر الى أن صار أحدهم، وهو في وسطهم، يصفع المزهر صفعا بكفه ثم رماه بعيدا فوقع بالقرب من المجهرة وكاد يقلبها على الحصير. لكن الشرارت طارت منها وأثرت في الحصير المفروش في وسط الدار. ثم انقلب الرجل المذكور على وجهه مختبطا بنوبة عظيمة أشبه بنوبة من أصيب بالساعة فارتعش الناس واعتبر المغنون أن الوحي قد حل على الرجل، وخارت قواه. فقام الشيخ وأمر يد، على وجهه وصار يقول له: «وحد الله وحد الله» إلى أن هدىء الرجل وعاد إلى موضعه، وعاد المغنون الى غنائهم. لكن تلك الحادثة كانت اشارة للجماعة أن المدد قد حضر لكي يأتوا بالمخرقات.

فقاموا وأحضروا أسياخا من حديد وقطعا حديدية وغيرهما ودسوها بالمجمرة حتى حميت واحمرت أطرافها فأخذها الشيخ وصار يلحسها بلسانه. وقام منشد جميل الصوت ينشد ويعيد القصيدة التي كان الشيخ سبق وتلاها. وفيما هو ينشد قام الشيخ ودخل غرفة مظلمة ومعه الرجل الذي كان قد هبط عليه الوحي واعترته الهزة العصبية، وصار الشيخ من داخل الغرفة يرفع صوته مناجيا الشيخ جاكير. وما مضت دقائق عشر الا خرج ومعه الرجل وفي بطنه مجتاز سيخ الحديد. فصوره أحد الحاضرين مستعملا نور المغنيزيوم. وكان غيره من الرجال يضع الحديد المحمرة في فمه. وغيره يغرس دبوسا في خده..

ونحن ننظر مستغربين الأعمال والأحوال.

وكان بين الجماعة الافرنج ممن حضروا تلك المشاهد اطباء فتحققوا أكيدا أن السيف دخل من الخصر وخرج من الخصر ولم يجر معه دم.

وقالوا إن من غرسوا تلك الأسلحة في جسمهم كانوا في حالة هستيرية لم يشعروا فيها بالألم ولم يصابوا بمقتل. ولا حاجة الى التماس علل خارج الطبيعة لتعليل هذه الظاهرات وأمثالها المستعملة من المشعوذين.

وأهل باب النيرب يخافون الحلف كذبا بالشيخ جاكير لئلا تصيبهم نقمته ولهم في هذا الصدد اخبار (انتهى كلام توتل).

وقد ساهمت حفلات الذكر في نظم الشعر الركيك المعبر عن الجمود والتخلف السائدين وفي تطوير بعض الوان الموسيقى والغناء الملائمة للمستوى الفكري المتدني للمغنين والملحنين والمستمعين على حد سواء. وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط بعنوان «بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا» لجامعة الكنجي المتوفي حوالي ١١٥٠هـ - ١٧٣٧ م. ترجم الكنجي لستة وعشرين مغنيا من معاصريه منهم المؤذن والمنشد في الاذكار والمغني على الآلات، والمخطوط وما تضمنه من اشعار معظمها لكبار المتصوفة وموشحات «ضاهت نجوم الافلاك» - حسب تعبير الكنجي - أعطى صورة حقيقية لذلك اللون من ألوان الثقافة الشعبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أدت تلك الألوان الثقافية - على الرغم من تخلفها - دورا مهما في

تسلية العامة والترويح عنها ونسيانها لهمومها ومشكلاتها المزمنة. ويلاحظ ذلك من خلال الأوصاف، التي أطلقها جامع المخطوط على المغنين. فهو يصف محمد ضفا بن فخر الدين بانه «رئيس المقامات السعدية ونسيب السادة الخلوتية. كعبة الأدب وركن السرور والطرب.. متفن صناعة الانشاد أي اتقان ومحرك بأناشيده الأرواح والأبدان». ويصف مغنيا آخر هو علي بن العالمة بأنه «زهرة رياض النشاط وغدير بستان اللهو والانبساط».

ويلاحظ أن معظم ما قيل من شعر كان في الخمرة، التي اتخذت معنى صوفيا خاصا أنشده المنشدون وهم في نشوة العوالم الروحانية. ومن الشعر الصوفي في الخمرة هذه الأبيات:

شاهدت تلك الكؤوس تجلى	بين ربي الجزع والمصلى
وقد أديرت على الندامى	قد استظلوا الكروم ظلا
في الحان خمارها ينادي	اهلا بمن جاءنا وسهلا
شربتها من أصيل نجد	تكرما منهم وفضلا

٢ ـ الخلوة واستحضار الجن:

وفي حي قرلق بحلب عاش في القرن التاسع عشر الشيخ يوسف الشريف. وقد استقى «توتل» أخباره من ابنه، الذي كان في الثلاثينات لا يزال على قيد الحياة. وذكر الابن[٢٧] «ان أباه كان له طريقة يتصل فيها بالجن، ويسخرهم في خدمته، وبهم يشفي المرضى ويقضي حوائج من قصده من الناس بحاجة... وكان يلبس اللون الاصفر اللبادي البني، ويضع

على رأسه «العرف» وهي عمامة ضخمة ثقيلة لـونها أصفر بني.
وجمع الشيخ يوسف مالا وافرا «بتسخيره الجن» في قضاء حوائج الناس. وكانت لـه طـريقـة ليستحضـر الجن، وهـذه هي كـما ذكرها ابن الشيخ يوسف:

بسم الله الرحمن الرحيم

كيفية الخلوة: تدخل الخلوة يوم الثلاثاء عنـد صلاة الفجـر ويكون بخورك عندك، وتقرأ الدعاء بعـد كل صـلاة مفروضـة عدد ٧٢ مرة. وفي اليـوم الاول تسمع نهيق الحمـار. وفي اليوم الثاني تسمع جري خيل على السطح. وفي اليوم الثالث يـدخل عليك ثلاث قـطاط احمر وأبيض وأسـود، ويحضرون من صـدر الخلوة. وفي اليوم الرابع يدخل عليك خادم من النور فلا تخف ولا تفزع ولا تقطع البخـور حتى يقول: السـلام عليك يـا ولي الله. فقـل له: وعليـك السلام ورحمـة الله وبركـاتـه. فيقـول لك: ما تريد منا يا ولي الله؟ فقل له: ما أريد منك إلا خادمـا يخـدمني ما بقي من عمـري. فيقـول لـك: خـذ هـذا الخـاتم الذهب منقوش فيه اسم الله الاعظم. هـذا ميثاق بيني وبينـك فاذا أردت حضوري اجعل الخاتم بيـدك اليمنى، واقرأ الـدعوة ثلاث. ثم تقول: يا ملك كندياس اجبني بحضورك في كـل ما تريد وتطلب هذا مع التوكل على الله، وهذا الدعاء المبارك:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على سيـدنا محمـد وعـلى آله وصحبـه وسلم اللهم اني أسألـك وأتوسـل اليـك يـا

الله. . . أسألك الله ان تسخر لي خدام هذه الاية العظيمة والدعوة المنينة يكون لي عونا على قضاء حوائجي هيلا هيلا جولا جولا ملكا ملكا يا من لا يتصرف في ملكه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض فسخر لي عبدك كندياس حتى يكلمني في حال يقظتي ويعينني في جميع حوائجي يا من لا يأوده حفظهما وهو العلي العظيم يا حميد يا مجيد يا باعث يا شهيد يا حق يا وكيل يا قوي يا متين كن لي عونا على قضاء حوائجي بألف الف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أقسمت عليك أيها السيد كندياس اجبني انت وخدامك وأعني في جميع أموري بحق ما تعتقدونه من العظمة والكبرياء وبحق هذه الآية العظيمة وبسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ الاوراد:

كان لمشايخ الطرق أوراد وتسابيح تحمي حافظها أو قائلها من نائبات الدهر. وفي وقت خضع فيه الانسان خضوعا شبه كامل للطبيعة وعواملها، كان لا بد له من غذاء روحي يفرج كربته ويشحذ عزيمته ويلطف جو الحياة السقيمة الخشنة المحيطة به.

وفيما يلي دعاء ذكره المؤرخ البديري «وخاصيته لهجوم المخاوف في السفر والحضر»[٢٩]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم.

بسم الله الخالق، الطائل الاكبر، حرز لكل خائف، لا طاقة لمخلوق، مع الله عز وجل، اللهم اني في حماك وتحت لوائك، فارحم حماك وانشر علينا لواءك، واكشف عنا بلاءك الخارج من أرضك، والنازل من سمائك، مطشين، فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

٤ ـ دمشق والاساطير:

بعد أن فقدت دمشق مركزها السياسي كان لا بد لمن يهمهم استعادة جزء من مكانة دمشق، من اضفاء القدسية عليها. وسرعان ما صارت رابع الاماكن المقدسة بعد مكة والمدينة والقدس. وبما أن للجبال أثرا كبيرا في التاريخ الديني للشعوب، لهذا استنجد المستنجدون بجبل قاسيون وأحاطوه بالاساطير حول ما يشتمل من الاماكن المقدسة، فمنذ (٩٥٣ هـ) كتب محمد بن طولون الصالحي صفحة رائعة عن تاريخ دمشق وخاصة «الصالحية»، التي عمرت بعد هجرة قسم من عرب فلسطين من بني قدامة المقدسيين في عصر نور الدين محمود. ومنذ ذلك التاريخ ايام الحروب الصليبية قامت الاديرة والمساجد والمدارس والمكتبات والكتاتيب والقباب والمآذن ومعامل الورق والحمامات والبساتين، التي يرويها نهرا يزيد وتورة. وجاء بناء جامع الشيخ محي الدين بن العربي في عهد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ ليضفي على الصالحية لونا قدسيا(٣٠).

تروي الاساطير ان آدم أبا البشر سكن في سفحه الادنى.

وفي اعلاه قتل قابيل أخاه هابيل ففتح الجبل فاه لفظاعة هذا العمل، يريد ان يبتلع القاتل، وأخذ الجبل يبكي وتسيل دموعه حزنا على هابيل، وبقي لون الدم على صفحة الصخرة التي قتل عليها هابيل ظاهرا باديا. وفي كهف جبريل جاءت الملائكة الى آدم تعزيه بابنه هابيل. وفي شرقي قاسيون كان مولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي غربه الربوة التي أومي اليها المسيح وأمه عليهما السلام، وقرب الربوة في النيرب (محلة كانت عامرة اهلة بالسكان تلي الربوة من جهة دمشق. والنيرب كلمة سريانية معناها الوادي) كان مسكن حنة أم مريم جدة المسيح(٣١).

وكان كثير من أهالي دمشق لهم مصلحة في إشاعة الاخبار عن هذه الاماكن والتحدث عن فضائلها ليجذبوا الناس إليها. ولم يتوانوا عن انتحال **الأحاديث** عن الرسول حول أهمية قاسيون ودمشق. ولم يكن لفت الانظار الى أماكن معينة وتشويق الناس الى زيارتها مقتصرا على دمشق، بل هو ظاهرة عرفتها القرون الوسطى ولا تزال آثارها حتى يومنا هذا.

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق مخطوط لابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفي ١١٠٣ هـ بعنوان «حدايق الانعام في فضايل الشام» مكرس لتبيان فضائل الشام اعتمادا على التراث. فالباب الثاني من المخطوط «في بيان الآيات الواردة في فضائلها الوفية وذكر تفاسيرها وفوايدها البهية»(٣٢). وقد فسر المؤلف كثيرا من الآيات القرآنية بما يدعم مواقع الشام الروحية

والاقتصادية والسياسية. أما الباب الثالث فهو شرح «فيما ورد في فضلها من الاحاديث النبوية والاخبار المحمدية»[٣٣]. والباب الرابع فيما جاء في فضل الشام من كلام السلف وبدايع التحف. أما الباب السادس والاخير فيتضمن «ذكر من مات في بلدة دمشق من الانبياء والصحابة والاعلام».

٥ ـ الجو الروحي السائد في الاوساط المسيحية:

لم يكن الجو الفكري في الاوساط المسيحية يختلف عنه في الاوساط المسلمة قبل منتصف القرن التاسع عشر. فالمجتمع الاقطاعي الشرقي ورديفه المجتمع الحرفي في المدينة أفرز «فكرا متخلفا جامدا مهترئا» بين المسلمين والمسيحيين. ولكن اتصال بعض الاوساط المسيحية بأوروبا البورجوازية، دفع بهذه الاوساط الى أخذ بعض مظاهر التفكير البورجوازي وطرح بعض مخلفات العصور الوسطى. ولهذا فان الاجواء المسيحية تنشقت بصورة مبكرة، ما يعادل ربع قرن تقريبا، بعض نسائم التقدم الاجتماعي والفكري، التي تأخر دخولها الى الاوساط المسلمة. ويخطيء من يظن أن الاوساط المسيحية لم تكن تعتقد بالاساطير والخرافات والاوهام، قبل منتصف القرن التاسع عشر. فالجميع كانوا على مستوى واحد من التخلف الفكري والجمود والاعتقاد بالخزعبلات. ولنترك الآن بعض المؤرخين المسيحيين يروون نتفا من روحانيات المسيحيين في ذلك الزمن.

نتقل فيما يلي الكلام الحرفي، مع أخطائه اللغوية، كما رواه المؤرخ المسيحي الكاهن الدمشقي بريك في هذا المجال:

«وفي هـذه السنة (١٧٤٧ م) نـظرنا عجب في مـدينة دمشق بأن امرأة حبلى وقبلما تلد بشهرين بكى الـولد في بـطنها وسمـع أولاد الدار بكاء الولد في جوفها وفي حـين ولادتها ولـدت ذكرا وعاش ثمانية أشهر ومات»(٣٤).

«في سنـة ١٧٤٩ انطفت (أي راودهـا عن نفسها ـ المؤلف) امرأة مسيحية من رجل ساحر أمّي وكتب لها أوراق فدخل فيها الشيطان وعدمت عقلها وجابـوها الى الكنيسـة بجنزيـر حديـد وأمر المطران أن يوضعوها في كنيسة مار نقولا وأمـرنا أن نصـلي لها نحن الكهنة، وكنا في العدد ثمانية عشـر ومن جملتهم الفقير كـاتبه وكـان الشيطان يخـاطبنا من فمهـا واستقـامت مـدة أيـام وتعافت قليلا وطلع الشيطان، فيما بعـد تعافت كـاملا ثم كـان زوجهـا قـد تـوفي في مـدة مـرضهـا وأخيـرا تـزوجت وجـاهـا أولاد»(٣٥).

«خبر مفيد للصبر وبه تعزية لمن يقع بامرأة شريرة خبيثة. في هـذه السنة (١٧٥٠) تـوفي أحد كهنـة دمشق وفي ليلة دفنـه في آخر الليل اجتاز على المقبرة رجال محملين تبنـا فنظروا فـوق قبر ذلـك الكاهن عمـود نار ممتـد من السـما الى فـوق ذلـك القبـر وسمعوا أصوات وتنغيم أدهشتهم وشموا رائحة زكيـة عظيمـة، ولما دخلوا المدينة أخبروا بذلك، فبحثنـا عن الامر وكيف صـار هذا فوجدنا أنه كان له امرأة خبيثـة وشريـهـة وهو صـابر عليهـا وشـاكر الله تعـالى فعرفنـا ان الله تعالى منحـه هذه النعمـة من أجل صبره واحتماله لان الله لا يضيع أجر الصابرين»(٣٦).

ومن هذه النوادر ما رواه المعلم المسيحي الحلبي نعوم البحاش في أيار ١٨٦٠ عن سفر الضرير شكر الله حمصي وبرفقته بعض أقربائه الى جبل لبنان لظهور قديس هناك يشفي الناس من العمي والبكم. كما راجت شائعة أخرى في حلب عن ظهور قديس قسيس موراني في لبنان «عمال يظهر عجائب هكذا قالوا»[٣٧].

ولكن الاوساط المسيحية التي أخذت في الاتصال بالحضارة البورجوازية الاوروبية أخذت تشك في صحة قسم من الخرافات والخزعبلات السائدة. فقد جاء في دفتر وقائع دير الآباء اليسوعيين في حلب في ١٦ آيار ١٨٨٢ ما يلي: «عشية كسوف الشمس. الخوف يعم البلد خشية حدوث الزلزلة. عبثا حاولنا تهدئة الناس مفسرين لهم أسباب ظاهرة الكسوف الفلكية فلا يصدقوننا بل ينقادون الى أقوال أحد الشيوخ المسلمين المنذر بالزلزلة. فهجر اناس كثيرون بيوتهم وخرجوا الى البرية وضربوا خياما وناموا تحتها واقبلوا على الاعترافات والمناولات اقبالا عظيما. . . . خشية وقوع الاجل»[٣٨].

٦ ـ تسلية العامة وفروسيتها

إن أخبار العامة وأفراحها الممزوجة بأحزانها ولهوها وحياتها الدينية والقومية، ان جاز التعبير، متناثرة في كتب معاصري ذلك الزمن، فالاستماع الى الحكواتي بتلو قصة عنتر أو الزير أو علي الزيبق ونيروز شاه. . . الخ، وحضور روايات خيال الظل ولعب الضومينو أو الضاما أو الطاولة أو الكاب ودك وعمي

عميش، والسماع الى نوبة آجق باش أو قطرميز، وشرب التتن في الغليون أو التنباك في النارجيلة مع القهوة في المقاهي أو في البيوت، والتفرج على مواكب الوالي وكبار الحكام، أو مواكب الطرق الصوفية وتظاهراتها بما عرف بـ «السيارة»، وحضور الاعراس والاشتراك في عراضاتها، ومشاهدة ألعاب الفروسية. . . كانت من السمات الروحية لذلك العصر.

كانت مواكب المشايخ أصحاب الطرق ومؤيديهم ومريديهم لزيارة الاضرحة المعروفة لمشاهير الزهاد والاولياء في أيام معينة من السنة أحدى التسليات المهمة للعامة. وهذه المواكب المعروفة بالسيارات كانت تبعث الرضى والاطمئنان في قلوب المشاركين فيها. وكان ترتيب موكب السيارة كما وصفها العلاف كما يلي[٣٩]: تقوم طائفة من المريدين لشيخ الطريقة الصوفية بالسير في المقدمة صفوفا مؤلفة من خمسة أشخاص أو اكثر يلبسون طواقي ملونة بالاخضر والاحمر وعليهم أردية مثلها غالبا ووظيفتهم أثناء السير أن يذكروا الله في سيرهم جهرا. وخلف هؤلاء يسير حملة المزاهر وهي نوع من الدفوف تعطي صوتا بالقرع عليها، يقرعونها بلطف وترتيب وهم يسيرون أيضا صفوفا وبينهم حامل اللواء الكبير (السيارة) له أطراف تنتهي بقطع من الحبال الرفيعة يمسك بأطرافها بعض المريدين المتوزعين على مسافة من حامل اللواء لمساعدته في نشر اللواء وعدم عبث الرياح به. وبعدهم يأتي حامل الطبل الكبير وضارب الخليلية، وهي عبارة عن صفحتين من النحاس، يتبع الايقاع عليها حسب ضربات الطبل، أو أن الطبل يتبع

ضرباتها. ثم يأتي شيخ الطريقة راكبا على فرس ولابسا عمامة شيوخه الاوائل، التي ورثها عنهم، وحوله عدد من المريدين حاملين أعلاما صغيرة كتبت عليها بعض الآيات القرآنية، كما أن العلم الكبير ملون بقطع مختلفة كتبت عليها أيضا الآيات الكريمة. وخلفهم فئة المريدين الشباب يحملون نقارات صغيرة يضربون عليها. وخلف هؤلاء بقية المريدين والمشتركين من بقية رجال الطرق.

هذا الموكب المعروف بـ «السيارة» ينطلق من مقر زاوية الشيخ، التي تقام فيها حفلات الذكر وتدرس فيها تعاليم الطريقة الصوفية، متوجها الى أقرب الاضرحة ثم الى ضريح أشهر مشايخ الطرق من أولياء الله، حيث يزداد التهليل والتكبير، وأخيرا يعود الموكب الى مقره.

وكثيرا ما تجري مراسيم «الدوسة» في أثناء الموكب حيث ينكفىء الرجال من العامة على وجوههم جنبا إلى جنب ويسير الشيخ بفرسه فوق ظهورهم وسط التكبير والتهليل وهم لا يشعرون بشيء. وإذا أحس أحدهم بألم وجهر بمشاعره فيتهم في إيمانه، ولذلك لا يتجاسر على الاعلان عن ألمه إذا شعر به.

إن مواكب «السيارات» ذات جذور صوفية، ولكننا ادرجناها في باب تسلية العامة والترويح عن همومها، لان هذه احدى نتائجها الرئيسية. بالاضافة الى ذلك وجدت تسليات مهمة أخرى، وفي مقدمتها العاب الفروسية.

ومن الالعاب المشهورة في ذلك العصر لعبة السيف

والترس، التي تبدأ حبية مسالمة وتتحول في بعض الاحيان الى خصام دموي بين اللاعبين، وأحيانا بين المتفرجين الذين ينضمون الى أحد اللاعبين. ولهذه اللعبة مراسم خاصة لا يمارسها إلا من تخرج من مدرسة اللعبة حيث يلبس قنبازا حريريا يسمى بالطاية وشملة، وذلك بعد حفلة خاصة تقرأ فيها الفاتحة والمناداة بصحائف(*) النبي والعشرة المبشرين بالجنة **والبطل** الكرار علي بن أبي طالب، ابن عم النبي المختار، وفاتح الشام أبو عبيدة بن الجراح، وسيف الاسلام خالد بن الوليد. ثم ينادي بصحائف أشهر الشخصيات الحاضرة ووجهاء الاحياء[٤٠].

ومع ألعاب الفروسية العملية هذه كانت العامة تعيش مع الفروسية في الخيال عن طريق روايات الفروسية مثل: سيرة عنتر، وقصة الملك الظاهر، وقصة أبي زيد الهلالي والزير أبي ليلى المهلهل. وكان **رواة** هذه القصص ذوي خبرة في إثارة مشاعر العامة والهاب خيالها وإرضاء طموحها. وهذا ما قامت به أيضا وبصورة أفضل لعبة «خيال الظل» أو «كراكوز»، التي تضمنت نقدا لاذعا وتهكما صارخا ضد السلطة العثمانية ومؤسساتها[٤١]. ويذكر كرد علي أن «خيال الظل» كان من أشد العوامل تأثيرا في تهذيب الاخلاق وتقويمها، بما يلقيه أساتذة هذا الفن المشهور على ألسن تلك الخيالات من المواعظ الاخلاقية، بعبارات ملؤها النقد. وكانوا يصورون في كلامهم

(*) المقصود بالصحائف هو طلب الاذن مع اعلان الخضوع للنبي والعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم.

العادات السيئة المتفشية في المجتمع ويتناولونها بالتجريح بصورة تنفر منها النفوس. كما صوروا ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاطهم، في صور نقد لطيف[٤٣]. وفي الحقيقة لم تكن سائر تمثيليات خيال الظل من المستوى الرفيع، بل ان بعض هذه التمثيليات كان من النوع الرديء المليء، كما ذكر جرجي زيدان، بالفحش وسوء الادب[٤٣]. وهو بذلك يمثل مشاعر أحط فئات المجتمع من العامة الرثة، في حين عبرت تمثيليات خيال الظل الجيدة عن مشاعر العامة وتطلعاتها الى العيش بهناء وسرور واحتشام.

وكان الاحتفال بالاعراس أحد مظاهر تسلية العامة والترويح عن نفسها. ومن العادات المتبعة آنذاك عادة «تهريب» العريس أو العروس وحجبها لفترة من الزمن عن الانظار، دفعا للاصابة بالعين، فيختبيء ويعود. ويقول الفار أنه يختفي لئلا يغار منه ملك الجان فيؤذيه. وقد تكون علة هذه الخرافات انهم، في أيام الفوضى تلك، كانوا يخافون على العروس لئلا يفتك بها أحد الظالمين من الآغوات الانكشارية، فيحجبون مظاهر العرس عن الانظار. وبالطبع إذا كانت العروس بارعة الجمال فان الخوف يزداد عليها. وحجب العروس لم يكن سببه دائما الخوف من الظالمين، بل الخوف من ملوك الجان[٤٤]، الذين يفتتنون بالجمال ويراودون العروس عن نفسها.

٧ ـ الحمامات وقصصها:

اشتهرت المدن السورية بحماماتها، التي تعدت مهمتها

الاساسية وهي الاغتسال، إلى إرضاء حاجة نفسية كانت ضرورية في ذلك العهد. فالحمامات كانت أشبه بنواد رياضية ومجتمعات تبادل فيها الناس مختلف الاحاديث. وقد قام الاستاذ منير كيال بتأليف كتاب عن الحمامات الدمشقية وتقاليدها تضمن بعضا من الاقاصيص والحوادث الخارقة، التي تخرج في معظم الاحيان عن نطاق العقل والمنطق. ويسعى مؤلف كتاب الحمامات الى توضيح سرعة تصديق الانسان في الحمام للاقاصيص الخارقة بحيث يصبح آلة مسيرة لاشباح وكوابيس لا يعي من أمرها إلا الخوف منها، ويدفعه هذا الخوف الى حالات هيستيرية تستبد به، وتجعل الرؤى الغريبة تتداعى في مخيلته على أشكال وهمية مجسمة تدفعه الى تصورات أشد غرابة. فيعاني المرء حالات مزاجية خاصة لا تجعل الحياة جديرة بان تعاش إلا من خلال رقى سحرية.. يقوم باعدادها أناس وقفوا حياتهم لها.. وكنتيجة حتمية تتألف في رأس المرء أفكار يرويها على شكل أساطير يعتقد أنه رآها بأم عينه وعاشها بنفسه(٤٥).

ومع صحة تحليل الكيال إلا أنه أغفل الامر الاهم وهو طبيعة المجتمع الحرفي الرديف للمجتمع الاقطاعي الشرقي، الذي خلق الاجواء والظروف لانتعاش هذه الميثولوجيا وتصديق الناس لها دون محاكمة أو تمعن. وكانت هذه الاقاصيص الخارقة طريقا لهروب الناس من واقعهم الاليم الرتيب القاسي.

٨ ـ السيران والمرأة:

كان «السيران» في ذلك العهد جزءا من حياة الناس. ووجد في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جمعيات مهنية غايتها تنظيم التسلية والنزهات لابناء الصنعة وفي اثناء خروجهم للسيران يركبون الخيول والرهاوين، والمتوسطو الحال يركبون الحمير من هليبية وقبرصية وقروية[٤٦]. والسيران الى الحقول والبساتين كانت بمثابة تفريج عن كربة الناس ونسيان همومهم واحزانهم وسط الهرج والمرج اللذين يسودان السيران.

اقتصر السيران على الرجال احيانا، وخالطته النساء احيانا أخرى لا سيما في أوقات الامان والهدوء. ولكن منع النساء من السيران كان معروفا في القرن الثامن عشر. ومن الطبيعي ان تبادر نساء النصارى الى اغتنام الفرص والانطلاق من جحيم البيت الى الحرية في البساتين وعلى ضفاف الانهر. ولنترك المؤرخ المسيحي الدمشقي بريك يصف لنا سيران النساء وموقفه منه، وتعليله لمنع النساء من الخروج، وذلك في عهد الوالي اسعد باشا في منتصف القرن الثامن عشر، الذي عرف بتساهله وتسامحه مع الذميين، كتب بريك[٤٧]: «وأما نسا النصارى الدمشقيين غشهم الشيطان وزافوا وتعدوا الحدود بملابسهم وعصباتهم المسماة كبرلية[*]، الله لا يكبرهم، وخصوصا بشربهم التتن في البيوت والحمامات والبساتين حتى

(*) زاف الرجل في مشيه اذا تبختر أو مشي باسترخاء والعصبات الكبرلية نسبة الى بيت الكبرلي من الاتراك.

على النهورة والناس مجتازة. . . حتى على طول المدة ما بقي مدخرة ولا مخبية بل الجميع زافوا وتعدوا الحدود. . . تحنن عليهم ربنا واعتقهم قليلا من العبودية والظلم والمظالم القديمة فغرهم الشيطان بل غروا أنفسهم، وهم آكلوا الحصرم ورجالهم ضرسوا. وبالحق نقول ان لا شر ولا ظلم الا وسببه النساء. . . » وبعد ذهاب اسعد باشا أجبر الوالي الجديد النساء على البقاء في البيوت، وجرى اضطهاد للرجال، وحول ذلك يقول بريك: «أعادهم الى الذل القديم والظلم الشديد وأذل رجالهن».

ويبدو أن الضغط الزائد على النساء وحجزهن في البيوت يدفع بهن الى الانطلاق بصورة عنيفة عند حصولهن على نصيب من الحرية أو عندما تتيح لهن الظروف ذلك ومصداق على ذلك ما كتبه المعلم الحلبي نعوم البخاش سنة **١٨٦٣** عندما حل الجراد في منطقة حلب وخرج الرجال «نصارة واسلام ويهود وفرنج ورؤساء» في **٢٠** نيسان **١٨٦٣** لجمع الجراد، فاغتنمت النساء الفرصة وخرجن يتجولن في الازقة «بلا غطا» مستفيدات من غياب الرجال[٤٨].

وكانت المرأة عامة والحسناء خاصة لا تتجاسر على الخروج من بيتها دون حارس يحرسها، وإذا لم يوجد الحارس فتضطر الى ارتداء الملابس الرثة وتحني ظهرها في أثناء السير ليظن من يراها أنها حيزبون[٤٩].

والوثيقة رقم **٥٥** من اضبارة المطران يوسف مطر الموجودة في

دار الاسقفية المارونية في حلب تذكر اتفاقا جري بين الطوائف المسيحية منع فيه على النساء لبس القنابيز «واللائي لهن قنابيز من سابق يخيطوهن تخيطا محكما». كما نهى الاتفاق النساء نهيا صارما «بأن لا تخرج ولا واحدة من النساء إلى الازقة بالقديمات والتواسيم حتى ولو كان في المحلات القريبة لان هذا من شأنه يضاد الاحتشام المداني فضلا عن الاحتشام المسيحي»[٥٠].

فإذا كان هذا شأن المرأة المسيحية التي تمتعت بقسط ما من الحرية، فكيف كان حال المرأة المسلمة؟ ان التضييق على حرية المرأة وحجزها في البيوت كان من الثمار المرة لذلك العهد.

٩ ـ السمرمر ومكافحة الجراد

السمرمر نوع من الطير كان الناس يعتقدون أنه يفتك بالجراد، فكانوا يحرصون على الاتيان به إذا نزل الجراد بأرضهم، ـ ولكنه في اعتقادهم ـ لا يأتي إلا تابعا نوعا خاصا من الماء يجلب خصيصا من عين بين اصفهان وشيراز. فإذا نزل الجراد بأرض جلب إليها من تلك العين ماء، على أن لا يضيع حامل الماء ذلك الماء على الأرض ولا يلتفت الى الخلف، فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء الى أن يصل الى الارض التي بها الجراد، فتقع الطيور عليه وتقتله. وقيل أن من الصفات التي يجب أن تتوفر في حامل الماء أن يكون من أهل الصلاح، ولا يمر به تحت سقف، فان فعل بطل مفعوله[٥١].

ومع أن ماء السمرمر لم يثمر في مكافحة الجراد، إلا أن المدة

اللازمة لجلب الماء ووضعه في الامـاكن المرتفعـة كانت تبعث في العامة، الخائفة من ضرر الجراد، الامـل في الخلاص من هـذه الافـة الطبيعيـة وتحثهم بالاضـافة الى ذلـك على جمعـه ودفنه أو إحراقه.

والشماس بولس الحلبي يروي لنا كيف أتـوا في سنة ١٦٤٣ الى حلب بماء السمرمر من بلاد العجم لمكـافحة الجـراد حسب الاسلوب القديم. وأصعد الماء بوقاية من فوق مقام الشيـخ ابي بكر لانه مرصود ولا يجـوز مروره تحت سقف أو عتبـة. وخرج للقائه أهـالي حلب المسلمون يهللون والنصـارى يرتلون بـاللغة الرومية ثم اليهود. وكانوا جميعا حول سور المدينة بـأحسن نظام الى أن أتوا بماء السمـرمر وعلقـوه عند بـاب المقام. ثم تنـاولوه بإنائه النحاسي من فوق الباب وساروا به الى القلعة ومن الاناء كـذلك من فـوق بابهـا حيث علقوا الانـاء النحاسي المـلىء بماء السمرمر تحت رفراف المئذنـة من غير أن يمـروا به تحت اعتـابها لكي لا يبطل طلسمه وتزول منفعته. وعندما فقس الجراد كانوا يحركون ذلك الوعاء المليء بماء السمرمر المرصود. وحالا اتي طير السمرمر بأعداد غزيرة، وهو طير اسود حجمه بحجم العصفور وأخذ يأكل الجراد. ومـع ذلك لم يستـطع هذا الـطير ان يقضي على الجراد مما دفع الوالي الى إجبار الفلاحين وأهـل المدينـة على جمعه في أكياس ورميه في بئر مقابل القلعة[٥٢].

ويـروي البديـري في أحداث عـام ١٧٤٥ نبأ إرسـال أسعد باشا «رجلين من أهل الخبرة يأتونه بماء السمـرمر» بعـد أن أكل

الجراد كل شيء. وفي الوقت نفسه أجبر الوالي أهل القرى والضياع على جمعه ودفنه. ثم انتشرت الاخبار والاشاعات في دمشق «بأن الطير المسمى بالسمرمر قد جاء ومر على قرية عدرا وضمير، وأتلف من الجراد شيئا كثيرا. ففرحت أهل البلاد سيما أهل الشام. فخرجت اهل الصالحية ومعهم المشايخ والتغالبة والنساء والرجال والاطفال بالبكاء والعويل والتضرع الى الله تعالى بدفع هذا البلاء ورفع الغلاء، ثم زينت أهل دمشق فرحا بدخول السمرمر أحسن زينة»(٥٣).

ولكن ذلك لم يأت بنتيجة وبقي الجراد يتكاثر ويأكل الاخضر واليابس. ويرجع البديري اسباب هذا البلاء إلى «ازدياد الفجور والفسق والغرور والغلاء والشرور»(٥٤).

ومن أجل دفع البلاء هذا خرج الشيخ إبراهيم الجباوي شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بالسعدية أو الجباوية «ومعه التغالبة(*) بالاعلام والطبول وقصدوا زيارة السيدة زينب، واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد، ورجعوا آخر النهار، ثم داروا حول مدينة دمشق، ومروا أمام باب السرايا وعملوا دوشة. وصار حال عظيم وبكاء شديد» والناس تدعو «بهلاك الجراد ودفع البلاء. وبعد يومين جاءت أهل الميدان بطبول وأعلام وحال وصريخ، وقصدوا جامع المصلى بالدعاء برفع الجراد وهلاكه. ويقولون: يا من له المراد في كل ما أراد،

(*) التغالبة جماعة ممن يحضرون الاحتفالات الدينية يدقون الطبول ويهللون وهم من الصوفية.

بالمصطفى الحبيب فرج عن البلاد»[٥٥].

ويقول البديري ان كل ذلك لم يفد شيئا، «وكيف يفيد ذلك وأكثر النساء قد باحت وبنات الهوى الخاطئات دائرات ليلا ونهارا بالازقة والاسواق، ومعهم الدالاتية (فرقة من العسكر، **والفساق**. . .) ولا أمر بمعروف ولا نهي عن المنكر والصالح في هم وكرب، والفاجر الطالح منقلب في لذيذ النعم، اللهم فرج آمين»[٥٦].

١٠ ـ الشيخ رسلان:

مسجده معروف في ظاهر دمشق الى الشرق. عاش أيام الحروب الصليبية وبقي تأثيره الروحي قرونا عديدة مخيما في سماء دمشق وغوطتها، الى درجة ان الدولة لم تستطيع الاستيلاء على أي متر مربع من «حرم الشيخ رسلان» كما تسميه العامة. والطريق الرئيسي الذي يربط شمالي سورية بجنوبها يسير في منعطف حاد قرب الجامع والقبور الملاصقة له احتراما لهذا المقام وما فيه من قبور الاولياء.

والكتب القديمة تشير الى الشيخ أرسلان وكراماته وسننقل منها ما كتبه ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفي سنة **١١٠٣** هـ. جاء في المخطوط:[٥٧]

«الشيخ ارسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري من قلعة جعبر ثم الدمشقي. وارسلان معناه بالتركية اسد كما أفصح به ابن صدقة في شرح رسالته كان رضي الله عنه زاهدا عابدا قدوة من أكابر مشايخ الشام وأعيانها العارفين صاحب

انفاس صادقة وكرامات خارقة معتقد أهل الشام من كل خاص وعام. وقد ظهر صيت كراماته في الآفاق والبلدان. واتفقت على ولايته واعتقاده جميع أهل الملل والنحل والاديان. ورسالته المشهورة المشتملة (الاصل المشملة) على الاسرار الالهية والمعارف الربانية مفصحة بعلو شأنه ورسوخ قدمه في علومه وعرفانه. وقد شرحها جمع من المحققين والعلماء العارفين منهم شيخنا واستاذنا قدوة العارفين الشيخ عبد الغني النابلسي أطال الله بقاه وأدام بالنفع ارتقاه. وقد صحب الشيخ ارسلان شيخه المعروف بأبي عامر وانتفع به وكان في ابتدائه ينشر الخشب ويقسم اجرته ثلثا لنفسه وثلثا يتصدق به وثلثا لكسوته. وكان يتعبد في مسجد صغير جوار بيته داخل باب توما وهو المعروف الان بمقامه وحفر بئره بيده وكان الناس يشربون منه لبركته ولم يزل الى الان. ومن حصل له وجع في جوفه أو الم وشرب منه عوفي باذن الله وهو مجرب. وفي هذا المكان كان ينشر الخشب وكلمه المنشار وفي المرة الثالثة تقطع ثلاث قطع وقال يا ارسلان ما لهذا خلقت. فترك العمل ويقال انه اعطي قطعة من المنشار الى السلطان نور الدين ولما احتضر اوصي ان تجعل في كفنه. وقد وسع نور الدين هذا المسجد وبني له منارة ووقف عليه... ثم أن الشيخ ارسلان خرج الى ظاهر باب توما الى مسجد خالد بن الوليد الذي كان يحاصر دمشق فيه وعمره وجلس يتعبد الله فيه الى أن مات.

ومن مناقبه انه لما شرع في بناية (أي بناء الجامع) أرسل إليه أبو البيان ذهبا لعمارته فقال الشيخ لرسوله أما يستحي شيخك

يبعث لي ذهبا وفي عباد الله من إذا أشار الى ما حوله صار ذهبا وفضة وأشار بيده فرأى الرسول الطين صار ذهبا وفضة .

ومن مناقبه ما ذكره ابن صدقه في شرحه على رسالة الشيخ ارسلان انه نزل يوما الى نهر يتوضأ ومعه خادمه فسأله الخادم كرامة فقال ان لله رجالا لو أمر أحدهم هذا النهر أن يجري ذهبا لجري فالتفت الخادم الى النهر فاذا هو ذهب .

وكان يوما عند الجسر الابيض يتوضأ وإذا بنصراني معه بغل عليه حمل خمر فوقع وليس أحد يحمل معه فصعد الشيخ وحمل معه فذهب النصراني الى دكان الخمار ففتح الحمل فإذا هو خل فبكى وقال والله ما كان إلا خمرا واني أعرف العلة ثم ربط البغل وعاد إلى الشيخ فوجده قد صلى الظهر فدخل عليه واسلم وصار من فقرايه .

وروي عن العارف محمود الشيباني انه رآه سائرا في الهوى (الصحيح الهواء). قال ورأيته غير مرة مارا على الماء . وحججت معه واجتمعت به في عرفه ثم رأيته في جميع المشاهد ثم فقدته . فلما جئت دمشق وجدته مقيما بها فسألت عنه فقالوا غاب عنا يوم عرفة . ورأيته جالسا **والوحش** يتمرغ على قدميه وهو مستغرق في حاله لا يلوي على **شيء**. . . ولما توفي روي عنه كرامات وفيه (أي وافية كثيرة) منها أن الطيور عكفت على جنازته ومنها ان السباع والوحوش حملت الريحان ووضعته على قبره ومنها أن الدعاء عند قبره مستجاب» .



(١) الباودي فخري: «مذكرات البارودي» دمشق **١٩٥١** جـ ١، ص ٥٨.

(٢) قساطلي نعمان: «كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» بيروت **١٨٧٩**، ص **٩٢**.

(٣) حول الصوفية راجع: «صليبا جميل»: «المعجم الفلسفي» المجلد الاول ص **٢٨٢**.. قاموس ماير الحديث. المجلد الثالث. مادة الصوفية.. فروخ عمر «تاريخ الفكر العربي الى ابن خلدون» بيروت **١٩٦٦**. **العوا** عادل: «التصوف» في: «الفكر الفلسفي في مائة سنة» بيروت **١٩٦٢**.

(٤) صباغ ليلى: «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني» دمشق **١٩٧٣**. ص **١٨٤**.

(٥) الطويل توفيق: «التصوف في مصر أبان العصر العثماني» القاهرة **١٩٤٦**. ص **١٠٩**.

(٦) حول الطرق الصوفية راجع: الزركلي خير الدين: «الاعلام» عدة مجلدات. كرد علي محمد: «خطط الشام» الجزء السادس، ص **٢٧٦**: حاضر العالم الاسلامي: تأليف لوثروب ستودار وترجمة عجاج نويهض: القاهرة **١٣٥٢** هـ، المجلد ٢، ص **٣٤٩**. الشطي محمل جميل: «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» دمشق **١٩٤٦**. مردم بك خليل: «أعيان القرن الثالث عشر» دمشق. دائرة المعارف الاسلامية عدة مجلدات. المحبي: «خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر» جـ ١ ص **٣٢**، جـ **٣** ص ٢٠٨.

(٧) من كتب أبو الهدي الصيادي المطبوعة: «كتاب الطريقة الرفاعية، تأليف الوارث النبوي... السيد محمد أبو الهدي افندي ثم الرفاعي الصيادي لا

زال ينسخ سواد الجهل ببيض الايادي آمين» مصر ١٣٢٥. و «كتاب العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية» تأليف الامام شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، الجامع بين الرياستين، السالك على سنن جده سيد الكونين. . .» اصطنبول ١٣٠١.

(٨) مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٢٣، ص ٢٠٦.

(٩) الشطي محمد جميل «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر». وفيه تفاصيل وافية قمنا بعد دراسة الكتاب بتصنيف الاعيان حسبما ورد في النص.

(١٠) قساطلي نعمان: «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» بيروت ١٨٧٩. ٨٧.

(١١) كرد علي محمد: «خطط الشام» دمشق ١٩٢٨. جـ ٦ ص ١٦٥.

(١٢) انظر وصفا حيا شيقا لهذه الكتاتيب في «مذكرات البارودي» ص ٨ - ١٠ وكان هناك عدد من النساء يعلمن القرآن الكريم ويطلق عليهن اسم «الخجا» وهي مستقاة من كلمة «خواجه» التركية ومعناها المعلم. وكانت «الفلقة» الوسيلة «التربوية» الوحيدة للتعليم. ويقول البارودي ان الكتاتيب لم تكن إلا زرائب لحبس الاطفال في النهار حتى ترتاح أمهاتهم منهم. أما معلمو الكتاتيب فكانوا من أشباه المتعلمين ممن أغلقت في وجوههم أبواب الرزق فتسلطوا على هذه الصنعة للارتزاق واشتهروا بالفظاظة والشراسة.

(١٣) كرد علي محمد «خطط الشام» ص ٨٩.

(١٤) «مذكرات البارودي» ص ١١.

(١٥) استقينا معظم المعلومات غير المشار إليها عن الجزائري من: الباني محمد سعيد: «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» مطبعة الحكومة العربية السورية، دمشق ١٩٢٠، ص ٧٣ - ٧٥.

(١٦) هذا ما رواه حفيده يوسف الغنيمي، اثناء أحد اللقاءات معه.

(١٧) من أمثال رفيق العظم، محمد كرد علي، فارس الخوري، عبد الرحمن الزهراوي، شكري العسلي، عبد الوهاب الانكليزي، عبد الرحمن الشهبندر، وسليم الجزائري، وغيرهم. القاسمي ظافر. «جمال الدين القاسمي» دمشق ١٩٦٥، ص ٤٤١. وهذا ما اكده محمد كرد علي في

كتابه «كنوز الاجداد»، دمشق ١٩٥٠ ص ٥ ـ ٤٦ .

(١٨) حول حياة الكواكبي راجع: قلعجي قدري: «عبد الرحمن الكواكبي»، بيروت ١٩٦٣ . عمارة محمد: «مسلمون ثوار» القاهرة ١٩٧٢ . موسى منير: «الفكر العربي في العصر الحديث» بيروت ١٩٧٣ .

(١٩) الكواكبي عبد الرحمن: «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». مصر ١٩٣١ . ص ٤٠ .

(٢٠) المصدر السابق نفسه.

(٢١) المصدر السابق نفسه، ص ١١ .

(٢٢) هذه رواية شاهد العيان فخري البارودي في مذكراته ص ٧٦. كما أيد الرواية الحصني محمد أديب: «منتخبات التواريخ لدمشق» جـ ٣ دمشق ١٩٣٧ .

(٢٢) كتب الدكتور صلاح الدين القاسمي في أوائل القرن العشرين، وهو من رجال النهضة العربية، مقالا في العدد ١٥٥ من المقتبس بعنوان «العلم والعامة» تضمن روحا يائسة بالعامة تتخللها روح الامل على الرغم من الظلام الدامس. كتب القاسمي موضحا وجهي العامة الثوري والخاشع المضيء والمظلم كما يلي:

«العامة في المشرق والمغرب هم الشطر الأكبر من كل ملة ونحلة، فإذا ألّمت بماله مساس بحاجياتها الادبية والمادية من الشؤون العامة **وأتيح** لها بعض الوقوف على شيء من حقوقها وواجباتها، اتت فيها قوة قلما نراه في المنَورين كما هو الحال في الامم الناهضة»، أي الامم التي سلكت طريق التطور البورجوازي.

«أما إذا لم يكن للعامة من قوة الفكر ما يحملها على البحث والنظر ـ ولو في المسائل البسيطة ـ كانت أرسالا (قطعانا) من الأغرار والأغمار، تقاد بايدي من لا أخلاق لهم ممن لا يبالون أعاشت الامم ام كتب عليها الفناء أبد الدهر ما دامت تتوفر لهم ملذوذاتهم في هذه الحياة. وكثيرا ما كانت العامة كذلك أيام كان القول الفصل في الامة للناشمين من كبرائها وامرائها والجاهلين والمتسودين من متعالميها، فحرّمت ما أحل الله من العناية بضروب العلوم الرياضية والكونية حتى الدينية كالتفسير والحديث، ونشأت عن ذلك للأمة مصائب وأوصاب. . . ولو قيّض

للعامة في المشرق من يعني بأمرها في التعليم والارشاد على ما وهبت من الغيرة الفطرية والحماسة الخارقة لرأينا منها خيرا كثيرا، يدلك على هذا ما نشهد منهم عندما تلمع في نفوسهم بوارق الحقيقة فانهم يهيجون وينضبون على اليوم الذي وسوس لهم فيه اولئك الطفحة والزعانف شياطين الدور الماضي . . . حتى قال العلماء: «العامي لا مذهب له، وانما مذهبه قول مفتيه».

ثم يشير القاسمي الى اثر العامة، او بالاصح قادتهم في الضغط الفكري على العلماء **واضطرار** العلماء «لاتخاذ التقية شعارا في أغلب الاحايين. ولكم مرة كتم العالم ما يجول بخاطره من الحقائق العلمية وشُرد الآخرون الى بلاد نائية . . .».

نقلا عن: الدكتور صلاح الدين القاسمي: «صفحات من تاريخ النهضة العربية في اوائل القرن العشرين». قدم له وحققه محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية ١٩٥٩. ص ٨٠.

(٢٣) موسى منير «الفكر العربي في العصر الحديث» ص ٣٤.

(٢٤) المصدر السابق نفسه - ص ٣١ وما يليها.

(٢٥) كتاب «مشهد الاحوال» في حوزة المكتبة الظاهرية بدمشق.

(٢٦) موسى منير «الفكر العربي في العصر الحديث» ص ٤٣ ما يليها.

(٢٧) هذه المعلومات استقيناها من: «أحمد حلمي العلاف»: «دمشق في مطلع القرن العشرين» دمشق ١٩٧٦. ص ١٢٤ - ١٢٩.

(٢٦) توتل فردينان: ص ٣٦ - ٣٧.

(٢٧) هذه المعلومات استقيناها من: «أحمد حلمي العلاف»: «دمشق في مطلع **القرن العشرين» المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٦٧٦.**

(٢٨) توتل. . .، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢٩) البديري أحمد (الحلاق): «حوادث دمشق اليومية» ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ، ١٧٤١ - ١٧٦٢ م، جمعها الشيخ أحمد البديري الحلاق، نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي. وقف على تحقيقها ونشرها دكتور أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٥٩. ص ٥٢ - ٥٣.

(٣٠) دهمان محمد أحمد: «جبل قاسيون» مكتب الدراسات الاسلامية في دمشق. دمشق ١٣٦٥ - ١٩٤٦. ص ٢.

(٣١) المصدر السابق نفسه ـ ص ٣. والحصني في كتابه «منتخبات التواريخ» يذكر ان جبل قاسيون «مستغاث الانبياء، وموضع الحاجات، والدعاء فيه مستجاب من غير شك ولا ارتياب» ص ٥. ويذكر الحصني اسماء مغائر قاسيون مثل مغارة الدم ومغارة الجوع، التي مات بها اربعون نبيا من الجوع. وعند باب المغارة قبران من قبور الصحابة. والدعاء مستجاب هناك. ص ٥.

أما كرد علي، أحد ممثلي الاتجاه الاسلامي المستنير فكتب في مجلة المجمع العلمي العربي ٦: ٣١٦، بأن قاسيون اعتبر في عهود الانحطاط موطن الانبياء... ورد عبارة «قاسيون والخرافات» مؤكدا ان «الاسلام بريء من هذه النزعات».

(٣٢) جاء في هذا الباب: «ومما يدل على فضل الشام وشرفها وان الله تعالى بارك فيها وما حولها قوله تعالى **بسم الله الرحمن الرحيم سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله**﴾. قال الحافظ السهيلي في كتابه التعريف والاعلام الذي باركنا حوله يعني الشام والشام بالسريانية الطيب فسميت بذلك لطيبها وخصبها». ابن عبد الرزاق الدمشقي: «حدايق الانعام في فضايل الشام» مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (عام ٧٣)، ص ٢١.

(٣٣) «فمنها ما أخرجه الامام السيوطي في جامعه الصغير من قوله ﷺ الشام صفوة الله في بلاده اليها يجتبي (أي يجتمع ـ ع. ح.) صفوته من عباده. فمن خرج من الشام الى غيرها فبسخطه ومن دخلها من غيرها فبرحمته». المصدر السابق نفسه، ص ٣٩.

(٣٤) بريك مخائيل الدمشقي: «تاريخ الشام ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢» عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسطنطين الباشا المخلصي. مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان ١٩٣٠. نقلا عن النسخة الموجودة في برلين تحت رقم ١٩٧٨٦. ص ٢٣.

(٣٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢.

(٣٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

(٣٧) المشرق ـ نيسان ـ حزيران ١٩٣٨، ص ٢٤٦.

(٣٨) المشرق - تشرين الاول - كانون الاول ١٩٣٨، ص ٤٨٠.

(٣٩) العلاف... ص ١٢٩ - ١٣٢.

(٤٠) «مذكرات البارودي» ص ٤٦ - ٥٠.

(٤١) مجلة العمران، السنة الثانية، العدد ٢٠.

(٤٢) كرد علي محمد «خطط الشام» جـ ٦، ص ٢٧٩.

(٤٣) مذكرات جرجي زيدان، نشرها د. صلاح الدين المنجد. بيروت ١٩٦٨. ص ٢١.

(٤٤) ملوك الجان السبعة الاحمر والاخضر والاصفر والازرق والابيض والاسود والابلق ومن أجلهم سموا «سبع ملوك» القماش الملون بهذه الالوان. انظر حاشية توتل. المشرق تشرين الثاني ١٩٣٨. ص ٤٩١.

(٤٥) كيال منير «الحمامات الدمشقية وتقاليدها» دمشق ١٩٦٤ ص ٢٢٣.

(٤٦) «مذكرات البارودي» ٥٠ ص ٤٤. وقد أشار البديري في مذكراته في منتصف القرن الثامن عشر اكثر من مرة الى السيران والسرور الذي يعم المشاركين فيه.

(٤٧) بريك ميخائيل الدمشقي «تاريخ الشام» ص ٦٣.

(٤٨) المشرق - كانون الثاني - آذار ١٩٣٩، ص ٥٥.

(٤٩) قساطلي... ص ٨٧.

(٥٠) المشرق - نيسان - حزيران - ١٩٣٨، ص ٢٥٦.

(٥١) عبد الكريم أحمد عزت حاشية ص ٧٣ من كتاب البديري نقلا عن المرادي جـ ٣ ص ٢١٤ والغزي جـ ٣ ص ١٣٠.

(٥٢) نخبة من سفرة البطريرك مخاريوس الحلبي بقلم ولده الشماس بولس عني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا، حريصا ١٩١٢، ص ١٥.

(٥٣) البديري أحمد «حواديث دمشق اليومية» ص ٩٠.

(٥٤) المصدر السابق نفسه.

(٥٥) المصدر السابق نفسه.

(٥٦) المصدر السابق نفسه، ص ٩٣.

(٥٧) ابن عبد الرزاق الدمشقي: «حدايق الانعام في فضايل الشام» مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ص ١٨٠ - ١٨٢.

الباب الثالث

تحركات العامة الدمشقية
١٧٠٠ - ١٨٣٠

القوى السياسية .

تحركات العامة (١٧٠٠ - ١٧٤٣) .

تحركات العامة أيام اسعد باشا العظم (١٧٤٣ - ١٧٥٧) .

تحركات العامة (١٧٥٧ - ١٨٣٠) .

الاهـداف والاشكال والنتـائج والمحتـوى العام لتحـركات العامة في اطار التطور الاجتماعي .

الفصل الاول

القوى السياسية

تألفت القوى السياسية في دمشق (مركز الولاية) من القوى التالية:

١ - المنظمات الحرفية:

التي لبست لبوس الطرق الصوفية، وكانت حتى منتصف القرن التاسع عشر احد مظاهر الاحتجاج، غير المباشر على نظام الحكم السائد. ولم يكن امام العامة في ظل تلك الظروف إلا التكتل لمقاومة استبداد الحاكم وبطانته وجنده واعوانه، او لتخفيف وطأة الاستبداد عن طريق التعاون وتأليف الجمعيات ذات الطابع الديني (الصوفي) والمحتوى السياسي والاجتماعي.

٢ - القوى الدينية:

أي رجال الدين وفي مقدمتهم القضاة ورجال الافتاء... وكان موقفهم، على العموم الى جانب العامة لتقويم المنكر باليد حينا وباللسان حينا آخر وبالقلب في معظم الاحيان.

٣ ـ السلطة الحاكمة:

المؤلفة من الوالي ونائبه (المتسلم) والدفتردار (المحاسب) وآغا الانكشارية، وهذه القوى تصارعت فيما بينها، وسعت احيانا للاعتماد على العامة من اجل الانتصار على خصمها في معركة الاستئثار بالسلطة وجمع الثروات بأساليب متنوعة استمت بها تلك الفترة.

اتصفت حياة هذه الفئة الحاكمة، ومعها قادة الانكشارية، بالاضطراب والقلق والتوتر وعقد النقص والخوف من العزل في كل لحظة. ولذا فانهم لم يكونوا يثقون بالمستقبل ولا يعرفون ما يخبئه لهم. ولهذا السبب اقتصر همهم الوحيد على إرهاق المحكومين بالمال في أقل ما يمكن من الوقت. وبما انهم، جميعا من الاعلى الى الادنى، اشتروا مراكزهم بالمال فكان عليهم ان يسعوا سعيا حثيثا لاسترجاع ما انفقوا أضعافاً مضاعفة قبل عزلهم المنتظر في كل سنة.

٤ ـ القوى العسكرية:

تنوعت القوى العسكرية، التي تواجدت في بلاد الشام في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وبالتحديد حتى مجيء الحملة المصرية سنة **١٨٣٢**. في البدء اهتمت الدولة العثمانية بالجنود الاقطاعيين المعروفين بالسباهية، أي الفرسان، الذين منحوا اقطاعات التيمار والزعامات، ثم اولت اهتمامها للانكشارية الذين جمعوا من بلاد الحرب عن طريق الخمس أولا ثم **الدفشرمة** (المصادرة) ثانياً. ولكن بعد انتهاء الفتوحات

توقفت المصادرة وقل عدد المجندين عن هذا الطريق. فأخذ قادة الجند في دمشق يقبلون في صفوفهم رجال العصابات وأرباب الحرف والفلاحين حتى يتقووا بهم، ويدعموا نفوذهم. وعرف هؤلاء الجند الداخلون في سلك الانكشارية باسم الانكشارية المحلية تمييزاً لها عن الانكشارية الآتية من استنبول.

وبهذا ظهرت في ولاية الشام ثلاث طوائف رئيسية للعسكر هي[1]:

١ - القابي قول أي عبيد السلطان، وهم انكشارية الدولة. وكانوا جنداً مشاة، ندر أن اتصلوا بالأهالي، وكانوا على العموم غرباء يقيمون في قلعة دمشق، ويملكون مفاتيح أبوابها.

٢ - الانكشارية اليرلية أو المحلية أو البلدية، وكانوا من الفرسان، وهم من ابناء الشام. والكلمة التركية YER تعني محل أي العسكر المحليين.

وقد انضم الى الانكشارية عدد من أهل الحرف والصناعات للاستفادة من امتيازاتها، وأقام هؤلاء خارج قلعة دمشق في حي الميدان جنوب دمشق وفي حي ساروجة القريب من القلعة. وبسبب هذا الواقع حملت الانكشارية المحلية أو يرلية (ينكجرية) صفتين متناقضتين:

١ - فهم بصفتهم جنوداً في دولة اقطاعية عسكرية ووريثي الانكشارية السابقين، اتسموا بحب السيطرة والاستثمار

واضطهاد الآخرين، وعاشوا في الأرض فساداً، وسرت اليهم عدوى الاستعلاء والاستبداد والطغيان، وكانوا على أهل دمشق وفلاحيها واينما حلوا حرباً وبلاء وشراً مستطيرا.

٢ ـ ولكنهم من جهة ثانية وبسبب ارتباطهم رحمياً واقتصادياً بالسكان المحليين وخوفاً على امتيازاتهم المهددة من ممثلي السلطة المركزية وقفوا الى جانب سكان المدينة في كثير من المحن لمقاومة القابي قول أو الوالي أو الجند الخاص. وبمعنى آخر وقفوا الى جانب العامة عندما كانوا ضعافاً أو مهددين من طوائف الجند الأخرى. ولكنهم سرعان ما يتنمرون على ابناء جلدتهم وينقلبون على حلفائهم المحليين عندما يعقد لهم النصر على منافسيهم. وكان على العامة أن تأخذ هذا الواقع بالحسبان...

٣ ـ الجند الخاص أو المرتزقة، وهم أخلاط من أقوام شتى استخدمهم الولاة لمقاومة القابي قول أحيانا والانكشارية اليرلية أحيانا أخرى. وكذلك لمساعدة الولاة في حراسة الحج الشامي. وهم على أنواع هي:

آ ـ اللاوند، وأصلهم بحارة، وهم من اخلاط شتى عرفوا بالفساد والافساد. وعندما حل فرقتهم السلطان تفرقوا في الولايات ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبيات.

ب ـ المغاربة، وهم من المشاة.

جـ ـ التفنكجية (ومشتقة من تفنكة أي بندقية)، وهم مشاة حاملو البنادق، ومعظمهم من الموصل أو بغداد.

د - الاكـراد والتركمـان، وهـم فرسـان، وكثيـرا مـا اطلق عليهم اسم الدالاتية.

ملأت أخبار الصراع الدامي المستمر بين القابي قول واليرلية تاريخ دمشق منذ منتصف القرن السابع عشـر حتى قيام الحكم المصري في عام ١٨٣٢. وعلى العموم وقف اليرلية للدفـاع عن أهالي دمشق ضد طغيان القابي قـول. ولم تستطع أيـة قوة منهـما ان تقضي على الأخرى نهائيـاً، لأن ولاة الشام أمسكـوا الميزان بين هاتين القوتين المتصارعتين. يميلون الى إحداهمـا كلما طغت الأخرى. كما انهم سعوا الى تكوين قوة عسكريـة ثالثـة خاصـة بهم من الجند المرتـزقة. ولحق العـامة الأذى الـرهيب من جراء هذا الصراع على السلطة والنفوذ[٢]. وبما ان اليرليـة هم اقرب هذه القوى العسكرية المتصارعة الى السكان فإن ضعفهم معناه ضعف العامة، التي اعتمدت على العلماء للدفاع عنها. واستمد هؤلاء قوتهم من العامة اولا، ومن مركزهم الديني ثـانيا، ومن صراع القوى (طوائف العسكر، الباشا، الدفتر دار) ثالثا.



تحركات العامة
١٧٠٠ - ١٧٤٣

اتصفت تحركات العامة في النصف الاول من القرن الثامن عشر بكثرتها وتعددها وعفويتها وسرعة انطفائها، ولا شك أن كثيراً منها لم يصل الينا، ولم تدونه الاقلام القليلة، التي عاش اصحابها في تلك الفترة، في الوقت الذي فقدت فيه السجلات الرسمية، وساد الظلام في كل مكان من ربوع الشام. وسنسعى في هذا البحث لجمع ما تمكنا جمعه عن تحركات العامة وتململاتها.

أول خبر استطعنا الوصول اليه هو مقاومة علماء دمشق في آذار ١٧٠٧ (١١١٨هـ) للوالي، الذي فرض الاموال على الاهالي. ولقمع هذا التحرك قام الوالي بنفي فريق من العلماء إلى قلعة صيدا، ولكن السلطان، الذي لعب ايضاً على حبال القوى المتصارعة، عفا عنهم بعد قليل. وهذا مما ادى الى دعم نفوذهم وتمرسهم في مقاومة الظلم. وكان الوالي قد اعتمد لمقاومة تحرك العلماء على الفرقة الاضافية من القابي قول، التي وصلت الى دمشق في أواخر ١٧٠٦، مما زاد من نفوذ القابيقول وتراجع الانكشارية اليرلية التي غابت عن المسرح لعدة سنوات

سادها الهدوء[٣].

عندما فرض الوالي في ١٧١٦ م / ١١٢٨ هـ ضرائب مجحفة ثار الأهالي، وأيدهم هذه المرة القابي قول، الذين هاجموا سرايا الوالي للاحتجاج على الضرائب. ونجد هنا ـ وهذا من الحالات النادرة ـ وقوف القابي قول الى جانب العامة. ولعل السبب ـ كما ذكر رافق ـ هو بقاء القابي قول في دمشق مدة نصف قرن، فأصبح لهم اتصال ومصالح مع الاهالي[٤].

ساد الهدوء دمشق فترة من الزمن الى أن عقدت ولاية الشام لعثمان باشا أبي طوق في المرة الاولى (١٧١٩ ـ ١٧٢١) وفي المرة الثانية (١٧٢٣ ـ ١٧٢٥)، وكان كما يصفه بريك «صاحب علوم ويميل للنصارى. ولكن كان ظالم جائر وفي زمانه كثرت العوانية[*] وصار جور على الرعايا[٥]». وكان عثمان باشا ـ شأن سائر الولاة ـ معروفاً بابتزازه للاموال بمساعدة العوانية، ويصف المؤرخ المعاصر للاحداث ابن جمعة الحالة في سنة ١١٣٦ هـ = ١٧٢٥ م كما يلي:

«.. وفي هذه الايام كان الظلم الشديد الزايد وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرورها فاعلة مفعولة. وتمادى هذا الحال وقل المسعف حتى بالقال[*]... أما أهل البلد لم يبق لهم جلد وحارت عقول

(*) العوانية: الذين يعينون الحاكم على ظلمه.

(*) حتى بالقال: حتى بالقول.. حارت عقول المحلات من قول هات هات اشارة إلى كثرة الضرائب المفروضة على الدكاكين. ذياب: ذئاب، فقد شبه الطبقة الحاكمة العثمانية **بالذئاب**.

المحلات، من قول هات هات، وهم رعايا بادية بين ذياب *
عارية[٥]».

دفع هذا الظلم أصحاب الطريقة الصوفية الشيبانية (التونسية) الى مقاومة الظالمين، فاعتقلهم الوالي أبو طوق، فما كان من المفتي الحنفي محمد بن خليل البكري الصديقي الا أن أنجد المظلومين وقاد المقاومة ضد أبي طوق في عام ١٧٢٥ م مستغلا فرصة غيابه في صيدا[٦]. وبعد عزل الوالي سنة ١١٣٧ هـ «قام» حسب تعبير ابن جمعة «ساداتنا وقادتنا وموالينا الكرام، دام الله تعالى النفع بهم وقبضوا على العوانية فمنهم من قتل ومنهم من صلب. . .» وتم ذلك برئاسة قطب السادة البكرية.

أما المعاصر المسيحي الدمشقي فكان اكثر تفصيلا للاحداث من ابن جمعة، إذ كتب بريك: «قام الدمشقيون على العوانية ونهبوا بيوتهم وقتلوا شيخ الأرض والشوباصي ونهبوا بيت اليهودي الصراف ابن جوبان ادغلي ونهبوا بيت ابراهيم عصاعيصه ابن القطة واستقامت دمشق مدة عدة أيام غير موفقة امورها»[٧]. وواضح ان المقتولين هم من اتباع الوالي الشره ابي طوق او ممن ساعده على الاستثمار من الصيارفة اليهود. وهنا نلاحظ ان احدى الطرق الصوفية، وهي الشيبانية، قادت نضال العامة ضد الظلم وتمكنت من النصر. وهذا يؤ يد ان للطرق الصوفية جوانب ايجابية ثورية، حسب مفاهيم ذلك الزمن، الى جانب جوانبها المتخلفة الاخرى.

كانت معظم تحركات العامة في ذلك الزمن تخمد مع ذهاب الوالي القديم ومجيء الوالي الجديد. فبعد ان بقيت دمشق في يد الثائرين مدة ثلاثة أشهر عم الهدوء مع تعيين اسماعيل باشا العظم والياً على الشام في آذار ١٧٢٥، وهو أول والي من هذه الاسرة. اتصف حكم اسماعيل باشا العظم (١٧٢٥ - ١٧٣٠) باحتكاره بيع المواد الغذائية وخاصة اللحوم. واستفاد من ذلك ببيعه المواشي التي يملكها بالاسعار التي يريدها[٨]، واعتمد لتدعيم سلطته على قوات من المغاربة، ونجح في منع الثورة ضده، في وقت كانت النفوس فيه معبأة للتحرك منذ أيام سلفه أبي طوق. وكان ان أرضى الناس بإرجاع المنفيين الى استنبول، واستقر حكمه في المدينة، ولكنه فشل في نهاية حكمه في حماية قافلة الحج الشامي عندما هاجمها بدو بني حرب[٩].

في ٢٨ أيلول ١٧٣٠ اندلعت ثورة العامة في استنبول احتجاجاً على سياسة البذخ والإسراف وبناء القصور واقامة حدائق للطبقة الحاكمة وصرف الأموال دون طائل. وكانت الهزائم التي مني بها الجيش العثماني في فارس سبباً مباشراً لقيام الانتفاضة بقيادة بائع ثياب مستعملة الباني الأصل اسمه علي باترونا. وأيد الانكشارية الانتفاضة ورضي عنها العلماء (علماء الدين)، وهذا مما قوى الانتفاضة ومكنها من السيطرة على استنبول. ولكن الثائرين لم يكن لهم منهاج يتبعونه بعد الانتفاضة، وتوجهت نقمتهم ضد معاوني السلطان أحمد، وفي مقدمتهم الصدر الأعظم إبراهيم باشا. وهذا مما أجبر السلطان علي تسليم وزرائه إلى الثائرين، فأعدموهم، وسرعان ما عزل

السلطان أحمد في ٣ تشرين الأول ١٧٣٠، وأعلن محمود الأول سلطاناً، الذي دبر مؤامرة ناجحة للقضاء على علي باترونا وأعوانه المخلصين، وقضى بذلك على الثورة[١٠].

عندما وصلت أخبار انتفاضة استنبول إلى طرابلس واللاذقية اندلعت أيضا انتفاضة مشابهة بسبب ابتزاز ولاة آل العظم للاموال. أما في دمشق، فالهدوء بقي سائداً، ولم تتحرك العامة، التي كانت من جهة منهكة بعد انتفاضة ١٧٢٥ ومتربصة ومنتظرة نتيجة القتال بين القابي قول والاليرلية. كما أن اسماعيل باشا العظم والي الشام استفاد من العبر من اسلافه وعلى الرغم من ابتزازه للاموال إلا أنه لم يكن بخيلا مقتراً بل سعى لاسترضاء زعماء العامة وتجنب تحركاتهم. فبنى مدرسة تقام فيها حلقات الذكر الصوفية. وأمر ببناء عدد من الحمامات العامة والمقاهي والدكاكين. كما تحالف مع عائلة السفرجلاني صاحبة الطريقة الخلوتية الصوفية. ويبدو أن هذا التحالف لم يكن بعيداً عن النشاطات التجارية والاحتكار. ولتدعيم مواقعه بين الأشراف تزوج من ابنة سعيد البكري وأمن لاولاده، صلة بالنسب النبوي[١١].

وفي اثناء ولاية اسماعيل باشا استعاد اليرلية بعض نشاطهم، وتحالفوا مع الاشراف ضد القابي قول وجماعة الوالي، فعند غياب اسماعيل باشا ١٧٢٦ عاقب كاخيا الوالي أحد اللحامين من الاشراف كان قد خرق انظمة الاحتكار المثبتة وسجن المخالفين. وسرعان ما أغلقت البلد احتجاجاً وانضم

اليرلية إلى العامة وهاجموا المحكمة، مما اضطر سلطات الوالي إلى اطلاق سراح المعتقلين والغاء العقوبات المفروضة(١٢).

ثم عين والياً على دمشق عبد الله باشا الأيدينلي (١٧٣١ - ١٧٣٤)، وكان كما كتب بريك «مخيفاً وطاعت له أولاد دمشق وخاف منه الجميع. وفي زمانه صار غلاء شديد ثم فناء (وباء الطاعون) وموت كثير. وكانت حركة بيع وشراء... ولا أحد يتطاول على أحد»(١٣).

في هذه الاثناء استعاد آل العظم نفوذهم في استنبول عن طريق وكيلهم خليل افندي، الذي ضعف نفوذه أثر انتفاضة استنبول ١٧٣٠، ثم استرجع سريعاً هذا النفوذ ولهذا عين سليمان باشا العظم والياً على الشام (١٧٣٤ - ١٧٣٨)(١٤)، فسعى لتوطيد حكمه بالقضاء على عدد من قطاع الطرق وفرض هيبته وتودد إلى أهالي دمشق(١٥)، وفي الوقت نفسه الذي جال وصال في الريف لجمع الأموال ساعياً إلى إرضاء المدينة على حساب الريف.

وجاء حسين باشا البستنجي (١٧٣٩)، فكان كما كتب بريك: «حاكما جائراً وزاد الظلم بدمشق وجار على الرعايا ثم على العال والدون حتى إلى العلما والأكابر والفقراء فقامت عليه أولاد دمشق»(١٦) وكان السبب المباشر للانتفاضة الغاء حسين باشا لبعض الاحتفالات الصوفية «كتهليلة الأموي الشريف والمولد الشريف أو غير ذلك من الأمور التي تقشعر منها الأبدان»(١٦). وهذا مما أثار حفيظة المشايخ وأصحاب الطرق

الصوفية، فاحتجوا وأيدتهم العامة الناقمة واليرلية الراغبة في استعادة نفوذها وتوثيق صلتها بالاهالي. كما أن القابي قول لم يؤيد الوالي بل وقف ضده بسبب اعتماده على جنود من المغاربة والدالاتية. وربما وجد القابي قول أن قضية الوالي خاسرة ولا أمل في تأييده والوقوف في وجه امواج العامة الصاخبة(١٧). وهكذا تكون حلف من العامة واليرلية ووجاق القبيقول ضد الوالي وجنده المغاربة، وتمكنوا من طردهم وخربوا زاويتهم وطردوا الوالي من دمشق بذل عظيم(١٨).

وجاء الوالي الجديد عثمان باشا المحصل (١٧٤٠) ليجد المدينة في يد اليرلية والعامة، فسار معهم في مطالبهم باخراج القابي قول، ومعظمهم من الموصل وبغداد، من دمشق بعد مقتل بعضهم، واضطر القابي قول، بعد معارك دامية وقتال في الشوارع، إلى الرضوخ، فانسحب البعض، وبقي البعض الآخر بعد تغيير زيه، مواطناً عادياً(١٩)، وصار، كما ذكر بريك: «رعية وهديت دمشق»(٢٠). أما البديري فيصف إخراج القبيقول بالاصلاح، «وقد قل (بعد خروجهم) الشر من دمشق الشام واصطلحت أحوال الناس»(٢١).

نتيجة لهذه الحركة، التي أدت أولا إلى طرد الجند المغاربة ومن ثم القابي قول، ضعف نفوذ الوالي وازداد نفوذ اليرلية المتحالفين مع العامة. ولكن هؤلاء اليرلية، الذين سيطروا الآن (١٧٤٠) على قلعة دمشق وأبواب المدينة وأسوارها. صالوا وجالوا، وسرعان ما تكونت عندهم نفسية الطبقة

الحاكمة الظالمة المستثمرة المستبدة، التي لا تسعى إلا إلى ابتزاز الأموال والسكر والعربدة والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم. والواقع أن سائر الحركات الجماهيرية تفرز اناساً أشقياء يستغلون حركة الجماهير ـ وهم منها ـ فيخونون رفاقهم ويطعنونهم في الظهر ويتطلعون لتسلق سلم الحكم واستثمار من ساروا معهم وأوصلوهم إلى مراكز السلطة، وهذه حال اليرلية ومن دخل في صفوفهم من العامة وبخاصة «العامة الرثة» قياساً على «البروليتاريا الرثة»، التي أشار إليها ماركس فيما بعد.

وكان الولاة يستخدمون أحياناً الاشقياء من الانكشارية (اليرلية) لصالحهم. وعندما يزداد خطرهم يسعون للقضاء عليهم والتقرب من العامة. وهذا ما فعله سليمان باشا عندما طلب من رؤساء اليرلية الميدان تسليمه «ستة عشر رجلا من الأشقياء الذين يسمونهم باصطلاحهم زرباوات فارسلوا يقولون له: نحن لا نقدر على إلقاء القبض عليهم فدونك وإياهم. **فبالحال**... أعطي اسماءهم للدلال، فأمره أن ينادي في شوارع الشام أن هؤلاء الستة عشر دمهم مهدور، ولا جناح على من قتلهم وغيرهم في أمان من سليمان باشا. ففرحت الناس أجمعين، لأنهم كانوا من المفسدين»(٢٢).

بعد انتصار اليرلية قام زعماؤهم وتحالفوا مع تجار الحبوب وأصحاب المطاحن والمخابز ضد خبز العامة، فرفعوا الأسعار، وحققوا أرباحاً هائلة. وجاء سليمان باشا العظم في ولايته

الثانية ١٧٤١ ـ ١٧٤٤ وأنضم إلى هذا الحلف الاحتكاري ولكن العامة سرعان ما ثارت على الغلاء وهاجمت الأفران والمحكمة بسبب مسؤولية القاضي وقيامه بدور المحتسب ومراقبة الأسعار. وهنا تراجع سليمان باشا «وأرسل **يشدد** على الطحانة والخبازة ويهددهم ويخوفهم فحالا وجد الخبز وتحسن وكسد بعدما كانت غالب الناس تبات بلا خبز»[٢٣]. كما سعى إلى التخفيف من نقمة العامة بالغائه بعض المظالم على أصحاب الحرف والصنائع والحارات، كما تودد إلى العلماء واسترضى الفقراء تجنباً لثورتهم[٢٤]. وفي الوقت نفسه كان متسلمه (نائبه) يصول ويجول ممعناً في اضطهاد العامة واستثمارها باسم سيده[٢٥].

تحركات العامة أيام اسعد باشا العظم
١٧٤٣ - ١٧٥٧

خلف سليمان باشا في ولاية الشام ابن أخيه اسعد باشا بن إسماعيل العظم، الذي استمر حكمه من ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ إلى ١٧٥٧ م، وهي أطول مدة يتولاه وال على الشام في العهد العثماني، وهو من أشهر ولاة الاسرة العظمية وقد ولي أمور حماة مدة من الزمن وجمع ثروة طائلة فيها، ثم عين والياً على دمشق في ظروف صعبة تميزت بما يلي:

١ - مصادرة العثمانيين لأملاك عمه سليمان باشا وتنكيلهم بنسائه وأقاربه حتى يقرون بما خبأه سليمان باشا من الثروة في السقوف والدهاليز وجدران القصور. وتظاهر أسعد باشا بعدم الاكتراث لهذه المصادرة والإهانة التي لحقت بحريم عمه[٢٧].

٢ - ازدياد نفوذ وتسلط الانكشارية المحلية (اليرلية)، بعد انتصارهم على الفرق العسكرية الاخرى واستيلائهم على أبواب دمشق وقلعتها. وزاد من اعتدادهم بسلطتهم انهم قالوا: «لو جاءنا عشر باشاوات ومعهم السلطان ما حسبنا لهم حساب ولشرطنا ذنبهم بالطبنجات»[٢٨].

٣ - ترسخ نفوذ دفتر دار دمشق فتحي الدفتري المدعوم من الكزلار آغا في استنبول والمتحالف منذ أيام سليمان باشا مع الانكشارية اليرلية لمقاومة نفوذ آل العظم والوصول إلى منصب الوالي.

وعندما عين أسعد باشا العظم كانت بطانة فتحي الدفتري قابضة على ناصية الامور في دمشق وهم: «متشاهرون بالفساد والفسوق وشرب الخمور وهتك الحرمات»[٢٩]. . ويصفه البديري بأنه: «كان ظلوماً غشوماً بغيضاً لأهل الشام، يريد لهم الجور والظلم، لا يراعي الكبار ولا الصغار، إلا ناس من الأشرار، وهم من حزب الشيطان، قد اتخذهم عدة لكل عدوان»[٣٠]. وهذا الجو أفسح بالطبع مجالا رحباً لأزدهار التزرب في صفوف اليرلية الانكشارية واعاثتهم في الارض فساداً وخراباً.

عندما قدم أسعد باشا إلى دمشق اضطر الى السكوت والرضوخ للانكشارية (اليرلية)، وللدفتردار فتحي، الذي نظم عملية مصادرة اموال سليمان باشا، وبسبب ضعف اسعد باشا في البدء احتقرته اليرلية المسيطرة واطلقوا عليه اسم «سعدية خانم» أو «سعدية قاضين».

ولكن تريث أسعد باشا لم يدم طويلا، إذ استغل استياء العامة من جشع فتحي الدفتري وسلوك اليرلية المتحالفة معه وأراد أن يضرب العامة بهم حتى يتمكن من ازاحتهم وتم له ما أراد.

في نهار الاثنين الحادي والعشرين من جمادي الثانية من سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م تظاهرت العامة بسبب قلة الخبز وغلاء الاسعار وهاجمت سرايا الحكومة. فخرج اليهم اسعد باشا قائلا إن الامر في يد القاضي وعليكم التوجه بالشكوى اليه، فتجمهروا أمام باب المحكمة، مكان اقامة القاضي، وهم يصرخون ويحتجون. ولكن جماعة القاضي خرجت وطردتهم بالعصي، فهاجت العامة ورجمتهم بالحجارة، فأمر القاضي أعوانه ان يضربوهم بالبارود، فجرحوا عدداً من العامة وقتلوا رجلا شريفاً[٣١] (أي ممن ينحدرون من نسل الرسول)، وهذا دليل على مشاركة الاشراف وقيادتهم لتحركات العامة في دمشق كما كان الأمر في حلب.

أدى سلوك القاضي هذا الى ازدياد هياج العامة فأغاروا، بمساعدة بعض الانكشارية المحلية، المرتبطين مصلحياً وعائلياً بسكان دمشق، على المحكمة وحرقوا بابها، ونهبوها، وقتلوا عدداً من أعوان القاضي. أما القاضي فقد هرب من فوق الاسطحة الى مكان أمين. وفي هذه الاثناء توتر الجو و «سكرت البلد»، أي أغلقت المخازن أبوابها وامتنعت عن البيع أما احتجاجاً أو خوفاً من النهب والفوضى. ولكن بعض أغاوات (قادة) الانكشارية منعوا العامة من الاستمرار في هجومهم وسعوا الى ارضاء القاضي وإرجاعه الى المحكمة، دون ان تحل مشكلة الغلاء المستفحل بسبب الاحتكار أولا وقلة الامطار ثانياً و «عظمت امور السفهة والاشرار»[٣٢].

هذه الاحوال ساعدت أسعد باشا على أن يضرب ضربته

القاضية صد الانكشارية (اليرلية). فاستقدم فرقاً من الدالاتية والمرتزقة، واحتل القلعة على حين غرة، وطرد منها اليرلية في **١١٥٩ / ١١٤٦**، وبعد أن احتل سوق ساروجة حصن اليرلية الاضعف اتجه صوب الحصن الامنع وهو الميدان. **وكان اليرلية في** الميدان قد نصبوا المتاريس في باب الجابية لمنع جند اسعد باشا الدالاتية من التقدم باتجاه الميدان مقر إقامتهم الرئيسي. ولكن قوة أسعد باشا الجديدة وامتلاكه لعدد من المدافع التي هدم بها سوق ساروجة ووجهها الآن صوب الميدان، وانعزال اليرلية عن العامة وكره هؤلاء لهم بعد أن دب الفساد في صفوفهم ونهبوا الاموال واعتدوا على الأعراض وسبو الدين[٣٣] وغير ذلك من الفظايع، كل هذه الامور ادت الى هزيمة اليرلية بسرعة واحتلال جند أسعد باشا الميدان ونهبوه وقتلوا عدداً من الاشقياء (الزرباوات). «فسكنت بعد ذلك الشام، وصارت كقدح لبن، وصارت الناس في أمن وأمان، وسترت الأعراض»[٣٤].

ولإقامة التوازن بين القوى العسكرية بصورة أفضل طلب أسعد باشا من السلطان إعادة وجاق (فرقة) القابي قول المطرودة من دمشق عام ١٧٤٠ الى القلعة، و«دخلت بموكب عظيم، سرت أناساً وأكمدت أناساً». وقويت كما يقول البديري «دولة القبقول في دمشق الشام وبرموا اللفات، ورجعت دولتهم أحسن مما كانت»[٣٥].

بعد أن أصبحت تحت امرة أسعد باشا قوى كافية من الدالاتية والقابي قول وبعد أن ضعفت الاليرية حلفاء الدفتردار

فتحي توجه اسعد باشا إليه وتمكن بسهولة من استدراجه الى قصره وقتله ومصادرة أمواله وأموال اعوانه واضطهادهم واسترضاء العاصمة بقسم من الاموال المصادرة(٣٦).

إن اعتماد اسعد باشا على لعبة توازن القوى العسكرية يظهر واضحاً من تقربه مرة ثانية من زعماء انكشارية الشام، بعد أن زال خطرهم، وامسى الاعتماد النسبي عليهم ضرورياً للوقوف في وجه تمرد الدالاتية أو القابي قول.

بعد أن استتب الأمر لأسعد باشا في ولاية الشام وبعد أن رشا رجال السلطة في استنبول وضمن وصول فرمان الولاية سنوياً له شرع في جمع الثروة بمختلف الوسائل من الريف والمدينة عن طريق الضرائب والقتل والسلب والمصادرة واخذ الرشوة وغير ذلك. وكان من جملة الوسائل، التي استغلها اسعد باشا للاثراء تجارة الحبوب. كما استغل القحط بسبب الجراد وغلاء الاسعار بسبب احتكار التجار وملأ خزائنه بالمال. ومع ان العامة ومن ورائها العلماء أيدت في البدء اسعد باشا في القضاء على الفوضى والاشقياء وتسلط فتحي الدفتري وأعوانه، إلا أن الباشا قلب لها، شأنه شأن كل باشا، ظهر المجن وتحالف مع بائعي القمح ومع شيخ الطحانة، وأتى بالقمح الخاص به من املاكه في حماه وباعه في الشام على السعر الواقع أي المرتفع بسبب الاحتكار. وعندما قدم الى دمشق القمح الجديد من موسم ١٧٤٧ هبط سعر رطل الخبز بدمشق من ستة مصاري الى خمسة مصاري وبعد يومين نزل

الى ثلاثة مصازي. وقالت العامة: «يا رعية قد انعم عليكم رب البرية، رطل الخبز بثلاثة مصاري»(٣٧). ولندع البديري يصف لنا ما تم من امر الخبز وسياسة تجار الحبوب وتحالفهم مع السلطة. قال البديري: «وثاني يوم اشتغل البرطيل والرشوة للمتسلم موسى كيخية وغيره من أهل الظلم، فحالا سمعوا منادياً ينادي لا أحد يبيع رطل الخبز بأقل من أربعة مصاري». أي ان بائعي القمح ومحتكريه بالتعاون مع شيخ الطحانة واسعد باشا، الراغب في «أن يبيع قمحه» بسعر مرتفع تحالفوا لإبقاء السعر مرتفعاً عن طريق استخدام سلطة الدولة. ولم يتجاسر أحد على بيع القمح بأقل من ذلك إلا خفية خوفاً من العقاب. ويقول البديري: «وقد ضاق الأمر على الفقراء والمساكين. وكان كل من تحرك من العامة ربطوه بحبل طويل، وجروه إما الى العذاب وإما الى القتل وسلب المال والعرض. والأمر لله العلي الكبير»(٣٨).

ومعنى ذلك ان العامة تحركت في عام ١٧٤٧ ضد الغلاء وضد المحافظة على أسعار القمح المرتفعة لصالح الباشا وشيخ الطحانة وبائعي القمح، على الرغم من توفر القمح وازدياد العرض، المؤدي الى رخص القمح. ولكن السلطة الاقطاعية الاستبدادية في عاصمة ولاية الشام استخدمت اشنع وسائل التعذيب واحط الاساليب قذارة لتمنع العامة من التحرك والاحتجاج على غلاء خبزها.

ان مشكلة الغلاء واحتكار الحبوب والتلاعب بالرغيف كانت الشغل الشاغل للعامة المنهكة المعذبة البائسة، وهي التي

كانت تدفع الثمن في كل مرة: في سنوات القحط ترتفع أسعار الحبوب، ومع مجيء الجراد ترتفع أسعار الحبوب، وعندما تهطل الأمطار يحتكر التجار وحلفاؤهم في السلطة من الوالي إلى المتسلم والدفتردار والمفتي وقادة العسكر الحبوب ويفرضون الأسعار التي يريدونها. ولذا تثور العامة ويحصل الصدام. وكانت العامة على الرغم من عيشها في هذا الجو المقيت الموبوء تستبشر بالخير كلما دخل عام جديد. ولندع الآن مؤرخ دمشق البديري يحدثنا عن سنة ١١٦٢ هـ الموافق بدايتها ٢٢ كانون الأول ١٧٤٨ م قال البديري(٣٩):

«ثم دخلت سنة اثنين وستين ومائة بعد الألف، وكانت غرة محرمها يوم السبت. والمرجو من الله تبارك وتعالى أن تكون سنة مباركة علينا وعلى جميع إخواننا المسلمين. والآن الناس في شدة وحصر زائد من كثرة الغلاء والشدائد. ولكن استبشرت الناس بالخير بكثرة الأمطار التي هطلت بأول هذا العام . . .».

ومع استبشار الناس بالخير فان الطمأنينة لم تسكن قلوبهم قط. ففي آذار ١٧٤٨ «كثر الغلاء وزاد البلاء، فالخبز رطله بست مصاري وهو الدون، والوسط بثمانية مصاري، والمليح باثنا عشر مصرية، واوقية السمن بسبع مصاري، وأوقية الزيت بمصريتين، واللحم رطله بست وثلاثين مصرية. وبنات الهوى دائرات بالليل والنهار، والناس في كرب عظيم»(٤٠).

وهذا الغلاء يرجع سببه إلى التجار والحكام المحتكرين للقمح والراغبين في رفع أسعاره وتحقيق الأرباح على حساب

عامة الشعب ووصل الأمر في منتصف شهر أيار ١٧٤٨ «أن حامد أفندي بن العمادي مفتي دمشق الشام كان قد خزن القمح مثل الأكابر والأعيان الذين لا يخافون الرحيم الرحمن، وأن الكيالة جاءوا اليه وقالوا: نبيع الحنطة كل غرارة بخمسين قرشاً، فقال لهم: مهلا فلعل الثمن يزيد». ويعلق البديري الرجل المتصوف الرقيق الحال على ذلك قائلا: «فإذا كان مفتي المسلمين ما عنده شفقة على خلق الله فلا تعتب على غيره»[٤١].

لقد كان المفتي على حق، من وجهة نظر جيبه، فان الأسعار في ارتفاع مستمر في سائر أنحاء بلاد الشام. «وقد زاد الغلاء والبلاء والقهر». ص (١٢٨) وكان على رأس هذا البلاء أسعد باشا العظم والي دمشق الشام الذي اشترى «أملاكاً كثيرة من دور وبساتين وطواحين وغير ذلك» وسعى بالقوة المسلحة الى إبقاء الأسعار على حالها. وعلى الرغم من أن الشعير الجديد نزل في الثامن من جمادي الثانية فان منادي الباشا أمر أن تبقى الأسعار مرتفعة، «ولم تحصل للفقراء نتيجة، فكل يوم بسعر جديد، والله يفعل ما يريد»[٤٢].

«وفي يوم الأربعاء حادي عشر جمادي الثانية» ١١٦٢ / أوائل صيف ١٧٤٨ «نزل القمح الجديد، وبيعت غرارة القمح بخمسة وأربعين قرشاً، وكانت قبل نزوله باثنين وخمسين». ومعنى ذلك أن الأسعار لا تزال مرتفعة واحتكار الحبوب لا يزال قائماً. وهذا مما أثار حفيظة العامة ودفعها للتظاهر وفرض

الأسعار المقبولة بقوة التحرك الجماهيري، «فصاحت العامة واستغاثت، ونهبوا بعض الأفران، ثم صاروا ينادون في الأسواق رطل الخبز بثلاثة مصاري وبأربعة مصاري»[٤٣].

لقد انتصرت العامة، مؤقتاً، وأجبرت الأفران على بيع الخبز الرخيص. فبعد أن كان رطل الخبز يباع من ٦ إلى ١٢ مصرية بيع الآن نتيجة الانتفاضة الشعبية من ٣ إلى ٤ مصاري. ولاقي هذا **الأمر** التأييد الكامل من الأهالي وغمرت البهجة القلوب «وفرحت أهل البلد كثيراً، فزينت البلد». ولكن المحتكرين للحبوب وفي مقدمتهم الوالي لم يرق لهم هذا الأمر. «فلما بلغه هذا الخبر غضب غضباً شديداً، وأمر الحاج محمد تفكجي باشي أن يأخذ أعوانه الفساق ويدور في البلد والأسواق، وأن ينبه على الخبازين أن لا يبيعوا رطل الخبز إلاّ بستة مصاري والأسود بأربعة، وكل من خالف يأكل فلقة». ولكن تدفق قمح الموسم وازدياد العرض وخوف الحكام من انتفاضة العامة أدى إلى هبوط سعر القمح بعد ستة أيام «فبيع رطل الخبز بثلاثة مصاري، وبدت تزول الشدة بإذن الله تعالى»[٤].

يصف لنا البديري، مؤرخ دمشق في منتصف القرن الثامن عشر، الحالة في بلاد الشام معبراً عن شعوره الطبقي الفطري، وهو حلاق من الطبقة المعدومة المسحوقة. قال البديري يصف الحالة في تشرين الثاني ١٧٥١ بما يلي:

«ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف نهار **السبت**،

فاستبشرت الناس بقدومها، حيث ليلة الهلة هطل مطر غزير **وفرحوا** وزرعوا وفلحوا، وبدت ترخص الأسعار، غير أنه ما فيه من يفتش على الخلق بالرحمة والرأفة من الحكام والوجوه، والخزانة كثيرون والأكابر ساكتون والحكام يأكلون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وانظر غلاء الأسعار: فقد أقبلت هذه السنة بخيراتها وبركاتها، ورطل الخبز بأربع مصاري... وعلى هذا فقس. فالأغنياء منعمون والفقراء صابرون»(٤٥).

الفصل الرابع

تحركات العامة
١٧٥٧ ـ ١٨٣٠

في كانون الثاني ١٧٥٧/ ١١٧٠ عزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام، وعين والياً على حلب، وقد جرى هذا العزل بعد شهور واحد من ورود هدايا السلطان وفرمان التفخيم لأسعد باشا. وكان عزله عن دمشق ونقله إلى حلب مقدمة لقتله ومصادرة أمواله الطائلة، مما أحدث تخلخلاً في سعر العملة بسبب هذا الفيض الهائل من النقود.

بعد ذهاب أسعد باشا حدث تخلخل في ميزان القوى العسكرية في ولاية دمشق، فاشتعلت نار الفتنة من جديد بين الانكشارية المحلية (اليرلية) وانكشارية الدولة (قابي قول). وقد وقفت الدالاتية والأكراد والمواصلة (جنود من الموصل) إلى جانب القابي قولي، في حين أيدت العامة الانكشارية المحلية، طالما أن هذه تعبر عن بعض مصالح العامة ولا تقوم بأعمال الشقاوة والزربنة ضد العامة. هنا نجد التناقض، الذي أشرنا إليه، في العلاقة بين العامة والانكشارية اليرلية. فالعامة تقف ضد أشقياء اليرلية وأعمال السلب والنهب والزربنة التي يقومون بها وينشرون الفوضى والفساد في سائر الأنحاء.

والعامة عندما تثور كانت مضطرة إلى طلب مساعدة اليرلية لها في صراعها ضد المظالم. ولكن أقساماً من اليرلية سرعان ما كانت تخون العامة، وهي، في الأصل، **متحدرة** منها، وتشرع في السلب والنهب والرشوة ونشر الفوضى والاضطراب. وتتنافس مع القابي قول والجنود المرتزقة الآخرين في ابتزاز الأموال بمختلف الوسائل. ولذلك فإن العامة كانت تقف، غالباً، على الحياد في أثناء صراع القابي قول مع اليرلية، وهي التي كانت تدفع الثمن نتيجة ما يحل بالبلد من الخراب والتدمير والفوضى والسلب والنهب.

إغتنمت العامة فرصة دخول الوالي الجديد حسين باشا، وطالبت بمكافحة الغلاء والضرب على أيدي رؤوساء الانكشارية اليرلية والقضاء على جورهم. وعندما جاءت الافندية والأعيان في اليوم الثاني لتهنئة الباشا بمنصبه الجديد اعترضتهم العامة «بالصراخ والضجيج وصاحوا عليهم وقالوا: إرجعوا لا بارك الله فيكم، أنتم منافقون وتعينوا الحكام على ظلم الفقراء والمساكين، واكثروا من سبهم وشتمهم، ورجموهم بالأحجار»[٤٦].

وقد أجبر تظاهر العامة الوالي الجديد على التزلف إلى الرعية وكسب رضائها لفترة قصيرة. وكان محك سياسة الوالي هو سعر الخبز، الذي هبط سعر رطله إلى ثلاث مصاري. ولكن الباشا سرعان ما «اشتغل بالظلم كأسلافه، فرجعت الاسعار إلى حالها الأول» وارتفع سعر رطل الخبز إلى خمسة وستة مصاري[٤٧].

وما أن هدأت العامة حتى بدأ الصراع بين القابي قول واليرلية عام ١٧٥٧ و «سكرت البلد»، أي أغلقت الدكاكين وامتنعت عن البيع والشراء، واستمرت الفتنة مدة طويلة تخبو وتستعر وسكان دمشق يكتوون بنارها. «ولم تزل دمشق في قتل ونهب واراجيف إلى حين حضر الوالي» فهدأت الأمور نسبياً ولكنها سرعان ما اشتعلت من جديد، عندما سلب القابي قول أحد أحياء الانكشارية المحلية واحرقوا حواصل الانكشارية المليئة بالاخشاب. وانتقاماً لهذا العمل شن الاليرلية هجوماً معاكساً على حي العمارة (مكان سكنى القابيقول) واحرقوه. فالتجأ القابيقول إلى القلعة وأخذوا يطلقون النار على الجامع الأموي مركز تجمع الاشراف، أعداء القابي قول، وقتلوا عدداً منهم. فما كان من اليرلية إلّا تشديد الهجوم على حي العمارة ونهبه وحرق حاراته وسوقه. وبقيت النار تشتعل فيه سبعة أيام. وقد أدى هذا النصر الذي حققته الانكشارية المحلية إلى ازدياد سطوتها وجبروتها(٤٨).

عاشت دمشق كما يروي بريك في حالة من «الحصر والضيم العظيم»، وازداد القلق مع انحباس أخبار الحجاج وماذا حل بهم. و «في ليلة ١٦ صفر سنة ١٧٥٧ أتت أخبار السوء بأن الحج انتهب جميعه. نهبه قعدان الفائز شيخ عرب بني صخر... وأخذوا المحمل وهرب الباشا برأسه... وأخذ يتواصل حضور المشلحين (أي المسلوبين) إلى دمشق لابسين الخيش. وحينئذ صار الحزن العظيم بدمشق والبكاء والصراخ والخوف. وقد لبست دمشق ثياب الحزن وتبرقعت ببرقع

الذل. . . وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة المذكورة، حضر المحمل إلى دمشق صحبة أحد المقدمين من أولاد دمشق (أي من الانكشارية الاليرلية وصحبته واحد من مشايخ الزعبية من أهالي حوران **استفكوه** بسبعماية ذهب جنز يرلي وجابوه مع السنجق محمل إلى المحكمة بدمشق[٤٩]».

فإذا علمنا أن مخائيل بريك الدمشق راوي هذا الخبز هو مؤرخ مسيحي أدركنا مدى الحزن العميق، الذي غمر القلوب بسبب نهب الحجاج واحتجاز المحمل. أما المؤرخ المعاصر الآخر البديري فيروي بالطبع تفاصيل أوسع عن انزعاج الناس من تأخر قافلة الحج ولم تدر ما السبب. ثم «جاء خبر إلى الشام بأن الحج قد شلحه العرب ونهبوه، والعرب سلبت النساء والرجال وأموالهم وحوائجهم. فضجت العالم وتباكت الخلق وأظلمت الشام. وبلغ الناس بأنه جاء إلى المتسلم ست مكاتيب أن يخرج إلى الحاج نجدة فلم يظهرها، فقامت العامة وهجموا على المتسلم بالسرايا ورجموه بالأحجار[٥٠]». وقد برز في هذه الأثناء الموالي أي الإشراف وأغوات اليرلية، الذين خرجوا مع خلق كثير لملاقاة الحاج.

عقب هذه الكارثة «بقيت دمشق بلا حاكم» مدة من الزمن بسبب هرب الوالي قائد قافلة الحج والتجائه إلى غزة. وسادت الفوضى مدينة دمشق وريفها واختلط الحابل بالنابل حتى دخل الواني الجديد عبد الله باشا الشتجي دمشق في ١٧٥٨/١١٧١، وكان معه، كما ذكر بريك «عساكر كثيرة مثل

جـراد زحاف أشكـال وألوان فخـافت دمشق أكثر من الأول».
وكان أول عمل قام به القضـاء على الانكشـارية اليـرلية وفتـح الميـدان مركـزهم الرئيسي ومـلاحقتهم في القرى والضـواحي. وكانت مجزرة حقيقية عاشتها دمشق. وذهب كما ذكر بريك[٥١] الصـالـح (من العـامـة والاشـراف) بجـريـرة الـطالـح (زعـماء الانكشارية المحلية واشتقيائها).

«وكثر الجور في البلاد، وخافت العباد وكثر الفساد، وجمعوا رؤوساً كثيرة من اشـراف وعامـة، وأرسلوها إلى الـدولة[٥٢]».
لقـد أراد الوالي الجـديد عبـد الله باشـا الشتجي كسـر شـوكـة الانكشارية المحلية وبث الذعر في قلوب العامـة وجمع الثـروات الطائلة كما هو شأن سائر الحكـام المستغلين. ويذكـر بريـك أنه «دخل على الوزير (أي الوالي) في مدة سبعـين يومـاً نحو أربعـة آلاف كيس من ظلم أهـالي دمشق من الموالي والـرعية والحـرف ومن النصـارى والافـرنـج واليهـود ومن البسـاتنيـة ومن أهـالي الأراضي ومن أهـالي القـرايـا التي حـوالي الشـام إلى أن فقـد القرش من الشام بـالكلية وعسـاكر الـوزير طـافت على القـرى والضيـع التي حوالي الشـام ونهبوهـا نهبة خفيـة وخربـوا البـلاد والزراعات ورحلوا الفلاحين...[٥٣]».

وعنـدمـا أراد الـوالي عبـد الله بـاشـا صـــرف عملة ذهبيـة مغشوشة بالقوة أمتنع الأهالي و «سكـرت البلد واختفت الرعيـة الاسلام والنصارى جمعة زمان ولا أحـد يخرج خـارج باب داره إلى أن طلع الباشا للدورة وهذا الذل كله من سمـاح الله تعالى[٥٤]».

بالاضافة إلى هذه النكبات، التي حلت بدمشق نتيجة للنظام الاجتماعي الاقطاعي الشرقي العسكري المتخلف، حلت بدمشق أيضاً في عامي ١٧٥٩ - ١٧٦٠ كوارث طبيعية بدأت بالزلازل، التي أعقبها الطاعون، فمات كل يوم ألف ضحية. وبعد أربع سنوات انحبست الامطار وقلت المياه في صيف ١٧٦٤ في الأنهر ووقفت الطواحين عن الدوران بقوة الشلالات وصارت تدور على البغال[٥٥]. وفي عام ١٧٦٥ كان المطر غزيراً في الشتاء. وفي عام ١٧٧٣ ارتفعت الاسعار في دمشق وعم الغلاء وحدث الصقيع، الذي اتلف الفواكه ما عدا العنب، وقلت مياه الأنهار. واستمر الغلاء في عام ١٧٧٤.

وفي سنة ١٧٧٧ تحركت عامة النصارى الدمشقية احتجاجاً على جوز بطريكهم دانيال. وارسلوا الرسائل إلى بطريرك القسطنطينية يشكون أحوالهم ويشرحون مظالم البطريرك دانيال وبخله وحبه لجمع المال. وأعظم من كل هذا هو «أنه يدين دراهم بالفائدة وصار اسمه ظاهر أنه بطريك مرابي». وخلال سنتين تشكلت الجمعيات لمقاومة هذا البطريرك المرابي ونشب النزاع واستفحل أمر القلاقل في الحي المسيحي حتى «جرى الصلح» بين النصارى وبطريركهم[٥٦].

وهكذا عاشت دمشق بين عامي ١٧٥٧ - ١٧٧١ فترة من الاضطرابات والقلاقل اتصفت بالهجمات المتكررة على قافلة الحج الشامي والنزاع المستمر بين اليرلية والقابي قول، وأخيراً هجوم قوات علي بك الكبير المملوك المصري بقيادة محمد أبو

الذهب ومساندة الشيخ ظاهر العمر وشيوخ المتاولة في حزيران ١٧٧١. ومع أن ولاة حلب ودمشق وطرابلس تحالفوا لقتال أبي الذهب. إلاّ أن الدائرة دارت عليهم في داريا بالقرب من دمشق وفي أثناء انسحاب قوات الولاة العثمانيين اعتدت على احياء الميدان والصالحية محاولة نهبها فدافع السكان عنها بمساعدة اليرلية وكذلك القابي قول المحاصرين في القلعة ورفضوا الاستسلام لمحمد أبي الذهب. وهنا برز دور علماء دمشق وأعيانها لتجنيب دمشق شر الحرب فاتصلوا بأبي الذهب وسلموه دمشق إلاّ القلعة. ولكن أبي الذهب سرعان ما انسحب فجأة من دمشق في ظروف لا مجال لبحثها هنا[٥٧]. فعاد الوالي الهارب إلى دمشق. ولكن الاضطرابات والمنازعات بقيت تموج في دمشق ولم تنته بين الحاكمين والمحكومين أو بين الحاكمين أنفسهم.

كان من جملة تحرك العامة في هذه الفترة الاصطدامات التي جرت في عهد الوالي إبراهيم باشا الدالاتي (١٢٠١ - ١٢٠٥ هـ) (١٧٨٨ - ١٧٩١ م). كان الدالاتي والياً على طرابلس ثم وجهت إليه ولاية دمشق ١٧٨٨ م فاستقام بها إلى أن توجه صحبة الحج. وبعد عودته بثلاثة أيام اعتدى بعض عساكره على أهالي دمشق، فاشتعلت نيران الاضطرابات، وآل الأمر إلى الاقتتال بين أهالي دمشق وجند الوالي ووقوع عدد من القتلى. وكانت كفة الأهالي راجحة مما أجبر الوالي على الانسحاب مع عسكره إلى القطيفة شمالي دمشق، حيث لحق به عدد من أعوانه مع «بعض الوجوه». ثم انسحب الجميع إلى

حماة، حيث جمعوا قواهم بعد ان اتاهم أمر السلطة المركزية بالتوجه ثانية إلى دمشق والقضاء على تمرد أهلها. وصلت قوى **الوالي إلى برزة (تبعد عشرة كيلومترات عن دمشق)، وكتبوا إلى الأهالي** بالأمان أولاً وثانياً وثالثاً ليدخلوا دمشق، فلم يمكنوهم من دخولها. فقام الوالي بحركة التفاف حول دمشق وهاجمها من الجنوب من حي الميدان حيث تقل الاشجار ويسهل على جنده الوصول إلى البيوت. وجرى قتال شديد في الميدان استمر ساعتين وقتل فيه خلق كثير. وأسفرت المعركة عن استيلاء جنود الباشا على الميدان وتقدمهم نحو دمشق، فلم يقاوم الأهالي بل فروا من وجه جنود الوالي، غير أن القلعة، التي احتمى بها رئيس الأوجاق في الشام أحمد آغا الزعفر نجي لم تستسلم وبعد مناوشات متعددة استسلم الزعفرنجي على يد الشيخ أحمد العطار وبكفالة الضابط المنلا اسماعيل. وعندما أراد الوالي قتل الزعفر نجي قدم المنلا اسماعيل وأخذه جبراً عن الوالي وأبعده عن دمشق محمياً بخيالته. واستقام الأمر في الشام للوالي الدالاتي إلى حين عزله وتعيين أحمد باشا الجزار المملوك البشناقي ووالي عكا والياً على دمشق للمرة الثانية عام ١٧٩١.

كان أحمد باشا الجزار خريج مدرسة المؤامرات والاغتيالات والسلب والنهب والغدر والمكائد، وهي المدرسة الرئيسية في العهد العثماني. وكان الجزار من التلاميذ «النجباء» لهذه المدرسة الرهيبة، وبرع في استغلال المنازعات للانتقال من خدمة أحد ولاة مصر إلى بلاد الشام فتزلف وداهن وتآمر وقتل

وغدر حتى تمكن من الجلوس على «عرش» ولاية عكا ومد نفوذه إلى ولاية الشام.

عين الجزار والياً على دمشق لأول مرة في شباط ١٧٨٥م/١١٩٩ هـ بالاضافة إلى ولاية عكا. وبدأ في ابتزاز الأموال والظلم دون أن يحرك أحد ساكناً في دمشق. والسبب، في رأينا، راجع إلى قوة الجزار ورهبته وإقامته في عكا وتهديده لدمشق في كل لحظة. وكذلك فإن العامة كانت منهكة مهيضة الجناح نتيجة للاضطرابات السابقة، ولم تكن قد استعادت أنفاسها بعد. ولم يكن أمام الأهالي لمقاومة الجزار إلاّ الشكوى عليه إلى السلطان، مستغلين فترة غيابه في الحج. «وحضر أمر بعزله إلى القاضي وتولى إبراهيم باشا» الولاية في كانون الأول ١٧٨٦/١٢٠١.

بعد وصول الوالي الجديد بعدة أيام، نشب النزاع بينه وبين الأهالي «وتعصبوا عليه وحصل حرب ومشاجرة»، وكان آغا القلعة وقائد القابي قول أحمد آغا الزعفر نجي قد أيد الأهالي وأغلق القلعة وعزم على مقاتلة الوالي، مما أجبر الوالي على الانسحاب إلى حمص وجمع قوى عسكرية كافية والعودة لاحتلال دمشق. «وشاع الخبر أن قصده يخرب الميدان ويقتل أهلها ويحرقها بالنار. فحصل الوهم والاحتساب وعزل الميادن تماماً. والتجأت الحريم إلى الجامع الأموي وكان ضجيج مهول». وكانت إحدى فرق الوالي (أوردية) قد عسكرت في داريا وكوكب. ويبدو أن المقاومة المسلحة كانت ضعيفة فقر

رأي «أعيان البلد» على التوجه لقائد الأوردية «ليتكلموا مع الباشا بالاصلاح ويجلبوه للعدل والرحمة». ونتيجة للمحادثات عفا الوالي عن الأهالي بشرط أن يخرج الزعفر نجي من البلد ويسلم القلعة. وحكم إبراهيم باشا الشام أربع سنين ثم عين الجزار ثانية والياً على دمشق مدة خمس سنوات ١٧٩١ - ١٧٩٦.

ويصف مخائيل الدمشقي حالة الناس، التي لم تأخذ أي قسط من الراحة بسبب مظالم الجزار وهي:

١ - «طلب القرش ظلماً».

٢ - نهب البضائع من جهة وطرحها في الأسواق بأسعار مرتفعة.

٣ - حوادث كثيرة مقهرة ومغمة من أنواع كثيرة».

وكانت النتيجة نزوح أعداد كبيرة من الشام هرباً من الظلم. ويقول مخائيل الدمشقي أن الجزار «أذاق الناس مراير الصبر وكان يبغض جنس البشر وليس له أمان»[٥٨].

أما القاري صاحب كتاب «الوزراء الذين حكموا دمشق» فيصف الجزار بأنه «كان ظالماً فاسقاً حاكراً للقوت». وفي أيام الجزار «فاض نهر بردى وهدم أماكن كثيرة وراحت أرزاق لا تعد ولا تحصى أما بسبب الهدم أو بسبب ما جرفته المياه أو بسبب السرقة «ما أخذه أولاد الحلال»... وأنسدت الأنهر من عظم السيل لا سيما نهر يزيد ونهر تورة فطلع أهل الصالحية

ليعزلوه. وجاء الفلاحون من القرى لمساعدتهم. وكان يجتمع كل يوم نحو خمسماية رجل. ويذكر القاري أن العمل دام مدة شهرين وأنفقت على إصلاح النهر أموال كثيرة «وأحمد باشا لا هم له إلّا جمع الأموال وقتل الناس».

بعد الجزار تولى حكم الشام عبد الله باشا العظم مدة ثلاث سنوات. وفي ابتداء سنة ١٧٩٨/١٢١٣ شاع الخبر بعزله ووصلت أخبار الحملة الفرنسية على مصر إلى مسامع أهالي دمشق و«صار شلش (خلاف) واحتساب (خوف)» كما يذكر المؤرخ المسيحي مخائيل الدمشق من هياج العامة و«تعدي الإسلام على النصارى ص ٩». باعتبار أن نابليون النصراني يعتدي على املاك السلطان المسلم. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، على الرغم من الاضطراب والهياج وانتظار ما يخبئه المستقبل

وأتى الوالي الجديد إبراهيم باشا الحلبي، الذي «ضبط البلد»؛ وكان أحمقاً «يشتم الناس، والبد مضطربة بسبب الفرنساوية». وسعى لتهدئة الأمور دون جدوى، فالهياج يتعاظم والغلاء يزداد والاشاعات تنشر الذعر والخوف والحذر في كل مكان. وهاجت العامة «وكاد يصير فتنة عظيمة ص ٥٩». وكان الوالي يستعد خارج دمشق للتوجه لقتال نابليون. ويقول المؤرخ الشطي إن الأهالي اخرجوا كل تركي غريب. واستمر الأمر مضطرباً دون سلطة إلى عاشر شعبان سنة ١٢١٢، عندما حضر من جهة عكا رسول من طرف الجزار يعلن أن منصب دمشق توجه إلى سيده الجزار. وقد عين الجزار مندوباً عنه

حاكماً على دمشق. وقد أدى ذلك إلى هدوء الحالة وانصرف كل إلى عمله، لما يعهدونه من شدة بأس الجزار[٦٠].

في هذه الأثناء وصلت الأخبار بأن العساكر الفرنساوية توجهت إلى السواحل واحتلت غزة ويافا. فعقد الرؤوساء والوجوه في دمشق مجلساً قرروا فيه جمع العساكر وإرسالها معونة إلى أهل السوالح، وكان إذ ذاك غلاء عظيم، فجعلوا كلف (نفقات) الذخائر على تجار الصابون خاصة، وفي اليوم الثالث توجهت العساكر من دمشق، ولكنها سرعان ما ولت الأدبار هاربة بمجرد التقائها بالجنود الفرنسيين المدربين على الاسلحة الحديثة والمتبعين لاستراتيجية في الحرب بورجوازية حديثة، في حين أن «العساكر العثمانية» كانت تتبع فنون القتال الاقطاعية البالية. وليس لها أي وازع للحرب سوى النهب والسلب. وبدا ذلك واضحاً عندما بدأت العساكر ترد إلى دمشق من الشمال «فغلت الاسعار، وكثر الجور والفساد وخربت القرى من سوء إدارة الرؤوساء[٦١]».. ويصف **ميخائيل الدمشقي** الحالة في دمشق في أثناء حصار عكا، (١٨ آذار إلى **٢٠** أيار **١٧٩٩**) كما يلي: «فلت الحكم بالشام وبرها حتى ما عاد أمان لا على عرض ولا مال. وقاسى النصارى أتعاباً كثيرة. وكانت البيوت تنهب ويصير أضراراً كثيرة ولكن عناية الله أدركت بوقته[٦٢]». إذ برز في هذا الجو المضطرب المتصف بغياب السلطة وانهيار سمعتها شخص اسمه «أبو حمزي» تعاون مع بائعي الخردة (جرايجة) الميادن بزعامة محمد عقيل، وربما كان هذا شيخ كار هذه الحرفة، واستطاع «ضبط البلد» نسبياً وتهدئة

الأمـور، في وقت اختلط فيه الحـابـل بـالنـابـل والشـام بـدون حاكم. ومع الاسف لا تـزال معلوماتنـا شحيحة عن أبي حمـزة هذا، وما هي طموحاته ومدى قوته وما علاقته بتحركات العامة السابقة؟ وجل ما نعرفه أن الصدر الأعظم يوسف ضيا، الذي حضر إلى الشام ومصر **لمقاتلة** نابليون «قتل حمزي وبعض أنـاس بقساوة»، ويأسف مخائيل **الدمشقي** على هـذا القتل قـائلاً: «مـا كان يحسن ذلك لأنهم همدوا شروراً كثيرة[٦٣]».

وفي هذه الاثناء عين عبد الله باشا العظم والياً للمرة الثانيـة من **١٨٠٠** إلى **١٨٠٣** وجرت بينه وبـين القابي قـول مناوشـات تمكن الوالي على أثرها من السيـطرة على القلعـة. وعندمـا عين الجزار والياً عـلى دمشق للمرة الـرابعة **١٨٠٣** هـرب الناس من مظالمه إلى حلب وجبـل لبنان، والـذي بقي «انضام جـداً[٦٤]»، أي اضطهد واستعبد وأهين. وبادر عسكر الجـزار بسلب أموال الأهـالي بدون حق، وحملوا التجـار أغلب الأثقال، فقـد كانـوا يهددونهم بالضرب والتعذيب حتى يدفوا المطلوب منهم، وعظم الأمـر على أهـالي الشـام[٦٥]: «إلى أن الله تعـالى أذن بـالفـرج بمـوت الباشـا في **١٢١٩** (**١٨٠٤**) لأن الكيل وصـل لحده ومـا كانت الناس تصدق أنه مات... وسبحان الدايم الباقي[٦٦]».

بعد أن تأكد الناس في دمشق من موت الجزار في عكا استلم البلد القـاضي، وهاج النـاس وماجـوا وشرعـوا في قتل أعـوان الجـزار وكل من سـاعده عـلى الظلم وابتـزاز الأموال. وعنـدما قصـدوا المستسلم كنـج أحمـد هـرب وتحصن في الـقلعـة.

فحاصرت العامة القلعة، التي أطلقت منها المدافع وحرقت عدداً من البيوت والدكاكين. وهنا جرت مفاوضات بين الأهالي والمتسلم المذكور واتفقوا على إعطائه مئة كيس فضة حتى يغادر دمشق ويسلم القلعة للقاضي. «وبالحال فرضوا ذلك: سبعين كيساً على الاسلام وعشرين على النصارى وعشرة على اليهود». ولكن المتسلم المحاصر في القلعة لم يقبل المبلغ وأصر على البقاء في القلعة حتى يأتيه خبر من استنبول، «وصار الحال مكرباً[٦٧]». وبما أن العامة لم تكن لديها الوسائل الكافية لاحتلال القلعة بقيت الأمور سائبة حتى مجيء الوالي الجديد إبراهيم باشا آغاسي للمرة الثانية سنة ١٨٠٤، ولكن الاضطرابات لم تهدأ تماماً وبخاصة في القرى إذ أطلق (سيب) عساكره في القرى فخربت ودمرت كثيراً منها[٦٨]...

واستقرت الأمور في دمشق مدة سنة ونصف في عهد إبراهيم باشا أغاسي الحلبي (الثانية)، وعندما وصل خبر إقالته اندلعت الفتنة بين الانكشارية المحلية والقبي قول، وأدت إلى وقوع عدد من القتلى والجرحى وحرق الاسواق نتيجة إطلاق المدافع من (القلعة) حصن القبيقول على الاحياء حصن الانكشارية المحلية. ولما وصل الوالي الجديد عبد الله باشا العظم ١٨٠٦ هدأت الأمور نسبياً.

وفي عام ١٨٠٧ هاجم الوهابيون الذين سيطروا على الحجاز - قافلة الحج الشامي التي كانت برئاسة الوالي عبد الله باشا العظم. وفي شهر ذي الحجة وصلت الأخبار إلى دمشق

برجوع الحجاج والباشا إلى المزيريب هرباً من الوهابيين. وكان الوهابيون سمحوا للباشا بالحج بشرط أن يسلمهم السنجق والمحمل وسلاح العسكر، وهم يتكفلون بحراسته حتى الشام. ولكن الباشا خاف ورجع بسرعة، وعندما وصل إلى دمشق «صار ضوجة (ضجة) واضطراب» وفقدت هيبة الوالي وأعوانه إلى درجة أن الحرامية (اللصوص) سطت على بيت المتسلم وساد دمشق الخوف والفوضى والحذر «والبلد صارت فالتة[٦٩]».

وعندما تولى يوسف باشا عام **١٢٢٢**هـ / **١٨٠٧**م حكم دمشق حصل كرب شديد من شدة المظالم مما دفع العلماء، وهم لسان حال العامة، أن يحتجوا لدى الوالي عن هذه المظالم قائلين إنها تنافي مذهب الاسلام. وبعد نقاش عنيف اضطر الوالي إلى التراجع، وأمر بطرد أحد أعوانه، الشيخ الكردي، الذي كان كبش الفداء، **واعتبر** مسؤولاً عن المظالم. ويقول مخائيل الدمشقي تعقيباً على نتائج ما جرى أن الناس اطمأنت «وارتفع اللش ومشى الذيب والغنم سواء ولا أحد تعدى على أحد. مسلم نصراني يهودي كل في حريته وما عاد قبل وشاية من أحد. وتغيرت الأحوال فصارت بأحسن حال ولا سيما أهل القرايا رفع عنهم الحوادث والتعدي[٧٠]».

والواقع أن استجابة الوالي السريعة لمطالب زعماء العامة لم يكن مرده الخوف من ثورة العامة فحسب، بل كان سببه، أيضاً، خوف الوالي من تحركات الوهابيين ووصول خيولهم إلى مشارف ولاية الشام، وانتشار الشائعات عن وصول مكاتيب

(مراسلات) منهم إلى الاعيان يطلبون منهم التسليم. ولا نعلم مدى صحة هذه الشائعات. ولكن المهم أن الوالي أراد إرضاء الناس في المدينة والريف حتى يستطيع مقاومة الخطر الوهابي، الذي عكر عليه نومه وأقض مضجعه وثمة أمر آخر كانت أشباحه تتراقص في خيال يوسف باشا وهو تأليب والي صيد ضده. وهذا ما جرى بالفعل، إذ أن سليمان باشا والي صيدا قدم إلى طبريا، بناء على كتاب يوسف باشا، لملاقاة الوهابيين، الذين بولغ في وصف هجومهم. وعندما تبين أن الهجوم الوهابي كان عبارة عن غزو إحدى القبائل لأراضي حوران. وكان من المفروض رجوع كل وال إلى ولايته. ولكن سليمان باشا والي صيدا كان قد تلقى وهو في طبريا فرماناً سلطانياً بتوجيه ولاية الشام إليه، وقتل الوالي المعزول يوسف باشا، وإرسال رأسه المقطوع إلى مقر السلطنة، وضبط أمواله وأملاكه، وإرسال دفترها إلى العاصمة. توهم سليمان باشا أن الأمر تم بناء على «حكمة خفية الهية» فتوجه من طبريا مسرعاً مع جيشه بإتجاه دمشق لقتل حليفه السابق. ودارت رحى المعركة بين والي صيدا ووالي دمشق بالقرب من داريا وانهزم والي دمشق يوسف باشا، **والتجأ** إلى محمد علي باشا والي مصر. ودخل سليمان باشا إلى دمشق وأصبح والياً على صيدا ودمشق(٧١).

وسليمان باشا هذا كان من مماليك أحمد باشا الجزار، وخريج مدرسته، مدرسة ابتزاز الأموال والتآمر والاغتيال والغدر والخديعة. وقد عينته الدولة والياً على عكا بعد وفاة

سيده، الذي كان من أبعد الولاة عن العمل بأوامر الدولة، وأكثرهم خروجاً عليها. والآن لنمعن النظر في «أخلاق» ذلك الزمن من خلال الفرمان الذي أرسله السلطان محمود إلى سليمان باشا، الذي جاء فيه: «بما أنك ممن تربوا على يد الغازي أحمد جزار باشا رحمة الله عليه . ، آمل منك أن تعمل مثله باخلاص وولاء، ساعياً وراء الحصول على رضائنا في كل أمر. وأحيل هذه الأمور أولاً إلى الله تعالى، ثانياً إلى ذات حميتك، بما أمرناك، ولا تتركنا أن نشعر بفقد المرحوم أحمد جزار باشا . . . [٧٢]».

ويعلق جودت باشا في تاريخه أن هذه: «أصول وعادات ذلك الوقت[٧٣]» والواقع أنها أصول وعادات الطبقة الحاكمة المسيطرة المستثمرة، وليست أخلاق الفلاحين في الريف والحرفيين وسائر العامة في المدن. إذ أن داخل كل مجتمع توجد «أخلاق» للطبقة المسيطرة وأخلاق للمضطهدين والمنتجين.

وفي عام ١٨١٢ عاشت دمشق عدة أسابيع في قلق وخوف نتيجة الصراع بين الوالي سليمان السلحدار والمتسلم عبد الله آغا، اللذين اختلفا بعد الاتفاق. وبعد أن التجأ المتسلم إلى القلعة وحوصر فيها ضربها الوالي بالمدافع وردم جزئاً من خندق القلعة وتسلق جنوده أسوارها واحتلوها وقتلوا المتسلم ونهبوا جنوده[٧٤].

توفي سليمان باشا سنة ١٨١٩ بعد أن نشر الأمن وجمع ثروة طائلة من أموال الناس شأن كل وال أو وزير من أمثاله وتعاقب

على دمشق بعدئذ عدة ولاة كان من أشهرهم درويش باشا ١٨١٩، الذي اعتمد على صيارفة اليهود لابتزاز الأموال وجمع الثروة. وعندما أتى الوالي صالح باشا شدد النكير على اليهود، وكان يعرف أسرارهم درويش باشا ١٨١٩، الذي اعتمد على صيارفة اليهود لابتزاز الأموال وجمع الثروة. وعندما أتى الوالي صالح باشا شدد النكير على اليهود، وكان يعرف أسرارهم لمشاركته أياهم في سرقة المال، وطالبهم بالأموال طائلة(٧٥).

الفصل الخامس

الأهداف والاشكال والنتائج
والمحتوى العام لتحركات العامة
في إطار التطور الاجتماعي

تأثرت تحركات العامة في دمشق بالمستوى المتدني لتطور القوى المنتجة.

- سيادة الانتاج اليدوي الصغير والبسيط وبطء تطور العلاقات القائمة على تبادل البضائع بالنقود أثر، بالاضافة إلى طبيعة الحكم الاقطاعي الشرقي العثماني، في انتفاضات العامة في مركز ولاية بعيدة عن العاصمة.

- لم توجه انتفاضات العامة مباشرة ضد السلطة المركزية في استنبول بل وجهت نار غضبها إلى ممثلي السلطة الاقطاعية في الولاية.

- سرعة قيام التحرك وسرعة خموده واتصاف معظم التحركات بالعفوية وعدم التنظيم والفردية. وهذه الظاهرات انعكاس لمستوى القوى المنتجة.

- قامت التحركات نتيجة للأسباب **التالية**: كثرة الضرائب أو زيادتها، إرتفاع الأسعار، احتكار المواد الغذائية أو قلتها، تعسف رجال السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية.

- إشتراك الفرق الصوفية علناً في كثير من التحركات. وهنا بدا واضحاً الارتباط العميق بين فرق الصوفية والعامة، وبخاصة جناحها الثوري الممثل في الحرف. وكانت فرق الصوفية بمثابة الأحزاب السياسية العامة، حيث امتزج في بوتقة واحدة النضال الاجتماعي والديني والسياسي.

- تأرجح الفئات العليا من العامة واستعدادها للتفاهم مع رجال السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية، في حين كانت الفئات الدنيا من العامة أكثر اندفاعاً وراديكالية، وكثيراً ما أجبرت الفئات العليا على إلغاء الصفقات وإجراء المساومات مع السلطة الاقطاعية.

- بقاء العامة في معظم الاحيان على الحياد عندما نشبت المعارك بين قوى السلطة الاقطاعية المختلفة العسكرية والمدنية، على اقتسام الغنائم.

- تحالف العامة مع إحدى قوى السلطة لضرب القوى الأخرى الأكثر عدوانية وشراً وتعسفاً وظلماً. وهذا الوضع كان يخلق جواً جديداً وتحالفات جديدة.

- سعى عدد من الحكام إلى التزلف إلى العامة وكسب رضاها وبخاصة عندما يكون هؤلاء الحكام ضعفاء، أو هم في صراع مع خصومهم داخل الولاية أو خارجها.

- استخدمت العامة في كثير من الاحيان المقاومة السلبية، عند تعذر اندلاع المقاومة العلنية المكشوفة.

- ردة الفعل ضد أعوان الولاة الظالمين، عند زوالهم، كانت

عنيفة، وتتناسب مع عنف الظلم وشدته.

ـ لم تكن ثمة حركات زندقة (هرطقة حسب التعبير الأوروبي) ذات شأن في تلك الفترة. ويرجع سبب ذلك إلى عاملين رئيسيين:

آـ كان الجو الديني المتمثل في الفرق الصوفية وطقوسها مؤيداً في معظمه لتحرك العامة ضد الطبقة الحاكمة العليا. ولم يكن رجال الدين مؤيدين، كما هو الأمر في أروروبا الوسيطة، بصورة مكشوفة للسلطة الاقطاعية.

ب ـ لم يكن ثمة وجود ملحوظ للقوى الاجتماعية الجديدة بسبب ركود المجتمع. فالطبقات أو الفئات الاجتماعية التي تغلف مطالبها الاجتماعية أو السياسية بغلاف ديني لم تكن حتى منتصف القرن التاسع عشر قد ظهرت بعد.

ـ إنفصال المدينة عن الريف في مجال التآزر والتعاضد في أثناء قيام الانتفاضة العامية أو الفلاحية ضد العدو المشترك، الحكم الاقطاعي الشرقي. وكان إضطهاد الولاة أو ممثليهم للفلاحين يصل إلى المدينة عن طريق الجند العائد من عملية عصر الفلاحين أو قمع انتفاضاتهم. ولم يكن أمام العامة إزاء هذه الاخبار إلاّ الدعاء بالفرج والخلاص من الكربة.

* * *

(١) راجع حول القوى العسكرية بحثا مفصلا في: رافق عبد الكريم: «بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٦١٥ - ١٧٩٨». دمشق ١٩٦٧ ص ٦٩ - ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٠. ود. عبد الكريم، أحمد عزت في المقدمة التي وضعها لحوادث دمشق اليومية تأليف البديري، ص ٤٣.

(٣) رافق... ص ٢٢٠. نقلا عن المرادي: «أعيان القرن الثاني عشر» جزء ١ ص ٢٢٤.

(٤) المصد نفسه، ص ٢٢١.

(٥) بريك مخائيل الدمشي: «تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢» عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسنطين الباشا المخلصي. مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان ١٩٣٠. نقلا عن النسخة الموجودة في برلين تحت رقم ١٩٧٨٦. ص ٣.

(٥/١) ابن جمعة المقار: «الباشات والقضاة». نشره صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٤٩. ص ٦٠.

(٦) رافق... ص ٢٢٢.

(٦/١) ابن جمعة... ص ٦١.

(٧) بريك... ص ٤.

(٨) رافق... ص ٣١٣ نقلا عن القاري.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣١٤.

(١٠) تاريخ العالم، المجلد الرابع. برلين ١٩٦٤، ص ٦١٢.

(١١) شيلشر شاتكوفسكي ليندا: «بعض مظاهر وضع الأعيان في أواخر القرن

الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في دمشق» بحث القي في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٢٧/١١ ـ ٣/١٢/١٩٧٨. ص ١٨.

(١٢) رافق. . . ص ٣٢٢.

(١٣) بربك. . . ص ٨.

(١٤) رافق. . . ص ٣٢١.

(١٥) بربك. ص ٨. . تزوج سليمان من ابنة الشيخ يونس القادري الكيلاني، وأنشأ ديوانا للأعيان برئاسة علي المرادي شيخ الطريقة النقشبندية، وانشأ مدرسة في دمشق. شيلشر. . . ص ٩.

(١٦) بربك. . . ص ٩.

(١٦/١) ابن جمعة. . . ص ٦٦.

(١٧) رافق. . . ص ٣٢٤.

(١٨) بربك. . . ص ٩. أما ابن جمعة في الصفحة ٦٦ فيرجع سبب الانتفاضة الى عاملين: الأول هو الحاج حسين باشا على جمع «الذهب المبخوش» والثاني الغاءه للتهليلة. ثم يروي ابن جمعة أحداث الانتفاضة كما يلي: «وفي ثاني عشر جمادي الآخرة نهار الجمعة (كان) أول وقوع الشواشر (الاضطراب) سكرت دمشق وما قام فيها صلاة جمعة. وصار أهل دمشق بلجية (بالسلاح) في المحلات بالعدد الكاملة. ووقع الجنك (تبادل الرصاص) بين جماعته وأولاد الشام. وحفظ الله تعالى أولاد الشام، وقذف في قلوب **جماعته** الرعب. . . (ثم) استمرت الشواشر وسكرت دمشق ووقع الحصار. وصعد جماعات الى أعلى القلعة ورموا عليه بالطب (الطواب) والنار، وأرسلوا يخبرونه أن يرحل عنهم، فمن خوفه خرج ليلا هو وحريمه وجماعته وعساكره. وكان هدفه تجميع قواه والهجوم على دمشق. فجاء الفرج من الفتاح العليم بعزله عن دمشق».

(١٩) يصف القاريء أحداث ١١٥٣ وصفا حيا مظهرا انحيازه الى العامة، «. . . وقعت الشواشر (المناوشات) بين القبي قول والانيكجرية وسكرت دمشق وتفرقت القابي قول في الحارات وعملوا المتاريس وسكروا البوبات (بوابات الحارات إذ كان لكل حارة بوابتها) لئلا أحد يهجم عليهم. . . وفي هذه الاثناء جاءت أودتين (كتيبتين) من الدولة العلية، فلما دخلوا وقع منهم مفساد وشاركوا أهل الحرف (أي قاسموا أهل الحرف ثمرة اتعابهم)

وصار منهم التعدي والفساد. وكان غالب القابي قول وحوش. ووقع منهم مفاسد وأمور تقشعر منها الأبدان. فوقع رأي ساداتنا العلماء والأكابر وحاكم دمشق (هو الوالي عثمان باشا المحصل ١٧٤٠ م) باخراجهم، **إلى جهنم** وبئس المصير. فهرب قسم منهم ومن بقي غير زيه وصار من جملة **الرعيا**. وكان سبب هذا الأمر دعوة شيخنا وأستاذنا قطب العارفين الوارث المحمدي سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي قدس الله سره العزيز، فسرت الدعوة عليهم في سائر البلاد فمزقهم الله كل ممزق...».

(٢٠) بريك.. ص ٩.

(٢١) البديري أحمد (الحلاق): «حوادث دمشق اليومية» ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ، ١٧٤١ - ١٧٦٢ م، جمعها الشيخ أحمد البديري الحلاق، نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي. وقف على تحقيقها ونشرها دكتور أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة ١٩٥٩. ص ٦.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٤) مثل الشاشية والمشيخة والعرض، التي فرضت مرة أو مرتين في السنة البديري - ٤٥.

(٢٥) من مظاهر تزلفه الى العامة الفقيرة ان سليمان باشا احتفل احتفالا عظيما بختان ابنه أحمد بك. «وأطلق» كما ذكر البديري «الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاءوا، من رقص وخلاعة وغير ذلك» مدة سبعة أيام. ثم أمر بالزينة وعمل موكب تضمن الملاعب الغريبة. وبعد أن طهر ولده أمر أن يطهر من صدقاته أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد، وكلما طهروا ولدا يعطوه بدلة وذهبين وأنعم على الخاص والعام، والفقراء والمساكين باطعمة وأكسية وغير ذلك. البديري... ص ٣٨.

(٢٦) يصف البديري سلوك ابراهيم متسلم دمشق أيام سليمان، وهو من مماليكه، بـ «الظلم والعدوان والجرأة على الخاص والعدوان، وكان يأمر بالقبض على كل من رآه بعد العشاء، ويأمره بتقييده في الحال بالحديد، إلى أن يأخذ منه مال كثير (كذاب بالأصل)، وإذا أذنب أحد ذنبا، ولم يقدر على قبضه يقبض من يقدر عليه من أهله وقرابته، ويلزمه بمال

عظيم . . . ولا زال بظلمه وعتوه الى أن أخذه الله». وقد عبر البديري عن فرحته وفرحة العاة عندما قتله عرب (بدو) اللجاة.

(٢٧) انظر تفاصيل مصادرة أموال سليمان باشا وتعذيب حريمه في البديري - ص ٥٧ - ٦٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٢٩) رافق . . . ص ٢٣٨ نقلا عن المرادي . . . جـ ٣ ص ٢٧٩.

(٣٠) البديري . . . ص ٨٥.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٦. أما القاري فيصف بايجاز الصراع مع فتحي الدفترجي بعواطف منحازة إلى هذا الأخير. بدليل أن حزب الدفتر دار لم يكن ضعيفا. القاري . . . ص ٧٩.

(٣٧) البديري . . . ص ٩٨.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) البديري . . . ص ١٢٣.

(٤٠) سعر كل بيضتين بمصرية. البديري . . . ص ١٢٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) يذكر بريك أن الانكشارية «تفرعنت» بعد هذا النصر. ص ٤٥. أما القاري فيستعمل تعبير «تفرسنت الانكشارية» على أثر النصر. ص ٨٠.

(٤٩) بريك . . . ص ٤٤. ويذكر البديري أن عمر المحاميد شيخ حوران هو

الذي وجد المحمل والسنجق عند العرب (البدو). والسنجق هو «العلم النبوي الذي يقال له العقاب. وكانوا يحفظونه في دمشق ويرفعونه أمام قافلة الحج الشامي أو ينشرونه اذا دعا داعي الجهاد.

(٥٠) البديري. . . ص ٢٠٦.

(٥١) بريك. . . ص ٥٠ - ٥٣.

(٥٢) البديري. . . ص ٢١٥.

(٥٣) بريك. . . ص ٥٢. كما روى البديري الحادثة بما يشبه رواية بريك. ص ١٢٢ - ٢١٧.

(٥٤) بريك. . . ص ٥٣.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٧ , .

(٥٧) قساطلي نعمان: «كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» بيروت ١٨٧٩. ص ٨٣. رافق . . . ص ٣٧٥.

(٥٧/ ١) الشطي محمد جميل: «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر». دمشق ١٩٤٦ ص ٢٥. القاري. . . ص ٨٦.

(٥٨) تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧هـ إلى سنة ١٢٥٧هـ (١٧٨٢ - ١٨٤١م). عني بنشر وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الأب لويس معلوف اليسوعي. بيروت ١٩١٢. ص ٦. أما مؤلف الكتاب فهو مخائيل الدمشقي الذي كان من موظفي الحكومة في دمشق. وسنشير إلى الكتاب باسم «الدمشقي» أو «تاريخ **حوادث** الشام ولبنان».

في كتابه «النكبات» يذكر أمين الريحاني نقلاً عن مصادر ذلك العصر أن الجزار استهل حكمه بأن ملأ السجون من جميع الناس، الفقراء والأغنياء والعمال والعلماء وأصحاب الحرف وكتبة الدواوين وذلك ترويعاً للرعية. ثم أمر إرهاباً لها بقتلهم أجمعين. وطرحت القتلى كالغنم خارج عكا ونادى المنادي تعالوا ادفنوا موتاكم وكل امرأة ترفع صوتاً تقتل حالاً. ص ٩٨.

(٥٨/ ١) القاري. . . ص ٨٦.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٦٠) الشطي. . . ص ٢٧.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٦٢) الدمشقي . . . ص ١٠ .

(٦٣) الدمشقي . . . ص ٢١ .

(٦٤) الدمشقي . . . ص ١٤ .

(٦٥) الشطي . . . ص ٣٩ .

(٦٦) الدمشقي . ص ١٤ .

(٦٧) المصدر نفسه، ص ١٦ .

(٦٨) الشطي . . . ص ٢٧ .

(٦٩) الدمشقي . . . ص ١٨ .

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٤ .

(٧١) الحصري ساطع : «البلاد العربية والدولة العثمانية» بيروت ١٩٦٥ . ص ٦٥ - ٧٠ .

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٧٠ .

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٦٩ .

(٧٤) الدمشقي . . . ص ٣٠ .

(٧٥) الدمشقي . . . ص ٤٣ .

الباب الرابع

ثورة العامة الدمشقية
ايلول ١٨٣١

مقدمات الثورة .

مؤتمر الربوة .

الاستيلاء على السرايا .

حصار القلعة واستسلام الوالي وقتله .

الحكومة الوطنية الشامية .

العودة المهزوزة للسلطة العثمانية .

موقع ثورة ايلول التاريخي .



الفصل الاول

مقدمات الثورة

في العقود الاولى من القرن التاسع عشر أخذ الاقتصاد الحرفي البسيط يتلقى أولى ضربات أمواج البضائع المصنعة القادمة من اوروبا الغربية. ومع ان مدينة دمشق، خلافاً لمدن الساحل وحلب، تمكنت قبل هذا التاريخ من الحفاظ على موقعها الاقتصادي وصناعاتها التقليدية، إلا أن رياح العلاقات الرأسمالية بدأت تهب عليها شبيهة بالغيوم المشبعة ببخار الماء والقادمة من البحر الابيض المتوسط، فتارة تصل الى الداخل وطوراً تصطدم بقمم الجبال الموازية للساحل، أو تغيب في مجاهل البادية المضطربة شبه الخاوية.

ان تدفق البضائع المصنوعة في اوروبا الناهضة ومزاحمتها للمنتجات الحرفية اليدوية الدمشقية ذات التقاليد العريقة الراسخة في القدم هزّ الاقتصاد الحرفي البسيط هزّاً ترددت اصداؤه في التوترات النفسية، التي اجتاحت من هم على صلة بذلك الاقتصاد الحرفي وجعلتهم مستعدون للقيام بأي تحرك في اللحظة التاريخية الملائمة.

وكانت طوائف الحرف تتعرض قبل غيرها لعدد من

الصدمات الناجمة عن المزاحمة الاجنبية للانتاج المحلي، وفشل محاولات تطوير الاقتصاد الحرفي، وازدياد وطأة الضرائب والغرامات، واستمرار ركود النظام الاقطاعي الشرقي ورموزه العثمانية.

ومن جهة أخرى كان لا بد لبعض محاور الاقتصاد الحرفي البسيط من التطور، على الرغم من الركود، وخلق قوى اجتماعية جنينية غير مرئية لها مصلحة في التطور والتغيير ودفع الاقتصاد الحرفي البسيط باتجاه العلاقات الرأسمالية المبكرة.

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تمكن عدد من آغوات الانكشارية المحلية في حي الميدان من الحصول عن طريق المنح او الاستغلال المالي السافر على أراض واسعة في حوران، ومن السيطرة على الفلاحين هناك والطموح الى نوع من الاستقلالية أوسع عن سلطة الولاية وتقلباتها. وفي الوقت نفسه سعى زعماء الانكشارية المحلية في الميدان الى الدخول في نقابات التجار في المدينة وتوثيق علاقاتهم أكثر فأكثر مع الفئات التجارية والمرابين المهتمين بالمحاصيل الزراعية. والتقي الجميع في ساحة واحدة هدفها جني الارباح في حلقة اقتصادية متكاملة بين تلك الاطراف. وهكذا التقت مصالح آغوات الانكشارية مع عدد من تجار دمشق الموسرين وبعض العوائل الدينية الطامحة الى تحويل فترة الالتزام السنوي الى **«مالكانات»**[1]، لهذه الاحلاف تمتد طوال العمر.

في ذلك الجو المشحون بالتناقضات الاجتماعية والسياسية

والفكرية أخذت تبرز خيوط تحالف بين القوى، التي ستشارك في ثورة ايلول ١٨٣١. هذه القوى الاجتماعية والسياسية، التي شاركت في ثورة أيلول ١٨٣١، بهذا القدر أو ذاك، هي :

١ - طوائف الحرف بمختلف مراتبها: المعلمون والصناع والاجراء. وكوّن هؤلاء القوة الاساسية لثورة ١٨٣١.

٢ - الانكشارية المحلية (اليرلية) المتمركزة في الحي الجنوبي من دمشق في الميدان. وشكل هؤلاء القوة الصدامية المسلحة والمدربة، وأطلق على زعمائها اسم «الآغوات».

٣ - تجار المدينة بمختلف درجاتهم.

٤ - العلماء ومعظمهم من الاشراف ممن ينتسبون الى الامام علي... والتجار الكبار والعلماء هم من اطلق عليهم اسم الأعيان.

في سنة ١٨٢٨ أُسندت ولاية الشام الى عبد الرؤوف باشا. وتم ذلك بعد مدة قليلة من قيام السلطان محمود الثاني في حزيران ١٨٢٦ بإبادة فرق الانكشارية في استنبول وتأسيس جيش يتّبع النظم الحديثة. وكان انشاء هذا الجيش وحروب الدولة مع روسيا بحاجة الى أموال جديدة فرضها السلطان على الولايات وكان من جملة هذه الضرائب الجديدة، ضريبة الصليان، التي فرضت على «الدكاكين والمخازن والمغالق» بمقدار مصريتين على كل سكرة أو مفتاح، وهذا مما أثار أهالي دمشق ودفعهم للهياج ضد هذا الرسم، الذي حسبوه جزية، وهي

الضريبة المفروضة على أهل الذمة. وحالاً أغلقت الحوانيت احتجاجاً على هذه الضريبة، واخذ الناس يتجمهرون في باب الجابية تعبيراً عن سخطهم على فرض ضريبة «الصليان» الجديدة، وضربوا المنادي بهذه الضريبة، إذ كانت طريقة المناداة في الاسواق والاحياء هي وسيلة الاعلام الرئيسية في ذلك الزمن وتعبيراً عن احتجاج الاهالي على الضريبة الجديدة قامت جماعة من مشايخ الطرق الصوفية بإخراج «السيارة» والتوجه الى السرايا (دار الحكومة ومكان إقامة الوالي) للطلب من الوالي رفع هذه الضريبة (الصليان) عن أصحاب الحوانيت. وفيما هم سائرون مع جموع الأهالي في مظاهرة احتجاجية، ذات شكل صوفي ديني تمثل بالسيارة، وما يرافقها من طقوس مشايخ الطرق، تصدى لهم عدد من الجنود المرتزقة من المواصلة والكراكتة (من الموصل وكركوك)، واطلقوا عليهم النار بأمر من عثمان باشا كتخدا الوالي عبد الرؤوف: أسفرت المعركة عن مقتل اثني عشر رجلاً من المتظاهرين. فثار الاهالي وازداد هياجها على القتلة من الجنود المرتزقة[٢].

كانت العلاقات قبل هذا التاريخ سيئة جدا بين الاهالي وهؤلاء المرتزقة، الذين لا همّ لهم إلا سلب الاموال والاعتداء على الاعراض والتسلط على العباد، ويقول مخائيل الدمشقي ان «أحوالهم مع الناس غير مرضية، وصدر منهم مطاولات وأشياء مذمومة، فهاجت عليهم الاهالي»[٣]، وبخاصة بعد اعتدائهم على مظاهرة الاحتجاج ضد الضريبة الجديدة وقتلهم عدداً من العامة معظمهم من أهل الميدان مركز قوة الانكشارية المحلية،

التي كانت تتعاطف أحياناً مع العامة ضد السلطة المركزية وممثليها في ولاية الشام. ولهذا تحرك «آغاوات الميدان» زعماء الانكشارية المحلية برئاسة أبو عرابي الشوملي، وأقاموا حاجزاً بالقرب من قهوة السويقة، ومنعوا الناس من الذهاب الى دمشق مركز المدينة خوفاً من اعتداء المرتزقة واستعداداً للقتال. وفي اليوم الثاني استعد الاهالي في الميدان واحياء دمشق الأخرى وبدأوا في مهاجمة منازل المواصلة والكراكتة ونهبها. كما شرعوا في قتل كل جندي مرتزق التقوا به في طريقهم، «واستمرت البلد مخبوطة ثلاثة أيام».

أخافت هذه الانتفاضة الوالي عبد الرؤوف باشا، وكان، على غير عادة الباشوات، «لطيفاً عادلاً يحب الهدوء والسلامة»، فأرسل المنادي ينادي بأن ضريبة الصليان بطلت، فهدأت الامور قليلا واطمأن الناس وفتحت الدكاكين. ولكن «البلد بقيت مطهمزة»، والضغائن والاحقاد ضد المرتزقة من المواصلة والكراكتة استمر أوارها، وأخذت العامة تقتل كل موصلي وكوركتلي تجده في طريقها، ولاحقت الباقين الى ضواحي دمشق. «وكل يوم يطوش الحال معهم على المواصلة والكراكتة حتى عملوهم شغلتهم». وتدخل «أعيان البلد» لدى الوالي لابعاد هؤلاء عن دمشق. فأذعن الوالي للأمر، واضطر المواصلة والكراكتة الى الرحيل عن دمشق، «وراقت البلد». وأمست دمشق في يد العامة وقادتها وآغاوات اليرلية. وعندما بلغ خبر هذا العصيان الى استنبول هدد فرمان بعزل عبد الرؤوف باشا وتوجيه ولاية الشام الى محمد سليم باشا في

١٨٣١ م / ١٢٤٧هـ.

تولى محمد سليم باشا منصب الصدر الاعظم في استنبول وكانت له اليد الطولي في عملية ابادة الانكشارية سنة **١٨٢٦** وادخال النظام الجديد في العسكرية العثمانية. وقد هدفت السلطات العثمانية من وراء تعيين هذه الشخصية الكبيرة ذات الحنكة السياسية القضاء على عصيان دمشق بأهون سبيل.

دخل سليم باشا دمشق في **١٥** آب سنة **١٨٣١** بموكب عظيم وسعى **لإلقاء** الرعب في قلوب الاهالي عندما أرسل المنادي ينادي على الناس بتنظيف الازقة من الزبالة، فخافت الناس وفي «مدة يوم وليلة عزّلوا جميع حارات البلد وما بقي فيها زبالة مطلقا». وتمكن من السيطرة المعنوية على الناس الى درجة ان الجميع كانوا يهربون من أمامه عند مروره. ومضى شهر وسليم باشا يستعد للمعركة الفاصلة مع أهالي دمشق، وهو يُحصّن القلعة ويجمع العساكر ويُخَزن الذخيرة والمؤن. كل ذلك من أجل قمع تحرك العامة ومن حالفها وفرض ضريبة الصليان.

ولم تكن مهمة سليم باشا سهلة، إذ أن تمرد أهالي دمشق و «تزربنهم» ورفضهم دفع الضريبة وقتلهم للمرتزقة أو طردهم من دمشق، خلق في المدينة جوا ثوريا مشبعاً بالعداء لما تفرضه السلطة العثمانية المركزية. وكانت دمشق قد عاشت حيناً من الزمن في جو من الحرية (حسب مفاهيم ذلك العصر) إذ أن سليم باشا قبل وصوله، وبغية تهدئة الخواطر، أرسل من

استنبول أمراً عيّن بموجبه متسلماً (حاكما بالنيابة) على دمشق آغا الانكشارية المحلية الجوربجي محمد آغا الداراني. وكما يروي مؤرخ دمشقي معاصر، فإن الداراني «حكم بالعدل والانصاف نحو عشرين يوماً»، إلى أن حضر سليم باشا. وكان من الطبيعي أن ينشب الخلاف حالاً بين الوالي الجديد والمتسلم الداراني، الذي هرب ليلاً بعد ثلاثة أيام من وصول الوالي والتجأ الى الميدان (معقل الانكشارية المحلية)، ومنه الى عكا[٧].



مؤتمر الربوة

بعد أن اعتقد سليم باشا أن الأمر قد استتب لـه دعا أعيـان البلد، واطلعهم عـلى الاوامـر السلطانيـة. ومن جملتهـا فـرض ضريبة الصليان. فأسمعه الاعيان كلاماً معسولاً و «أنه بحسب أمره سيصير خير وان أهالي البلد طايعين الدولة العليـة». ولهذا أذن لهم بعقد ديوان عام في بيت المفتي للتشاور في كيفيـة فرض الضريبة الجديدة[٨].

هـذا ما كـان يجري في الـظاهر، أمـا في الخفاء فـإن النيران كانت تضطرم تحت الرماد، فتحت ستار قيام اهالي البلد بعمل سيران (نزهة) في الربوة (من ضواحي دمشق الغربية)، اجتمـع «جميـع آغـاوات البلد واعيـانها» و «جم غفـير من أهـالي البلد وتحـالفوا عـلى الطلاق ووضعـوا يـدهم عـلى السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأياً واحداً وحالاً واحدة وكلمتهم واحدة وصليـان لا يمشوا ولو ذهبوا (هلكوا) على آخرهم»[٩].

كان هذا المؤتمر الشعبي في «الربوة» حلفاً حقيقياً بين العـامة وقادتهم من جهة وآغاوات (قادة) الانكشـارية المحليـة من جهة

أخرى. وكنا اشرنا الى وقوع هذه التحالفات أكثر من مرة، على الرغم من التناقضات الواقعة بين العامة وأغاوات الانكشارية والتي كانت تبرز بين الحين والآخر. ولكن عندما يدلهم الخطب وتقع دمشق في مصيبة عامة أو يتهددها عدوان السلطة المركزية وجيشها، فسرعان ما يتفق العامة وقادتهم مع الانكشارية المحلية وهم أصلاً من ابناء البلد.

بناء على موافقة الوالي اجتمع في بيت المفتي إغاوات البلد واعيانها للموافقة على فرض ضريبة الصليان في الظاهر، ولتدبير خطة المقاومة في السر، وتمتين أواصر الحلف المعقود بينهم في مؤتمر الربوة ولكنهم لم يتجاسروا على مواجهة الوالي بالرفض العلني لخوفهم من بطشه، وحفاظاً على املاكهم ومراكزهم. إذ من المعلوم دائما أن الطبقات الدنيا هي الاكثر ثورية في أثناء التحركات الاجتماعية والاحتجاجية. وقد شجع هذا التساهل من الشرائح العليا للعامة الوالي ودفعه الى الاستمرار في خطته ظاناً أن الأعيان والآغاوات وافقوا فعلاً على جمع الضريبة الجديدة(١٠).

الفصل الثالث

الاستيلاء على السرايا

يوم الخميس الرابع من أيلول سنة ١٨٣١ بدأت عملية تخمين الدكاكين والمخازن في أحياء الميدان وباب السريجة والقنوات، وعندما وصل موظفو الوالي الى البزورية محل العطارين كان الجو قد توتر كثيراً، «والعالم ضايجة جداً» وفقد الموظفون هيبتهم وأخذوا يتلقون إجابات مليئة بالسخرية والتهكم(١١). وتحول هذا التهكم الى تمرد في حي العمارة، إذ ضرب الاهالي عصر يوم الجمعة ١٥ أيلول الموظفين المكلفين بتسجيل اسماء الناس والحوانيت. وحمل أهالي العمارة السلاح واعلنوا تمردهم وسرعان ما أيدهم أهل العقيبة والصالحية واعلنوا العصيان.

وعندما أرسل الوالي قوة عسكرية لاحتلال حي العمارة اغلقوا بوابة الحي واطلقوا الرصاص على عسكر الوالي، الذي اضطر للاحتماء بجامع المعلق وخان الدالاتية واستمر تراشق النيران طوال ليل الجمعة ـ السبت. وانتشر خبر تمرد اهالي حي العمارة الى سائر الاحياء، التي أبدت التمرد. وما أن أطلّ يوم السبت في ١٦ أيلول ١٨٣١، حتى «أصبحت أهالي البلد كلها

بالسلاح الكامل». والتجأ قسم كبير من الاهالي، خوفاً من نيران المدافع، الى الخانات المبنية بالحجر، والتي بامكانها ان تقاوم الحريق بخلاف البيوت، وان تحمي الاهالي من التعديات، في وقت فُقدت فيه السلطة[١٢].

في صبيحة يوم السبت ١٦ أيلول ١٨٣١ أرسل الوالي عساكره لمهاجمة الميدان فوصلوا الى سوق الغنم حيث هاجمهم أهالي الميدان من الجنوب واهالي الشاغور من الشرق فكسروهم وقتلوا عددا منهم. وتقدم الثائرون باتجاه السرايا واقاموا المتاريس في الدرويشية. وعلى أثر هذه الهزيمة سعى الوالي لكسب أهالي القنوات، الحي المجاور للسرايا، فارسل لهم كتاب أمان ونشر الاشاعات أن الصليان سيلغى في يوم الاحد فاطمأن اهالي القنوات ومعظمهم من الطبقة الميسورة غير المحاربة.

مساء السبت قام عسكر الوالي بفتح ثغرة في حائط السرايا تصل الى حي القنوات. وأفاق اهل القنوات صباح الاحد ١٧ أيلول وإذا بالعسكر تحتل زقاق المداس كرأس جسر لها وشرعت في الضرب والنهب، في هذا الحي الميسور، كما «أخذ العسكر حريم من القنوات وعملوا فيهنّ عملاً يرثى له».

وعندما وصل خبر احتلال القنوات من قبل عسكر الوالي أخذت النجدات تترى تباعاً من الميدان والشاغور وغيرها من الحارات لتحرير القنوات. ونشبت معركة رهيبة في أزقة القنوات اسفرت عن هزيمة العسكر وانسحابهم الى السرايا

والدوالك المجاورة لها.

وعندها بدأت معركة الهجوم على السرايا. في البدء هاجمت الجماهير حيطان الدوالك المحيطة بالسرايا واشعلوا النار فيها فهرب العسكر الى السرايا. ثم فتحوا ثغرة في حائط السرايا الملاصق للمطبخ واشعلوا النار فيه. وبعد معركة قاسية أمام باب الهواء (أحد أبواب السراي) تمكن اخيراً «أولاد البلد» (أي الانكشارية المحلية الاليرلية) من خلع باب الهواء والدخول الى السرايا. مما أجبر الوالي على الانسحاب مع عسكره بسرعة تاركين «الخيل والخراج والمتاع».

وكان من الطبيعي أن تدب الفوضى في الصفوف وفي عملية نهب محتويات السرايا مركز الوالي وادارته. ان عشرات السنين، التي تعيشها الجماهير خائفة أو خانعة الى مستمثريها سرعان ما تتحول في ساعات أو أيام الى ثورة جامحة تجرف كل ما تجده في وجهها. فالعامة الحانقة الغاضبة المنتصرة اتجه الآن حقدها. الدفين تجاه مركز الاستثمار والطغيان. واستمر نهب السرايا يومين وليلتين، حتى الاطفال شاركت في النهب. ووصل أمر النهب إلى درجة نهب حجارة السرايا وحديدها، ووصلت بهم الجرأة الى نهب كلار الحج والمحمل، الذي قسموه قطعاً قطعاً ووزعوه.

وصل الوالي الى القلعة والنار مشتعلة في السرايا فأمر عسكره بحرق سوق الجديد وسوق الاروام القريبين من سور القلعة. ورمى الوالي من وراء ذلك الى الهاء الثائرين باطفاء

النيران اولاً وإلى حماية أسوار القلعة من هذه الاسـواق القريبـة منهـا والتي عن طـريقهـا يمكن التسلل الى أسـوار الـقلعـة ومهـاجمتها. وكـانت ساعـات مخيفـة انـدعلت فيهـا النيـران في السرايا والـدواليك وسـوق الجديـد وسوق الاروام وجـانب من الدرويشية وجامع السرايا. ثم امتدت النيران الى سوق القميلة والمقاهي القريبـة من السرايـا وعدد من الابنيـة المجاورة. ومن أجل اطفاء النيران بذل الثائرون بمساعدة «المعمارية والفعالة»، جهـوداً جبّارة لمنـع الحريق من الامتـداد الى الاحياء المجـاورة، عن طريق هدم بعض الابنية وعزل النيران عن الحارات المبنيـة بالطين والخشب. وبعد يومـين انطفـأ الحريق وتحـوّلت السرايـا والمنـاطق المجـاورة لهـا إلى «**سمهـوانـة (سهلة ممهـدة) إذا وقف الإنسـان عنـد المحمصي الـذي بـأول سـوق الجـديـد يشـوف** المرجة»(١٤).

الفصل الرابع

حصار القلعة واستسلام الوالي وقتله

آ - جامع المعلق وخان الدالاتية:

بعد الانتهاء من السرايا توجه الثائرون لمحاصرة جامع المعلق وخان الدالاتية، حيث احتمى عدد من العسكر، كما اسلفنا. وسرعان ما تمكنوا من نقب حائط خان الدالاتية واشعال النار فيه فهرب العسكر منه إلى جامع المعلق المقابل له. واحكم الثائرون الحصار على الجامع وفيه حوالي ١٥٠٠ عسكري. واستمرت الحرب سجالا مدة ستة أيام. ولم تفلح جهود الثائرين في حرق الجامع المذكور لأنه مبني بالحجارة المتينة. وكانت مئذنة الجامع موقعاً استراتيجيا لمراقبة المحاصرين واصطيادهم. وبرز في هذا المجال ضابط العسكر قاضي قران، الذي فتك بعدد من الثائرين، «لأن ضربه لم يكن يخطي وكل واحد من أهالي البلد بيّن حاله (أمامه) يكون قوّصه حالاً من المئذنة حتى قتل جملة من أولاد البلد»[١٥]. ولكن عندما نفذت ذخيرة العسكر المحاصرين في اليوم السادس، أي في ٢٢ أيلول ١٨٣١، طلبوا الامان من «أولاد البلد» الثائرين على يد رشيد آغا أبراخ ابو عرابي الشوملي زعيم الميدان.

وعلى الرغم من الامان فإن ثورة العامة وغضبتهم أدت الى قتل التفكجي باشي لأنه كان ظالماً يعتدي على الناس بالضرب ويهتك أعراض النساء، ولأنه «بلص جملة ناس من اليهود والنصارى والاسلام في مادة الزبالة»[١٦]. ومن الذين قتلتهم العامة «اغاة السكمان» وكان قائد عسكر السكمان في القلعة في أيام الوالي السابق ومتهم بقتل شخص ميداني. فجرت له محاكمة وقتله (قوّصه) رمياً بالرصاص ابن المقتول الميداني. ومن جملة من قتلتهم العامة قاسم آغا العقيلي، وهو تاجر بغدادي وصاحب ثروة طائلة وجاه ونفوذ في استنبول والشام، ولما صدر أمر الدولة العثمانية بفرض ضريبة الصليان على الشام، حصل بفضل نفوذه ورشوته لكبار رجال الدولة على «براءة» بضمان ضريبة الصليان وجمعها من الاهالي، على أمل أن يستطيع جمع ثروة طائلة من وراء ذلك. وجاء إلى دمشق بانتظار الفرصة المناسبة لجمع الثروة وكان من الطبيعي أن يقف، هو وجماعته، الى جانب الوالي ضد العامة. وعلى الرغم من انه «تخفى وحلق ذقنه»، إلا أن الناس عرفته فقتلوه «وقطعوه اربع شقف في الصالحية».

أما كيخيا الوالي وخاله والقبجي، وهو رسول السلطان، الذي جلب فرمان فرض ضريبة الصليان في عهد الوالي السابق فوضعوا تحت الحراسة (البسق) في بيت المفتي. ومن بقي حيا من العساكر المستسلمة أخرجت من دمشق وسُفرت الى حمص[١٥].

ب ـ عريضة الاهالي للسلطان:

في اليوم الثاني للثورة، وقبل أن يسقط جامع المعلق في يد

الثوار اجتمع «أهل البلد ومواليها»(*) وقرروا رفع عريضة إلى «الدولة العلية» وختموها بأختامهم. وفحوى هذه العريضة كما أوردها صاحب «المذكرات التاريخية»، المعاصر للأحداث كما يلي(١٦).

«أفندم سلطانم أنه دخل الوزير محمد سليم باشا إلى الشام فخضعنا له الخضوع التام وكتبنا له الصليان برضى جميع الحارات إلّا أن حارة إسمها العمارة سكانها فلاحين غشم حواوين ومن حيوانيتهم شونوا (هاجوا) ساعتين زمان فوصل الخبر إلى الوزير فأرسل حالاً العساكر إلى البلد يقتلوا وينهبوا ويسبوا وأول ما هجم العسكر على حارة يقال لها القنوات نهبوها وسبوا حريمها ودوروا الحريق بها وهذه أول ما كتبت الصليان (أي رضيت بالتخمين للضريبة) وأرسل أمراً إلى القلعة يضربوا الطوب (المدفع) على البلد ومراده يخربوا البلد. فقمت أهل البلد لأجل أن تحامي عن عرضها ودمها وخلوا السراي فحالاً حرق السرايا ودخل القلعة ورمى الكباير بالحريق على كل دائر القلعة على هلقدر أسواق ودكاكين وجوامع وبيوت وغالبها يخصوا الحرمين الشريفين خلاها كلها سمهدانه بالحريق ورمي الكلة (القنبلة) لم عمال يفتر من القلعة لا ليل ولا نهار على البلد وما عمال يخلي أحداً يوعى على حاله. أفندم الشكوى إلى الله ولكم لأننا نحن عبيدكم ورعاياكم خاضعين

(*) الموالي هم من الأشراف والسادات المتحدرين من فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب. والمقصود بأهل البلد كبار التجار وزعماء طوائف الحرف وكذلك زعماء الانكشارية المحلية، الذين اتصفوا بالأمية فلم يكن بامكانهم الكتابة والقراءة.

لركابكم وطايعين أوامركم نترجي من مراحمكم بإرسال سايس من بعض سياسكم لأجل أن يحكم فينا حكم المولى على العبيد» .

مع هذا الكتاب أرسل العلماء والأعيان دعاءً على صورة أشْعار منظومة وأرسلوا الكتاب مع شخص من أهل البلد أسمه سليم آغا بن السقا أميني، لأنه من تجار اسلامبول وهو خبير في الدروب. وقد أخذ أجرته سلفاً مقدار خمسة عشر كيساً على شرط أن يعود قبل خمسة وأربعين يوماً. ولكن السلطان سجنه فور وصوله إلى استنبول، إلى أن تشفع له البعض وأطلق سراحه ووصل دمشق في ١١ كانون الأول ١٨٢١، بعد انتهاء الثورة.

ومن هذه العريضة يتبين أن الثورة لم تكن موجهة أصلاً ضد السلطة المركزية باستنبول، بل كانت تعبيراً عفوياً غريزياً عن حقد العامة ونقمتها على الطبقة المستثمرة في ولاية الشام. ولم تكن أفكار العامة على درجة من النضج تتمكن من فهم الطبيعة الطبقية للدولة العثمانية في المركز. فالأوهام حول قدسية هذه الدولة كانت تملأ الرؤوس وتحد من إعلان العصيان الكامل على الدولة المركزية بالاضافة إلى ذلك لم تكن الطبقة الثورية الجديدة المؤهلة لقيادة الثورة قد تكونت بعد. وفي اعتقادنا أن الهدف الأساسي لزعماء الثورة من مدنيين وأغوات إنكشارية لم يتعد السعي للحصول على نوع من الاستقلالية في الولاية وضمان مصالحهم والحد من نفوذ السلطة

المركزية وبالتالي تقليص الأموال المـرسلة إلى المركـز، والاستئثار بالقسم الأكبر من الغنيمة.

جـ ـ تشديد الحصار على القلعة والوضع في المدينة

بعـد استيلاء الثـائرين عـلى خان الـدالاتيـة وجـامـع المعلق شـدّدوا الحصار عـلى القلعة وأقـاموا المتـاريس حـولهـا من كـل الجهات المحروسة من قبل ثائري الحـارات. فكانت كـل حارة مسؤولة عن متراس أو أكثر. كما حصل الثائـرون على مـدفعين نصبوا أحدهما في الدرويشمية والآخر في سوق الأروام وشرعـوا في رمي القلعـة بالقنـابل. وبـالمقابـل كـان في حـوزة الـوالي في القلعة عددٌ من المدافع، التي ترمي المدينة بقنابلها ولكن تأثيرها كان ضعيفاً وقوتها التدميرية شبه معدومة. وتوفر لـدى الوالي في القلعة حوالي ألف ومئتي جندي بالاضافة إلى سكـان القلعة من أبنـاء البلد وعـددهم **٣٠٠** جنـدي. فيكـون المجمـوع **١٥٠٠** جندي. وفي اليوم الثـاني للحصار قـام الوالي **بمصـادرة** المؤونـة والذخيرة من بيوت القلعة وأخـذ يوزعهـا **بالتقنين**، حتى تكفيه أثناء الحصار. ويبدو أن الوالي لم يكن يقدّر قوة الأهالي والطاقـة الثورية المخزونة لـديهم وحقدهم عـلى كل من يفـرض ضريبـة جديدة عليهم. ولهذا لم يتخذ، قبل **الثورة**، الأجراءات الكافيـة لتخزين المؤن والذخائر في القلعـة. وكان هجـوم العامـة، على الـرغم من مقدمـاته ودلائله السـابقـة، **مبـاغتـاً** بـالنسبـة إليـه ولاعوانه وعسكره. ولهذا فـإن كمية المؤن والـذخائـر في القلعة كـانت قليلة بالنسبـة إلى هذا العـدد الضخم من العسكـر. ولم

يكن في الحسبان أن حصار القلعة سيكون محكماً ومنظماً إلى الدرجة التي وصل إليها.

قاست الناس أثناء حصار القلعة الأمرين. فتعطلت الأعمال وأغلقت الحوانيت أبوابها، و «خانات الصنعة» مقفلة والحرفيون لا يتمكنون من العمل وهم إما قابع في بيته أو «مزربن» ثائر وراء المتراس. ومع ذلك فإن الطعام كان موجوداً في البدء والمواد الغذائية رخيصة الثمن ثم بدأت أسعارها بالإرتفاع بعد انقطاع وصول البضائع من المناطق الأخرى.

إستمر حصار القلعة مدة أربعين يوماً لم يبق فيها أثر للسلطة العثمانية «وصار الحكم بيد أولاد البلد في وقت الحصار وأغاوات البلد استقاموا في بيت البكري يتعاطون الأحكام» ويبذلون الجهد لإدارة المدينة وقيادة الثائرين وتشديد الحصار على القلعة.

وبعد مرور عشرين يوم على حصار القلعة وصل إلى دمشق الجوريجي الداراني، الذي مرّ ذكره سابقاً وحكم الشام مدة ثلاثة أسابيع قبل مجيء سليم باشا، ثم هرب منها إلى عكا والتجأ إلى واليها عبد الله باشا. واستقبل الجوريجي الداراني في دمشق «بعراضة عظيمة»ص ٢٣ واشتدت العزام بمجيئه «وتقوت المتاريس والناس تواقحوا وصار الجوريجي رأس الجميع».

وكان من الطبيعي أن تدب الفوضى والتعديات في المدينة،

ولهـذا فإن بـوابات الحـارات(*) بقيت مقفلة عدة أيـام. وعـلى الـرغم من الفوضى لم تحـدث تعديـات على النصـارى، الذين اتفق وجـوهم مع اغـارات الانكشاريـة على إرسـال عـدد من الخفراء (قلالق) لحماية النصارى وعلى نفقة هؤلاء(**).

وأكبر شاهـد على أن العـامة لم تـظهر أي نـوع من التعصب والاعتداء على النصـارى حسب رواية المؤرخ المسيحي المعـاصر

(*) كانت احياء المدينة مقسمة إلى مجموعات سكنية مـوزعة عـلى أساس النسب أو الدين أو المهنة. ولكل حي أو محلة حارة أو أكثر ولها سـوقها ومسجـدها أو كنيستها وحمامهـا، رغم أن المدينـة كمجموع كـان لها أسـواقها الـرئيسية المشتركة. وكان لكل **زقاق** (أو حارة) من أزقـة دمشق القديمـة بوابـة وكانت البـوابات تقفـل عند الحـاجة أو عنـد الخوف من غـارة أو هجـوم متـوقـع. والواقع أن حارات مدينـة دمشق ـ كسائر المدن الشـرقية الـوسيطة، كـانت أشبه بمدن صغرى ضمن المدينة الأكبر.

(**) لم تتعرض الأقلية المسيحية اثناء ثورة ١٨٣١ لأي **اعتداء** من الثائرين وكان وضعها هادئاً ومطمئناً نسبياً. ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبـة لأغنياء اليهـود وبخاصة الصيارفة منهم. والمعروف أن الصيارفة سيطروا في هذه الفترة على مالية استنبول ودمشق وعكا، وكانت مصالحهم مرتبطة مع مصالح الحكام. ولهذا **فهم** من مؤيدي فرض ضريبة الصليان، ومن سعى لفرضها وجمعها. ولهـذا فإن حقـد العامـة توجـه أيضـاً ضـدهم **بصفتهـم** جـزءاً من الـطبقـة المستغلة المستثمـرة. وقد دفـع الصراف اليهـودي روفـائيـل شحـادة مبـالـغ ضخمة من المال للثائرين. وكان عليه أن «يذبح كل يوم ثلاثة رؤوس غنم ويفلفل (يطبخ) ثلاث حلل أرز ما عدا التنبـاك والأنقال والفـواكه والعـرق والنبيذ» وكان يحضر إلى عند هذا الصراف يومياً أحد اغاوات اليرلية ويـأخذ «على سبيل المحبة مبلغاً من المال». وتاريخ الثورات في العالم يعرف حوادث مشابهة لما جرى في دمشق. إذ أن الثورات ذات المحتوى الاجتمـاعي كانت تصب جام غضبها على مستثمريها بمختلف ألوانهم ونحلهم.

للأحداث صاحب كتاب «مذكرات تاريخية»، قال المؤرخ: «وأما بطريرك الروم (متودوبيوس) فلم يعمل عليه أحد ثقلة (إزعاج) بل جميع اغاوات البلد توصي فيه وفي النصارى». ويستمر المؤرخ قائلاً أما الذي أُرهق من النصارى منهم المعمارية والنحاتين(***) الذين أجبروا على بناء المتاريس، إلا من رشى منهم قادة الثورة فتخلص من هذا العمل الشاق والخطر(١٧).

لم يستطيع الثائرون الاستيلاء على القلعة بسبب مناعة أسوارها وكثرة المدافعين عنها (عددهم ١٥٠٠ جندي). ولم يتمكن المدفعان اللذان يملكهما الثوار من فتح ثغرة في سور القلعة. ولهذا قرّ الرأي على وضع لغم في أسفل البرج المواجه للدرويشية. فأتوا بعدد من المعمارية والنحاتين النصارى لحفر حفرة بجانب البرج لوضع اللغم فيها. ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأن «ضرب الطوب والرصاص عمّال» أثناء الحفر. وكانت الخطة موضوعة على أساس هجوم الثائرين من الثغرة التي سيحدثها اللغم في السور. «فاجتمع لذلك أهالي البلد كل حارة بحارتها وتهيئوا لأجل أن يهجموا»، بعد انفجار اللغم. ولكن اللغم حسب تقنية تلك الأيام لم يحث الثغرة المطلوبة، على الرغم من مساندة المدفعين له في إحداث الثغرة.

وبدأت محاولة ثانية لوضع لغم في السور من داخل طاحون

(*) كانت حرفة البناء في يد المسيحيين. حول هذا الموضوع انظر مادة نحات في «قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي جـ ٢ دمشق ١٩٦٠، ص ٤٧٩.

الزرامزية. وقاسى المعمارية والنحاتون الأبرين واجبروا على الحفر ليلاً نهاراً. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل[١٩].

د ـ المفاوضات واستسلام الوالي

في هذه الاثناء كانت مؤن القلعة قد نفذت مما أجبر الوالي على إجراء المفاوضات مع قادة الثورة. وأول عمل قام به سليم باشا إخراجه الجند السكمان وهم من «أولاد البلد»، وكانوا حماة القلعة قبل الثورة. وبعد يومين طلب الوالي الأمان له ولعسكره. «فاجتمع أعيان البلد وكتبوا حجة إلى الوزير (الوالي) أن يطلع في أمان أعيان البلد وأعيان البلد طلبوا من الوزير الأمان» والا يغدر بهم فيما بعد. واتفق الطرفان على خروج الوالي من القلعة في اليوم الثاني.

ونلاحظ أن هذا الاتفاق أغفل أمر الصليان ولم يشر فيها إذا كان الوالي سيلغي الضريبة الجديدة أم سيبقيها؟.. وهذا مما أثار حفيظة العامة وزاد من هياجها. والملاحظ أن الهياج من هذا الاتفاق وصل إلى أهل «الضيع» أي القرى، الذين زحفوا يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٨٣١ مع «أهالي الحارات» «ناحية باب القلعة مستعدين بالاسلحة، فلما نظرهم أعيان البلد أبقوا طلعة الوزير إلى الليل» خوفاً من قتل العامة للوالي وعسكره. وفي مساء ٢٥ تشرين الأول ١٨٣١ قَدِمَ أعيان البلد وأخرجوا الوالي وحاشيته (عددهم ١٠٧ أشخاص) ووضعوهم في بيت محمد باشا العظم وقدموا لهم الطعام واللباس. أما بقية العسكر فاقتسمتها واستضافتها الحارات (الميدان، الشاغور،

العمارة، العقيبة وسوق ساروجا).

وعندما انتشر صباح الخميس ٢٦ أكتوبر ١٨٣١ خبر استسلام الوالي وعسكره عمّ الفرح الناس «وراقت البلد وانفكت المتاريس وفتحت الخلق دكاكينها» بعد حصار للقلعة وكفاح وراء المتاريس استمر أربعين يوماً[٢٠].

هـ - مقتل الوالي

في اليوم الثاني لاستسلام الوالي وعسكره، سُفِر العسكر من دمشق باتجاه حمص مرافقين بحراسة مشددة حتى القصير على بعد ١٧ كم شمالي دمشق. أما سليم باشا فنُقل، **تمهيداً** لقتله كما تشير **الدلائل،** من بيت محمد باشا العظم إلى بيت الكيلاني في العصرونية تحت ستار أن البيت الجديد أوسع له. وأقاموا عليه حراسة مشددة. وبعد تسفير عسكر الوالي في ٢٧ تشرين الأول ١٨٣١ وزوال أي خطر من قبلهم. في الساعة الواحدة من الليل عمل الثائرون على تصفية الوالي وأعوانه المقربين. فأحضروا في مساء ٢٨ تشرين الأول **كيخيا** الوالي وخاله من بيت المفتي، حيث كانوا محتجزين بعد استسلامهم في الجامع المعلق، إلى مكان إقامة الوالي في بيت الكيلاني. وبعد وصولهم **بثلاث** ساعات دخل الثائرون وقتلوا كيخيا الوالي وخاله والقبجي **والسلحداد** والخزندار والمهردار[*] وعندما سمع الوالي الضجة في باحة الدار أغلق الباب من الداخل «وكان عنده

(*) **والسلحداد** صاحب سلاح الوالي أو البادر والخزندار وكيل الخزينة وهو غير الصراف مدير المالية والمهردار صاحب التشريفات أو مدير غرفة الوزير.

مملوك وطواش صاروا يدكوا لـه وهو يقـوص»، أي يطلق النـار من نـوافذ الغـرفة ممـا أدى إلى قتل سـتـة أنفـار من الثـائـرين. وعندها اضطر الثائرون إلى ثقب سقف الغرفة ورميه بالرصاص من علٍ. وهجمت الناس على حاشيـة الوزيـر (وعددهـا ١٠٧ أشخاص) المثقلة بالغنائم والاسلاب، التي اكتنـزوها ممـا مضى وهي من ثمـرة تعب العامـة والفلاحـين وكدهم. «فشلحـوهم بالزلط (عراة) وأخذوا منهم شيئـاً لا يحصى حتى كادت النـاس تقتـل بعضهـا البعض لأجـل النهب. لأنــه طلع معهم شيء يدهش العقل لكونهم خاصة الوزير (الوالي) وكل ذخاير الوزير كـانت معهم». وبعد أن أصبحوا عراة على هذا النحو اقتادوهم إلى جـامـع العصـرونيـة «مضـار أهـل الخـير من أهـالي البلد» يتصدقون عليهم ويكسوهم ويسفروهم شمـالاً. وكان الأغنيـاء في ذلك العصر يضعون نقودهم الـذهبية في صـرر من القماش المشمـع ويخفـوهـا في الأرض أو في حيـطان الغـرف. وتـوقـع الثائرون أن يكون الوالي قد خبّأ أمواله في الغـرفة وصـح ظنهم فحفروا في أرض الغرفة فوجـدوا عدة «مشمعـات ذهـب»[٢١]، وهي أكياس مليئة بالذهب ومحفوظة بالمشمع بشكل جيد.



الفصل الخامس

الحكومة الوطنية الشامية

بعد استسلام الوالي في القلعة هدأت الأمور وأخذت الناس تعود إلى أعمالها وهي مطمئنة نوعاً ما. ولكن مقتل الوالي بعد يومين من استسلامه بعث الرعب في قلوب الناس، التي لجأت إلى بيوتها خوفاً من مضاعفات يمكن أن تحدث.

وهذا ما جرى بالفعل، إذ سرعان ما حدث شجار (طوشة) في يوم السبت ٢٨ تشرين الأول ١٨٣١ «بين أولاد الشاغور وأولاد «الحارة التي، تحت القلعة الغرباء» أدى إلى مقتل ١٢ شخصاً، وكادت تحدث فتنة لولا تدخل أغاوات البلد وجرت المصالحة يوم الأحد بعد عزيمة ومأدبة غذاء قام بها، المصلحون. ويبدو أن الشجار نشب بسبب الخلاف على إقتسام منهوبات الوالي وحاشيته.

بعد مقتل الوزير «تقلد الحكم أولاد البلد» وعينوا أغاتين لحراسة القاعة مع مئتي نفر هم علي آغا عرمان (من الشاغور) وأبو خليل الدقاق (الميداني). وكان أغوات البلد، هم زعماء الانكشارية اليرلية، بزعامة الجوزيجي الداراني (من القنوات). «وعملوا دار الحكم في بيت المتولي»، وبعثوا المنادي ينادي بما

تم من إجراءات وإن الحكم «باسم الشرع حسبما رسم أغاوات البلد» كما عينوا خليل آغا وردة من الميدان في منصب تفكجي باشي وآغا آخر في منصف أوضباشي. وبعد اتخاذ هذه الاجراءات هدأت الأمور «بعدما كانت البلد كنار جهنم». وعادت الناس إلى أعمالها وفتحت الأسواق ودار دولاب العمل.

وهكذا ألّف الثائرون حكومة وطنية شامية كان لأهل الميدان معقل الانكشارية اليرلية اليد الطولي فيها. ولا نعلم مدى مشاركة العلماء من رجال الدين في هذه الحكومة، فمصادر ذلك العهد لا تشير إلى موقفهم. ولكننا نرجح أنهم باركوا قيام الحكومة الجديدة بشيء من التحفظ مرده إلى الأسباب التالية:

١ ـ كانت العائلات الدينية المقيمة في المدينة القديمة تنظر نظرة ريبة وتعال، وحتى احتقار إلى زعماء المجموعات شبه العسكرية المقيمة في الضواحي. فأعضاء هذه المجموعات العسكرية هم، في نظر العلماء، وبطبيعة عملهم عنصر عابر في المجتمع في ذلك الحين. فهم معرضون للقتل أثناء قيامهم بوظيفتهم في مرافقة قافلة الحج أو أثناء المعارك بين القوى المتصارعة في المدينة أو من قبل حاكم قوي. وهم عرضة أيضاً لمصادرة أملاكهم مما يحرم أقرباءهم من ترسيخ مواقع عائلاتهم. ونادراً ما نشط أغوات الانكشارية في أمور المدينة الفكرية والدينية ولم يشغلوا مناصب شرعية أو أداروا الأوقاف. ولهذا فقد عاش الأغوات على هامش الحياة الدينية والفكرية

للمدينة. ونظر إليهم العلماء نظرة التعالي والتكبر والاحتقار الضمني.

٢ ـ لم يبدأ الاندماج الاجتماعي بين الشرائح العليا أي: أغوات الانكشارية المحلية والعلماء بما فيهم الاشراف والتجار الاغنياء إلّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما قبل هذا التاريخ، وفي فترة ثورة ١٨٣١، فإن كل فئة من هذه المجموعات الثلاث كانت تتزاوج فيما بينها وهي منغلقة على شريحتها الاجتماعية وعائلتها ونفسها وتفكيرها.

٣ ـ كان زعماء الانكشارية المحلية (اليرلية) مستقلون إلى حد بعيد عن استنبول في أمر تعينهم. وكذلك الأمر بالنسبة للتجار الأغنياء وأرباب الحرف فإنهم وصلوا إلى مراكزهم عن طريق المناورات الجارية في إطارالسياسة المحلية للمدينة. أما كبار العلماء فإن بقاءهم في مناصبهم كان متوقفاً على وجود نصير قوي لهم يدعمهم في استنبول ويجدد تعيينهم لقاء أموال ورشاوى معلومة. ولهذا فإن كبار العلماء كانوا يخشون الصدام المباشر والعلني مع السلطة المركزية بعكس زعماء الانكشارية (الأغوات) وقادة المدينة الآخرين من التجار وأرباب الحرف.

٤ ـ إن أحد دعائم القوة الحقيقية للعائلات الدينية، عدا عن السلطان الروحي على العامة، هو إدارتهم للأوقاف وحيازتهم للثروات عن هذا الطريق. وهم كانوا يخشون لهذا السبب راديكالية تحرك العامة وعمق هذا التحرك وسير في طريق تجريدهم من إدارة الاوقاف وما تدره من ثروة وامتيازات

وجاه وسلطان. كما أنهم خافوا من أزدياد نفوذ أغوات الانكشارية المحلية في إدارة المدينة وتسريخ اقدامهم في السلطة الجديدة المستقلة عن العاصمة استنبول. وهذا سيتم على حسابهم.

٥ ـ كانت العائلات الدينية تسعى في القرن التاسع عشر لغرس جذورها أكثر فأكثر في الاقتصاد المحلي، سواء في حقل الحرف أو التجارة والتبادل أو في مجال الحصول على الأراضي تصرفاً أو حيازة. ومن هنا سعوا للتكيف بمهارة مع ضغوط العامة عليهم وسعيهم للسيطرة عليها وتهدئتها إزاء ضغوط السلطة العثمانية المرزية ومتطلباتها الموجهة أساساً لاستثمار العامة وإرهاقها. لقد سعت تلك العائلات إلى إمساك العصى من منتصفها والسير في منتصف الطريق بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة في استنبول. وأخيراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فضلت العائلات الدينية الاتجاه كلية نحو استنبول مما أوجد فراغاً سياسياً في السياسة المحلية ملأته العائلات المتحدرة من منابت أخرى سنتعرض لها في فصل آخر.

هذه هي الاسباب الرئيسية، في رأينا، التي دفعت المؤسسة الدينية العليا إلى التردد في تأييد الحكومة الجديدة تأييداً مطلقاً. وعلى كل حال فالأمر لم يعد في يد هذه المؤسسة وفقدت سلطتها إلى حين على عامة الشعب وباتت ضعيفة لا حيلة لها. فالبلد أمست في يد الشربجي الداراني (من القنوات) ورشيد نسيب

الشـوملي (من الميـدان)[٢٢]. ولكن مخائيـل الدمشقي المعـاصـر للأحداث يذكر قيام «ديوان الأعيان والافنديـة»[٢٣]. والمقصود هنا بالاعيان[*] هم قادة الانكشارية اليرلية وبالافندية القـاضي والمفتي ونقيب الاشـراف وخطيب الجـامع الأمـوي وغيرهم من العلماء (رجـال الـدين). ولكن وعـلى الـرغم من وجـود هـذا الديوان فـإن الحكم أمسى الآن في يد الانكشـارية اليـرلية ومن المحتمل أن يتحول هؤلاء بسرعة، كما جرى في فترات سابقـة، من ثائرين يساعدون المظلوم والمستثمر إلى طبقة حاكمة جديـدة تصول وتجـول دون حسيب أو رقيب، عـلى الـرغم من إعـلان المنـادي بـأن الحكم هـو «بـاسم الشـرع» ولكن «حسبـما رسم أغاوات البلد»[٢٤] من الانكشاريـة الشاميـة. ومن الطبيعي أن يتبوأ «أغاوات البلد» المنـاصب الرفيعـة في الحكومـة لأنهم هم قـادة الثورة عسكـرياً، وصـلاتهم بـالحـرفيـين، وبعضهم جـزء منهم، قوية. وبعد ثورة استمرت أربعين يوماً كان من الطبيعي أن يحكم من حمـل السـلاح ومن لـه خبـرة في شؤون القتـال والحكم.

لـقـد كثـرت الـشـائعـات حـول مـوقـف الـسـلطان مـن ثـورة أهـالي دمـشـق. ودب الخـوف في قـلوب البعض من سـوء العـاقبـة. وأخـذت الحـركـة التجـاريـة في الركود، لأن تجار المدن الأخرى امتنعوا عن البيـع والشراء مـع دمشق، ووصـل الأمـر بتجـار بيـروت أنهم نقلوا ارزاقهم من

(*) اختلف مدلول الأعيان وفق المنظار الذي يقيّمون به: فهناك منظار اقتصادي متعلق بالثروة، ومنظار ثقافي، ومنظار ديني، ومنظار عائلي، ومنظار اداري.

دمشق تحسباً من انتقام السلطان وهـدمه لهـا. وأخـذت بعض العائلات الميسـورة تغادر دمشق إلى الضـواحي. وهذا كله أدى إلى ارتفـاع موجـة الغـلاء واحتكـار القمـح من قبـل التجـار، وبـدأت العامـة تشعر بـالضيق من الغلاء أولاً ومن تصـرفـات بعض أغوات اليرليـة الحاكمـة ثانيـاً. وفي هذه الأثنـاء بدأت أخبـار حملة ابراهيم بـاشـا تصـل مشـوهـة إلى دمشق وأحيـانـاً مغلوطة. مثل الاشـاعة القـائلة أن ابراهيم بـاشا أتى من مصـر بـأمر السلطان لمعاقبـة عبـد الله باشـا والي عكا لأنـه أيـد ثـورة دمشق. ومن ثم سينتقم ابـراهيم باشـا من دمشق بأمـر الدولـة العلية. ومعنى ذلك أن دمشق ستتعـرض لهجومـين من الشمال والجنوب.

«وفيما الناس في هذه الأفكار المكـدرة» وصل في ١٥ تشـرين الثاني سنة ١٨٣١ ساعي البريد(*) من اسلامبول وفي جعبته فـرمان من السلطان يـوجه فيـه ولايـة الشـام إلى والي ايقـونيـا علوش باشا. وجاء في الفرمان أيضاً أن المتسلم من قبل الدولـة سيصـل قبل الـوالي. وعنـدمـا شـاع النبـأ عن طـريق المنـادي اطمأنت الناس قليلاً تأسيس ادارة البوسطة.

شـرعت الحكومـة الشاميـة الجديـدة بـالاستعـداد للعـواقب والأحداث المقبلة. إذ لا يعقل أن تستسلم الحكومة المركزيـة في استنبـول لإدارة ثـورة شعبيـة أدت إلى مقتـل الـوالي وخـالـه

(*) كان سعاة البريد من التاتار قبل تأسيس ادارة البوسطة.

وكتخداه وعدد من أعوانه وعسكره وطرد الباقين وحرق السرايا والاستيلاء على القلعة.

كانت أولى الاجراءات التي اتخذها «اغاوات البلد» ، أعمدة الحكومة الشامية الجديدة، ترميم أسوار القلعة وأبراجها بعد الخراب الذي حل بها أيام الحصار. وشرعوا في اصلاح بوابات الحارات وأبواب المدينة وبناء بوابات جديدة حصنوها بحجارة متينة وزغاليل. وقرروا الخروج إلى شمالي دمشق **وملاقات** القوات العثمانية، إذا قدمت، ومقاتلتها شمالي القصير في دير العصافير. ويبدو بعد نظر أعضاء الحكومة الشامية الجديدة من خلال دعوتهم وتنبيههم «على أهل الضيع بأن الذي ما عنده بارودة يشتري والذي ما عنده سلاح يشتري وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا البواريد والسلاح حتى صار عند جميع الناس السلاح» (٢٥).

إن دعوة الفلاحين في القرى لحمل السلاح والوقوف إلى جانب المدينة لصد الهجوم العثماني المتوقع يحمل في طياته معنىً اجتماعياً عميقاً. دلّ على تكوّن حلف بين حرفيي المدينة وتجارها من جهة والفلاحين من جهة أخرى ضد الدولة الاقطاعية العثمانية، التي استثمرت كلا الفئتين: الحرفيين والفلاحين. والآن جاء دور هؤلاء في المقاومة والتمرد، في ظل اجواء مضطربة ووضع قلق واختلاف في موازين القوى.

ولكن أكثرها اعتقد أن ذلك من جملة الشائعات الرائجة. ومع هذا فإن الارتياح بدا على النفوس عندما شاع أن السلطان

عفا عن أهل دمشق عفواً تاماً من أجل سير قافلة الحجاج بأمان .

العودة المهزوزة للسلطة العثمانية

بعد ٢٥ يوم من وصول بريد السلطان حضر في ١٠ كانون الأول المتسلم فخرجت «أهل البلد لملاقاته في سهل القابون». «وعملوا عراضة عظيمة كل حارة لوحدها وكل آغا لوحده في القواص ولعب شعور الناس وفرحتهم بالخلاص من الحرب بعد عفو السلطان عن دمشق، وحمل في جنباته وعلى أنغام لعب السيف والترس والتراويد عرض عضلات القوى الثائرة في دمشق وبث الخوف في قلب المتسلم الجديد ومن ورائه الوالي القادم. وهذا المتسلم الجديد بصفته نائباً للوالي وممهداً للطريق أمامه استسلم للثورة، وأقام في السرايا «لا يعدل ولا يميل وثم (بقي) الحكم في يد أولاد البلد»[٢٦].

وعندما حضر الوالي في **٢٨** كانون الأول **١٨٣١** لم يجر له استقبال شعبي كنائبه المتسلم ولم يخرج لملاقاته الا «أعيان البلد». . . وكان قد قدم دمشق بعدد زهيد من العسكر خوفاً من الصدام مع أهالي الشام. فأراد أن يحكم الشام باللين واللطف. . وكان على الوالي الجديد علوش باشا أن يعالج مشكلة الغلاء وفقدان القمح وقيام **اغاوات** اليرلية باحتكار

الحبوب وخزنها مما أدى إلى بغض الناس لهم. وعلى الرغم من أن الوالي عمل بعد وصوله بثلاثة أيام ديواناً ضم أعيان البلد وأخبرهم «أن مولانا السلطان سامحكم بدم سليم باشا وفي ماله وحريق السرايا ومراده أن الفقير يعيش والحاج يمشي ولا يصير ثقلة (ضرر) على الرعية وأصحاب العرض وتكلم معهم على الغلا الحاصل على الخبز». ولكن الأمور سارت من سيء إلى أسوأ وارتفعت الأسعار أكثر فأكثر لا وجود لها، وليس هناك حسيب أو رقيب. ومن الذي يحاسب إذ أن الحكومة الشامية المؤلفة من أغاوات الانكشارية، التي احتفظت بسلطتها على الرغم من وجود الوالي، سعت للبقاء في مركز السلطة واستغلاله لتدعيم مصالحها الطبقية واحتكار قوت الشعب وبيعه بأسعار غالية. وعلى الرغم من سعي الوالي لكسب ود الفقراء، إلا أنه كان مهيض الجناح لا حول له ولا طول ولم تتجاوز القوة العسكرية القادمة معه ألف جندي، ليس بامكانها السيطرة على بلد ثائر وأغاوات حكام في يدهم السلطة العسكرية ومواقعهم الاقتصادية قوية ويسعون للبقاء في السلطة السياسية.

أثار ارتفاع أسعار الخبز من أربعة وأربعين فضة إلى ستين فضة للرطل نقمة الصناعية (عمال الحرف) ودفعهم للتظاهر ضد غلاء الأسعار. ولكنهم خافوا وتراجعوا عندما نزل التوفكجي باشي أبي وردة الميداني لاعتقالهم، وهو من محتكري الغلال. وعندما رأوه قادماً مع عسكره أعلنوا أنهم تظاهروا من أجل زيادة أجرتهم من معلمي الحرفة وأصحاب خانات

الصنعة. ولم يكن هذا المطلب يمسّ اعضاء الحكومة الشامية، التي بقيت مسيطرة رغم وجود الوالي ومتسلمه، وإنما الذي اغاظها هو الدعوة إلى تخفيض أسعار الخبز. ولهذا تمكن الصناعية من رفع أجرة حياكة القماش القطني وغزل الحرير وصاية الالاجة. أما حرفة الكريشاتية فرفض أصحابها زيادة الأسعار مما أدى إلى صدام أمام دكان عصاعيصه بين مالك الدكان والصناعية. واستغل تفكجي باشي أبي وردة هذا الصدام لاخضاع المعلمين والصناعية وابتزاز الأموال منهم[٢٧].

وبقيت الأمور سيئة في شهري كانون الثاني وشباط ١٨٣٢ والغلاء مستفحل والخبز «صار أسود مثل الكبد». ولا شك أن سبب ذلك هو احتكار الأغوات للغلال وانقطاع دمشق عن المناطق الأخرى والشعور بأن موسم الحج سيكون معدوماً هذا العام. ولكن العامة رأت أن السبب هو الحكام الأغوات، الذين وصلوا إلى السلطة على أثر ثورة أيلول ١٨٣١. وهذا مما دفع المؤرخ المجهول المعاصر إلى القول في تعليقه على الغلاء «وكل هذا الحال من عطل الحكم لأن الحكم بيد أولاد البلد مثل ما يريدوا يعملوا»[٢٨].

ومع مجيء نيسان ازدادت الأزمة التموينية تفاقماً وارتفعت أسعار القمح والشعير والأرز أكثر من السابق. وازداد الازدحام على الأفران. وجرت أكثر من خمسين عملية خطف للخبز من الأفران والأزقة، حتى أنهم خطفوا (نهبوا) عجين الخبز من الطريق ومن الأفران... وهذا أمر طبيعي «لأن الانسان يوقف نصف النهار حتى يصير له (دور) خبز» و «اشتد الحال بزيادة

والناس عافت بعضها»، إلى أن أتى الفرج من حماة. إذ أنهم كانوا «لموا قرض من البلد نحو مايتين ألف لأجل جلب غلة من حماة أسعافاً للشام». ومع وصول **قمح** حماة وقف خطف العجين والخبز و «انفرجت الشام نصف فرج»، ولكن الغلاء بقي مستفحلاً.

وزاد من استفحال الأزمة عدم سير الحج في تلك السنة (**١٨٣٢**) بسبب ثورة أيلول **١٨٣١** وامتناع جميع المقاطعات عن ارسال الأموال والمؤن المعتادة إلى دمشق قبل سفر قافلة الحج. وعلى الرغم من وصول «الحجاج الترك والأعجام» إلى دمشق وسعيهم لدى الوالي لتسيير قافلة الحج ودفعهم مبلغاً كبيراً من المال للوالي اكرامية لتسيير قافلة الحج، الا أن الوالي لم يكن له قوة كافية للقيام بواجبه الأول وهو قيادة قافلة الحج. وفي **٢٤** ذي الحجة سنة **١٢٤٧** وصل أمر الدولة العلية بعدم تسيير الحج هذا العام، بسبب حملة ابراهيم باشا على ولاية عكا وعزمه على التوجه نحو الشمال(٢٩).

الفصل السابع

موقع ثورة ايلول التاريخي

ان الموقع التاريخي لثورة ايلول ينبع من الظروف الاقتصادية الاجتماعية، التي اندلعت في احشائها الثورة. فخلافاً لما كان عليه الحال في اوروبا الاقطاعية، فإن رجال السلطة الاقطاعية العثمانية تواجدوا في قلب المدينة وعاشوا الى جانب سكانها يستثمرونهم مباشرة كما يستثمرون الفلاحين في الريف. ونجم عن ذلك احتكاك مباشر تحول في كثير من الاحيان الى صدام بين الحرفيين (الوجه الآخر للنظام الاقطاعي) وبين السلطة الاقطاعية المتمثلة بالوالي ونائبه (المتسلم) ودفتردار، (المسؤول عن المالية) وحاشيتهم والقوى العسكرية الاقطاعية الانكشارية بفرقها المتصارعة والمتخاصمة (من اليرلية محلية وقابيقول ودالاتية وغيرهم من المرتزقة).

ان إقامة هذه القوى في قلب المدينة واستثمارها الوحشي لسكانها عرقل عملية تطور الحرف الى المانيفاكتورات والرأسمالية المُبكِرة، وحدّ من استقلال المؤسسات الحرفية وضيّق الخناق على التنظيمات الحرفية الطامعة في الاستقلال وحرية التحرك الاقتصادي والراغبة في الخلاص من سيف

المصادرة والضرائب المرهقة ومختلف أساليب الابتزاز و «البلص» المعروفة انذاك.

وقد منع أسلوب الانتاج الاقطاعي الشرقي العثماني هذا من تراكم الاموال في يد التجار**ومنعهم**من استثمار اموالهم في مشاريع جديدة وقضي على روح الابداع لدى الحرفيين وعرقل بالتالي عملية انتاش البذور الرأسمالية ونموها. ونرى ان المدن الشرقية العثمانية عاشت ظروفاً تختلف الى حد بعيد عن حياة المدن الاوروبية في العصر الوسيط، حيث عاش الاقطاعيون في قصور محصنة في قلب الريف بعيداً عن المدن. ولذا فأن المدن تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتي. وعندما وجدت الظروف لتطور الحرف الى المانيفاكتورات والرأسمالية المبكر دخلت المدن الاوروبية الغربية في صراع عنيف مع الاقطاعية ادى في نهاية الامر الى انتصار المدينة البورجوازية على الريف الاقطاعي. وقد تُوج انتصار المدينة البورجوازية على الاقطاعية باندلاع الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، التي انضم فيها الفلاحون الى جانب البورجوازية ضد مستثمريهم من الاقطاعيين. ثم تطورت الامور بسرعة في القرن التاسع عشر وأخذ العمال في أوروبا ينفصلون فكريا وسياسياً عن البورجوازية. وقاموا بثوراتهم المعروفة في أعوام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١.

في الوقت الذي كانت المدن الاوروبية، وبخاصة الغربية، تثور ضد الاقطاعية ومن ثم ضد البورجوازية، كانت المدن

الشرقية العثمانية تعيش حياة مغايرة تماماً لما جرى في الغرب، على الرغم من الصراع الناشب احياناً بين السلطة الاقطاعية والحرفيين ومن حالفهم، كما جرى في ثورة أيلول ١٨٣١. وقد نجم عن سيطرة السلطة العثمانية على المنظمات الحرفية والتجار وعرقلة تطورهم النتائج التالية:

١ - عرقلة تطور الحرف إلى المانيفاكتورات فالرأسمالية المبكرة بسبب جشع السلطة الاقطاعية واستنزافها للفائض المادي لدى الحرفيين والتجار ومنع هؤلاء من التمتع بثمرة اتعابهم أو توسيع أعمالهم ودفعهم للعيش عيشة ظاهرها التقشف والفقر والابتعاد عن كل مظهر من مظاهر النعيم والرفاه خوفاً من سيف المصادرة المسلط على رقابهم(٣٠). أو تحسباً من اللصوص بسبب فقدان الامن. فهم كانوا يعلمون علم اليقين ان ارباحهم، إذا أظهروها، ستذهب عن طريق الضرائب والمصادرة والابتزاز الى جيوب موظفي الدولة الاقطاعية. وهذا مما أوجد لديهم ميلاً فطرياً لمقاومة السلطة الاقطاعية. على الرغم من انهم جزء متمم لها. وهم إذا ثاروا لا يثورون ضد قمة السلطة الاقطاعية القابعة في استنبول، بل يثورون ضد ممثلي هذه السلطة في الولايات. ومع ان القوى الثائرة في دمشق عام ١٨٣١ حشدت قواتها وهيأتها لملاقاة الجيش القادم من الشمال من استنبول أو حلب للانتقام من الثائرين، إلا أنهم سرعان ما أعلنوا ولاءهم للسلطة المركزية بمجرد عفو هذه السلطة عنهم وتغاضيها عن تمردهم. وهذا التناقض بين موقف ثائر وموقف خاضع هو حصيلة النظام

الحرفي المتمم للنظام الاقطاعي من جهة والمتناقض معه من جهة أخرى.

٢ ـ هذا الموقف المتناقض وجد تعبيره في موقف الفرق الصوفية، التي أيدت الثورة من جهة وكانت تدعو للخضوع للسلطان من جهة أخرى. ولا عجب في ذلك فالفرق الصوفية كانت، في الواقع، أحد وجوه التنظيم الفكري للحرفيين والتجار وفق معطيات ذلك العصر ومنطلقاته الاجتماعية والفكرية.

٣ ـ من أجل ضمان النجاح للمقاومة الفعّالة الناجحة ضد السلطة الاقطاعية في مركز ولاية الشام ـ دمشق ـ سعت التنظيمات الحرفية للاستفادة من الصراع الدائر بين مراكز القوى في الولاية وجذب القوى الناقمة الى جانبها، وهي قوى الانكشارية المحلية (اليرلية). وهذا مما أكسب الثورة زخماً عسكرياً مدرباً تمكنت بفضله من الاستيلاء على السراي ومحاصرة القلعة واحتلالها وتشكيل حكومة محلية. ولكن تأييد الانكشارية المحلية للثورة حمل بين جنباته بذور الضعف والتفكك. لأن هذه العناصر العسكرية، التي اعتادت على السلب والنهب والابتزاز ومشاركة السلطة الاقطاعية الحكم، سرعان ما فككت قوى الثورة ودبت الفساد والفوضى في الصفوف، وبخاصة بعد انتصار الثورة، وبعد أن شرعت هذه القوى في استثمار السكان كما كان الامر في السابق.

٤ ـ بسبب تلك الظروف وتخلف القوى المنتجة لم يكن

لدى الحكومة الوطنية الشامية المشكلة بعد انتصار الثورة اهداف واضحة ولم تضع أي خطة للعمل. وكان من الطبيعي، بسبب سيطرة الانكشارية المحلية عليها، ألا تختلف في ممارساتها عن الحكم الاقطاعي الشرقي العثماني السائد. ويعود احد أسباب ذلك ان القوى الاجتماعية الثائرة من الحرفيين لم تثر ضد النظام الاقطاعي كنظام - وهي الوجه الآخر لذلك النظام - بل ثارت ضد الظلم والتعسف اللاحق بها من السلطة الاقطاعية وسلبها لتخفيف وطأة الاستثمار الاقطاعي عن كاهلها وجعلها تشارك في جزء من الحياة السياسية بما يخدم وضعها الاقتصادي ويصون كرامتها من التعديات. وهذا ما يفسر سرعة ثورتها ضد الضريبة الجديدة المفروضة عليها.

٥ - لم يكن لدى الثائرين في دمشق عام **١٨٣١** نزعة قومية تسعى لاستقلال العرب عن الحكم العثماني. فمفهوم العروبة لم يكن له أثر آنذاك في نفوس الثائرين. ومعروف ان حركة النهضة العربية بدأت في لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولم تنتشر في دمشق الا في مستهل القرن العشرين.

وقصارى القول لم تحمل ثورة ايلول **١٨٣١** بين جنباتها أهدافا قومية تسعى لاستقلال العرب عن الحكم العثماني، على الرغم من وجود النزعة المحلية العادية كما لم يكن للثورة اهداف اجتماعية ترمي الى تغيير النظام الاقطاعي الشرقي

واستبداله بنظام آخر، لأن القوى الاجتماعية (البورجوازية) الساعية لمثل هذا الهدف، لم تكن قد وجدت بعد في قلب ذلك المجتمع. ومع ذلك فان ثورة ايلول هزّت اركان المجتمع الاقطاعي في بلاد الشام دون ان تؤدي الى تصدعه. ويعود سبب ذلك الى موقف القوى الثائرة من الحرفيين والانكشارية المحلية الشامية، التي كانت احدى افرازات النظام الاقطاعي. وقد ادى تراجع السلطة المركزية في استنبول وعفوها عن الثائرين الى اجهاض الثورة وخضوع سكان دمشق خضوعا اسميا مهزوزا للسلطة المركزية. ولم يكن بالامكان معرفة نتائج ذلك، لان حملة ابراهيم باشا على سورية عام ١٨٣٢ طمست النتائج المترتبة على ثورة ايلول ومهدت السبيل امام حملة ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام دون عناء يذكر.

الحواشي

(١) انظر حول تكون العائلات الدمشقية الموسرة العلمانية والدينية وكيفية تراثها وصعودها في معارج السلم الاجتماعي الاقطاعي الشرقي في القرن التاسع عشر بحثاً مقدماً إلى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام بعنوان: «طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ ـ ١٩٠٨». فيليب شكري خوري مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأميركية.

(١ مكرر) ألشي محمد جميل: «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر». دمشق ١٩٤٦. ص ٣٠١.

(٢) البيطار، عبد الرزاق: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» دمشق ١٩٦١. ص ١٢٤٣.

(٣) «مذكرات تاريخية» تتضمن ثورة دمشق والحريق الكبير فيها وقدوم ابراهيم باشا إلى الشام وحروبه فيها مع الدولة العثمانية وثورات فلسطين والدروز وأحوال حكومته فيها إلى أن خرج منها ورجع إلى مصر وعادت اليها تركيا. بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين. عني بنشرها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي. عن نسخة مكتبة الكلية الاميركانية في بيروت. مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) بدون تاريخ الطبع ص ٤٣.

(٤) مذكرات تاريخية... ص ٤.

(٥) مذكرات تاريخية... ص ٤ ـ ٥.

(٦) البيطار.. ص ١٢٤٣. مذكرات تاريخية... ص ٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه، ص ٩.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(١٢) مذكرات تاريخية... ص ٩.

(١٣) ان تفاصيل ثورة ١٨٣١ موجودة في «مذكرات تاريخية» ولذلك لن نشير دائماً إلى المصدر.

(١٤) أكثر هذه الأسواق لم يعد لها اليوم أثر بعد الحريق الذي أمر به مدحت باشا ومن أتى بعده لتوسيع شوارع دمشق. والأسواق المذكورة داخلة الآن في شارع النصر سابقاً شارع جمال باشا، وغربي سوق الحميدية (نسبة إلى السلطان عبد الحميد). حاشية المخلصي في الصفحة ١٣ من «مذكرات تاريخية».

(١٥) «مذكرات تاريخية»... ص ١٥ ـ ١٨.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٩.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨.. انظر حول وضع اليهود ومركزهم الاقتصادي المغربي، عبد القادر: «يهود الشام منذ مئة عام»، محاضرة القيت سنة ١٩٢٣ ونشرت في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٩. عدد تشرين الثاني، ص ٦٤٤ وما يليها. وقد أشرنا إلى وضع اليهود في مقالنا: «أحوال بلاد الشام» المنشور في المعرفة العدد ١٩٩، ايلول ١٩٧٨، ص ٤٢.

(١٩) مذكرات تاريخية... ص ٢٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٥ ـ ٢٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) الدمشقي... ص ٥٢.

(٢٤) مذكرات تاريخية.. ص ٣٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٦.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٤.

(٣٠) كتب محمد كرد علي، وهو العليم بذلك العصر أنه من يكن من «شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، وكان الناس يحاذرون أن ينشأ لهم شهرة في الثروة، والثروة تتجلى في الدار والفراش والدابة واللباس، وفي بذل المال لاقامة دور العلم وايواء اليتامى والمحاويج فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال» أي الحكام. خطط الشام. جـ ٦، ص ٦٥.

الباب الخامس

الخلفيات السياسية والاجتماعية لفتنة ١٨٦٠ في دمشق



اثر الحكم المصري (١٨٣١ - ١٨٤١) في سورية

في العاشر من محرم سنة ١٢٤٨ وصلت الى دمشق أخبار سقوط عكا في يد ابراهيم باشا . سقطت عكا في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ - ٢٧ ايار سنة ١٨٣٢ واستسلام والي عكا عبدالله باشا . وبعد ذلك بعشرة ايام وصلت تحارير من ابراهيم باشا الى أعيان دمشق يعلمهم فيها بقدومه اليها . « فهاجت الشام » وعقد الاغوات عدة اجتماعات مع الوالي قرروا على اثرها المقاومة . وشرعت الحارات بالاستعداد للحرب وسارت « العراضات » في احياء المدينة محرضة على القتال .

وصل ابراهيم باشا الى ضواحي دمشق (سهل كوكب) في ١٤ محرم ١٢٤٨ الموافق ١ حزيران ١٨٣٢ بجنوده النظامية المدربة على احدث الأسلحة والآخذة بأساليب الحرب البورجوازية الحديثة ومعها أعداد كبيرة من بدو الهنادي . وطلعت القوى العسكرية في دمشق لمقاتلة جيش ابراهيم باشا ظانة انها ستلاقي جيش احد الولاة العثمانيين الاقطاعيين . ولكن نظرة القوى العسكرية الشامية سرعان ما تغيرت عندما شاهدت المدافع المرتبة والنظام المستتب و « تقطعت قلوبهم »

من الخوف ، وسرعان ما لاذوا بالفرار بعد ان « قتل من اهالي البلد عشرة أنفس » احدهم « لحام دكانه في باب البريد حلبي اسمه سعود رجل أشبه مشهور بالمرجلة » ولكن ما فائدة « المرجلة » والقوة العضلية والشجاعة الفردية امام الجيوش المنظمة والعقل المفكر ومنهج التفكير البورجوازي ، الذي تلقنه جنود ابراهيم باشا على يد ضباط فرنسيين .

على اثر هذه الوقعة البسيطة فر الوالي والقاضي والمفتي وكلاراميني والنقيب وجميع اغوات الانكشارية من دمشق باتجاه حمص . ودخل ابراهيم باشا دمشق في ٢ حزيران ١٨٣٢ بعساكره المنظمة كل كتيبة يختلف لباسها عن الأخرى مما أدهش اهل دمشق وسلب لبهم وهز مشاعرهم وجعلهم يعيشون في حيرة من امرهم ، وهم المعزولون اكثر من ثلاثة قرون عن موكب الحضارة العالمية ، لا يشاهدون الا جند الدولة العثمانية الاقطاعية وصراعها وفوضويتها وقذارتها .

اقام ابراهيم باشا في عسكره في سهل القابون وأرسل المنادي ينادي بالأمان ومنع نقل الأسلحة او حملها وان عملة مصر اصبحت متداولة ومعترف بها . وعندما ذهب ابراهيم باشا للصلاة يوم الجمعة في الجامع الأموي توقف الخطيب محتارا باسم من يخطب ! باسم السلطان ، ام باسم محمد علي باشا . وعندما سأله العلماء رأيه اجاب : « انه عبد السلطان وان يخطبوا باسم السلطان ويدعوا لمحمد علي باشا » ويتبين من ذلك ان ابراهيم باشا لم يعلن مقاصده الحقيقية وكان مضطرا

لمجاراة الرأي العام وعدم مفاجأته بمشاريعه خشية التمرد . وفي اليوم التالي اقام ديوانا مؤلفا من عشرين شخص « من اعيان البلد ومن أعيان النصارى وواحد من أعيان طايفة اليهود وسماه ديوان المشورة لأجل ان تنظر فيه دعاوى الرعية والميري » .

ان سياسة ابراهيم باشا هذه أضعفت القاعدة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، التي استند عليها رجال المؤسسة الدينية المحلية واستمدوا منها قوتهم ونفوذهم . وهذا مما دفعهم اكثر نحو التذمر والدعوة الى عودة الحكم العثماني . كما ان الاتصال مع الغرب الرأسمالي وبداية سيادة العلاقات الرأسمالية في الاقتصاد افسحت المجال امام عدد من التجار والمتعلمين المسيحيين واليهود على جمع ثروات طائلة من جراء عملهم كوكلاء للشركات الرأسمالية الأوروبية . وهذا مما دفعهم للمساهمة والمشاركة في اعمال الادارة اذ ان السياسة والاقتصاد صنوان لا يفترقان .

ولم يكن من المألوف في ذلك الحين اشراك النصارى واليهود في الحكم ومعاملة الجميع بالتساوي ، وهذا مما أثار حفيظة الرأي العام المسلم ، الذي لم يألف بعد هذه الأمور . ولم يكن من السهل تقبل المساواة بين الجميع ، في عصر ساده التخلف والجمود وسيطرت فيه النظرة الاقطاعية الرجعية . ولم تكن انوار النهضة البورجوازية قد طرقت ابواب دمشق قبل ذلك الحين . وسنرى فيما بعد ان الحملة المصرية وما رافقها من دخول الأساليب الحديثة في الحكم والتفكير هزت اوصال

المجتمع الاقطاعي الحرفي الشامي ، وبذرت بذور التفكير البورجوازي ، الذي استقر في اوروبا منذ زمن بعيد .

سلبت عساكر ابراهيم باشا بنظامها واطاعتها للأوامر وعدم تعديها على الناس ودفعها لثمن ما تشتريه ، لب أهالي الشام ، الذين لم يروا من عساكر الاقطاعية العثمانية الا الفوضى وابتزاز الأموال والاعتداء على الحرمات . ولسنا من علماء النفس للقيام بدراسة لنفسية الجماهير المعتادة على امر ما ، حتى ولو كان متخلفا ، هل تتقبل الأصلح ام ترغب في البقاء على القديم ؟ . . والواضح ان انقسام الرأي في مثل هذه الأمور يبدو واضحا وتتداخل عوامل كثيرة في دفع الانسان للوقوف في هذه الضفة او تلك .

من أجل السيطرة على نفسية الجماهير واخضاعها معنويا للحكم الجديد أقام ابراهيم باشا في سهل القابون وبرزه عرضاً عسكرياً أدهش الأهالي ، الذين لم يروا سابقا الا مجموعات عسكرية اقطاعية لا رابطة بينها ولا جامع ، اما الان فرأوا جيشا منظما خاضعا لقيادة واحدة ويسير وفق مخطط مرسوم تتحرك وحداته ضمن تعاون تام . وهذا مما ساعد ابراهيم باشا على تنظيم الادارة قبل توجهه نحو الشمال ، وقد أولى اهتماماً خاصاً للأمن فوزع المخافر على حارات دمشق ومنع الناس من حمل السلاح واختفت عمليات النهب والسلب ، التي كثرت ايام ثورة ايلول ١٨٣١ وما بعدها . وقام الحكم المصري بتقليم اظافر قادة ثورة ايلول ١٨٣١ واعتقال عدد من العامة ممن

نشطوا أيام الثورة وارسلهم الى سجن عكا . ونظمت عمليات البيع والشراء وقضايا الحسبة . كما انتظمت عملية جمع الضرائب بصورة لم تعهدها الشام من قبل ، فألحقت الضرر بالبعض وصفق لها البعض الآخر .

في البدء رضي معظم الأهالي عن الادارة المصرية لأنها انقذتهم من بطش الولاة وهمجيتهم ، رضوا عنها لأنها ازالت عنهم كابوس العساكر العثمانية ، التي كانت ترتكب الفظاعات وتستحل الحرمات وتتصارع مع بعضها في الأسواق والأزقة مخربة مدمرة ومعطلة دولاب العمل . رأى اهالي الشام وسورية عامة في الجيش المصري جيشا منظماً يدفع افراده ثمن ما يأخذون . ويوحي قائده وضباطه الجنود باحترام الأعراض والأموال والكرامة الانسانية المفقودة في العهد العثماني .

اجرى ابراهيم باشا الاصلاح الاداري والاقتصادي ، وأبطل المصادرات ونظم جباية الضرائب وأصلح القضاء على النمط البورجوازي الفرنسي وكافح الرشوة . كما ساوى بين الجميع امام القانون ورفع عن المسيحيين قيود المجتمع الاقطاعي الشرقي الحرفي المفروضة عليهم كالنزول عن رواحلهم اذا ما قابلوا احد المسلمين في الطريق وارتداء الملابس الزرقاء والسوداء فقط وغير ذلك من قيود سنرى فيما بعد ان اعتياد المسيحيين على تلك المساواة ومشاركتهم في ادارة الدولة اثناء الحكم المصري (١٨٣٢ - ١٨٤٠) كانت احد العوامل التي سببت احداث ١٨٦٠ المشؤومة .

مع دخول ابراهيم باشا الى دمشق اخذ يتقاطر عليها السياح بعد ان كان محرماً على الأجانب دخول دمشق بسبب منزلتها الدينية ودورها الهام في تهيئة قافلة الحج . ووصل اول قنصل اجنبي ، وهو انكليزي ، الى دمشق وجرت له استقبالات رسمية وموكب فخم اخترق اسواق دمشق الرئيسية من الغرب الى الشرق حيث استقر في احد بيوت باب توما رافعاً الراية الانكليزية فوق بيته ومتخذاً ترجماناً له . وهذا الأمر لم تكن دمشق تعهده ، بل انها في عام ١٨٣٠ رفضت مجيء هذا القنصل . ومن ثم اخذ يتقاطر قناصل الدول والتجار الأجانب حاملين معهم البضائع المادية وناقلين ايضا الأفكار البورجوازية والعديد من نواحي الحضارة الأوروبية .

مع وجود المصريين في بلاد الشام شهدت مدينة دمشق عدة ظاهرات لم تكن تسمح بها قبلا وهي : ١ - فرض الجندية الاجبارية . ٢ - اقامة خمارة ومنع الناس من صنع الخمر في بيوتهم . ٣ - مجيء قناصل الدول الأوروبية واستقبالهم بعرض عسكري . ٤ - دخول العاب البهلوان سنة ١٨٣٨ ، التي جرت في جنينة الأفندي في باب توما. ٥ - المساواة بين جميع الطوائف امام القانون .

اضطرت الظروف الدولية وموقف بريطانيا وروسيا من الدولة العثمانية والمحافظة عليها وفقاً لمصالح الطبقات الحاكمة في البلدين ، محمد علي باشا الى التراجع عن مشاريعه الواسعة والانسحاب مكرهاً من بلاد الشام . وخوفاً على مؤخرة جيشه قام ابراهيم باشا عند انسحابه من دمشق بقتل علي آغا

الخزناكتبي وعدد من الأعيان خوفا من ثورتهم . وقضى بذلك على زعماء ثورة أيلول ١٨٣١ ، وأمسى الجو مهيئاً لدخول العثمانيين وبقائهم دون مقاومة تذكر لمدة من الزمن ، بعد ان فقدت العامة قيادتها من جهة ، وبعد ان هزتها احداث السنوات الأخيرة وما رافقها من تطورات جديدة وانفتاح على العالم الغربي البورجوازي واهتزاز قضية الولاء « للدولة العليا » وسلطانها .

صدعت حملة ابراهيم باشا والحكم المصري في بلاد الشام أوصال المجتمع الاقطاعي الحرفي وخلخلت جذوره وأسهمت في بداية نقله من مجتمع تسوده علاقات الاقطاعية الشرقية الى مجتمع يحمل بعض البذور البورجوازية .

وجاءت الاصلاحات الفوقية الصادرة عن السلطة العثمانية والمتمثلة اولا بخط شريف كلخانة ١٨٣٩ والخط الهمايوني سنة ١٨٥٦ لتنسف الغطاء الشرعي القانوني للاستبداد الاقطاعي الشرقي ولتفسح المجال امام القوى الجديدة المستنيرة لكي تنطلق وتتحرر معتمدة على هذا الأساس الشرعي القانوني لمقاومة بعض اسباب التخلف والتأخر . ويبدو ذلك واضحا من احدى عرائض هذه القوى الجديدة المرسلة الى السلطان على اثر صدور خط كلخانة عام ١٨٣٩ . جاء فيها : « . . . اننا تشرفنا بمنشور العدالة والرحمة . . ورفع البدع والمظالم والتكاليف الشاقة غير المرضية وسخرة الدواب والمبايعات بدون أثمان مثلها وساير ما يؤدي الى الخسارة وضيق الحال على

الـرعايـا . وانه بعـد الان ما بقـا يؤخذ من أحـد الـرعـايـا لا مبايعات ولا سخر دواب ولا تكاليف ولا مظالم ولا مغارم . بل تكون الرعية فايزين بالرفاهية حايـزين مرتبـة الراحـة مع حفظ الناموس ساعين بتوسيع المعاشات والزراعات » .

الفصل الثاني

سنوات ما قبل الفتنة
مقدمة لها

أسباب هدوء العامة (١٨٤٠ - ١٨٦٠)

عاشت مدينة دمشق في الفترة الواقعة بين خروج المصريين ١٨٤٠ وأحداث ١٨٦٠ فترة ركود نسبي هدأت فيه الى حد بعيد تحركات العامة ، التي بلغت اوجها في ثورة ايلول ١٨٣٠ وسبب ذلك جملة عوامل اهمها :

١ ـ أدت ثورة ايلول ١٨٣٠ الى انهاك الجماهير وتعبها .

٢ ـ قضاء الحكم المصري على عدد من قادة العامة وزوال القوى العسكرية المتصارعة : **القابيقول** والانكشارية .

٣ ـ التفسيرات العميقة ، التي زرعها الحكم المصري في سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية .

٤ ـ ازدياد ارتباط ولاية الشام بالسوق الاقتصادية الرأسمالية ، وبداية ظهور العلاقات الاقتصادية الجديدة والانتقال من الاقتصاد الطبيعي ومبادلة سلعة بسلعة الى المبادلة الجديدة : سلعة ـ نقود ـ سلعة .

٥ ـ تصدع العلاقات الاقطاعيـة الشرقيـة السائـدة ، وسعي الـطبقة الـرجعية المستفيـدة من هـذه العـلاقـات الى استخـدام وسائل جديدة هدفها المحافظة على جوهر الاستثمار الاقـطاعي ولكن بوجه جديد .

٦ ـ بداية تكون طبقة بـورجوازيـة جديـدة ظهرت في لبنـان والساحل وامتدت بالتدريج الى الداخل .

٧ ـ عمق التحـركات الفـلاحية ، التي اشتعلت في المنـطقـة وبخاصة في جبل لبنان .

٨ ـ بداية ظهور عصر التنوير وهو ما عـرف باسم « النهضـة العـربية » ، التي حملت لـواءها تلك العنـاصر البـورجوازيـة في لبنان والساحـل ثم انتقلت الى الداخـل وطرقت ابـواب دمشق طرقاً خفيفاً ضعيفاً .

٩ ـ ضعف الحكم العثماني على اثر الضربـات العديـدة التي تلقـاهـا في البلقـــان وســوريـــة ، واستفحـال حــدة الأزمـات الداخلية ، التي نخرته ، وتصـاعد تـدخل الـدول الأوروبية في الدولة العثمانية .

١٠ ـ رافق هذا الضعف سعي السلطة المركـزية الى تـدعيم ركائزها عن طريق الاستفادة بما زرعـه الحكم المصري في بـلاد الشام ، وحكم هذه البلاد حكماً مركزياً بعد القضـاء على حكم الباشاوات المتنفذين سابقاً .

ليس بين أيدينا وثائق تشـير الى وقوع أحـداث ذات شأن في

الفترة الواقعة بين ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ . وكان من الأحداث الهامة في هذه الفترة حلول الهواء الأصفر (الكوليرا) في دمشق عام ١٨٥٢ قادماً عن طريق جهات الحجاز ، فمات نحو ٣٠ ألف انسان . ولم تكن الكرنتينا معروفة في سورية في ذلك الوقت .

وبعد هذا الوباء القاتل عرفت دمشق اثناء حرب القرم ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ رواجاً في الأشغال وحقق التجار ارباحاً طائلة وكان ذلك نتيجة الارتباط بالسوق الرأسمالية العالمية وبداية سيادة العلاقات السلعية ـ النقدية من جهة وسعي دولتي فرنسا وبريطانيا صرف الأموال في بلاد الشام لكسب ولاء الزعماء الى صفهما .

٢ ـ الفتنة في جبل لبنان

في عام ١٨٥٨ انفجر تحرك فلاحي واسع في منطقة كسروان في جبل لبنان وأخذ يمتد الى سائر انحاء الجبل . هذا التحرك الفلاحي ، الذي يرجع بجذوره الى العاميات المشهورة في لبنان عام ١٨٢١ و١٨٤١ ، وجد له صدى في اوساط الفئات البورجوازية الناشئة انذاك . ولكن طبقة ملاك الأرض الاقطاعية تمكنت من تحويل الصراع الطبقي بين الفلاحين وملاك الأرض الى صراع طائفي بين الموارنة والدروز . وقد أسهمت السلطة العثمانية في بيروت وصراع الدول الأوروبية في تحويل هذا الصراع الاجتماعي الى صراع طائفي وتأجيج اواره لأهداف معلومة كتب عنها الكثير .

وقد فشلت محاولات مد فتنة الصراع الطائفي الى بيروت

بفضل جملة عوامل اتى في طليعتها موقف الفئة المتنورة المسلمة ، التي استرشدت في موقفها هذا بأصول الاسلام الصافية ولم تنجر وراء ما لحق بالاسلام في عصور الانحطاط والتخلف وبرهاناً على ذلك ما ذكره المؤرخ المسيحي والكاهن الأرمني المعاصر للأحداث ، الذي كتب :

« في ٢٠ حزيران ١٨٦٠ أراد بعض الجهال من المسلمين اشعال الفتن في بيروت وصاحوا ضد النصارى . . ثم توسط الأمر الشيخ محمد الحوت ذو الفضل وكان يقول لهم : لا يجوز ان تفعلوا شيئاً ردياً بالنصارى لأنهم مجاورون لنا في المدينة واخوتنا بالطبيعة وان الله لا يرضى بذلك ولا النبي محمد . فالمسلمون لاعتقادهم بتقوى المذكور كفوا عن اشعال الفتنة . . وعلى الرغم من ذلك فان من لهم مصلحة في اشعال الفتن استمروا على ايقاد جذوتها . ولكن المتعقلين من مسلمي بيروت أقنعوا الجهلاء في بيروت « ان فتنة كهذه لا توافق الديانة ولا الدولة العلية ولا راحة المدينة وانه لا بد ان يصير السؤال عن هكذا اعمال من دول الافرنج وسيطلبون منا تعويضاً فتكون نتيجة ذلك خراب بيروت لا غير » .

ولا يهمنا هنا البحث في صحة كلام الكاهن الأرمني حول تحرش المسلمين بالمسيحيين ، ومن البادىء في الأمر انما الذي يعنينا أن قوى الخير والتعقل، تمكنت من اطفاء نار الفتنة المشتعلة على مسافة قريبة من بيروت . وهذا الأمر لم يكن باستطاعة قوى التنوير والخير في دمشق القيام به مما أدى الى الاحداث الطائفية المعروفة في دمشق .

٣ ـ فوضى المدن العثمانية ومسؤولية النظام الاقطاعي الشرقي العثماني :

بادىء ذي بدء لا بد من الاشارة الى ان المسلمين والمسيحيين عاشوا في سلام وصفاء ، عندما كانت الحضارة العربية الاسلامية في فترة صعودها وتفتحها الزاهر . وعندما حل عهد الانحطاط وساد التخلف بدأ اضطهاد الطبقة الحاكمة ، التي ادعت انها تحكم باسم الاسلام ، للمسيحيين ، مستغلة جهل العامة وتخلفها وساعية لتوجيه نقمة العامة على الطبقة الحاكمة وتحويلها ضد الأقليات الدينية ، فالطبقة الحاكمة في عصور التخلف ، بما فيها العصر العثماني ، سعت دائماً لامتصاص نقمة العامة عن طريق تفريغ شحنات حقد هذه الطبقة وبؤسها وشقائها في صدور الأقليات الدينية . وقد أسهمت جملة عوامل اخرى منها وضع المدن الشرقية آنذاك ، وظهور « حكومات » الحارات ، وانعزال كل حارة عن الأخرى ، وسكنى المسيحيين واليهود في أحياء خاصة بهم ، في تعميق هذه الظاهرة المرضية . والواقع ان ظاهرة قيام العامة في عصور التخلف باضطهاد رفاقهم الطبقيين من المسيحيين هو احد افرازات النظام الاقطاعي الشرقي ونتيجة لتأخر ظهور الطبقة البورجوازية حاملة لواء « الحرية والاخاء والمساواة » بين الجميع في ذلك الحين .

ومع ان الرجيعة المدنية والعسكرية ، التي أفرزها النظام الاقطاعي الشرقي الاستبدادي ، سعت لاضطهاد اهل الذمة واستثمارهم بلا رحمة ، الا انها لم تتوان عن اضطهاد عامة

المسلمين واستثمارهم وقمع تحركاتهم بأساليب متعددة . فالاعتداءات باعتراف مؤرخ مسيحي دمشقي « كانت تقع على الذميين وآل السكينة من المسلمين » . ومنفذ هذه الاعتداءات الجند المؤلف « من رجال جهلاء تمادوا في القحة والفجور » . وعندما كانت الجند تتصارع كانت دكاكين المسيحيين والمسلمين تنهب من هؤلاء على حد سواء . ولكن ، وبسبب الهمجية المستشرية وسيادة قانون الغاب وفقدان اسباب الراحة في غياب السلطة ، وقع الجور اكثر ما وقع على اهل الذمة والضعفاء من المسلمين .

وحتى اهل الذمة لم يكونوا في المصيبة سواء . فمن كان منهم صاحب مال وثروة انفق منها على الرجال الاشداء للدفاع عنه وصون حرمته او دفع مالاً لأصحاب النفوذ لقاء حمايته وصون مصالحه .

ان عدم وجود حاكم قادر ينصف المظلوم من ظالمه ويقتص من المعتدين ويضمن للرعية الأمان والراحة ، اوجب ظهور القوة الفردية . ولهذا ظهر في تلك الأيام الرجال الجبابرة الاشداء من المسلمين والذميين غير المنتمين لحزب عسكري (انكشارية ، قبيقول ، مرتزقة) والمتكلين على قوتهم ونشاطهم . وقد أطلق على هؤلاء اسم « المعترين » ، الذين عرفوا بالشهامة والمرؤة العظيمتين[٢٠] . وكان المعترون بمثابة واحة في صحراء تعصف فيها رياح الرجعية الاقطاعية المدنية والعسكرية . وفي عصر احتل التعصب الديني مركزاً عظيماً بين

الناس لم يكن بامكان المتنورين من علماء الدين ردع المعتدين ، وفي زمن عمت فيه الفوضى وصار الحكم للهمجية ، ولذا كان لا مفر امام الضعفاء ، من التلاؤم مع هذه الأوضاع القاسية حتى يستطيعوا العيش بسلام وطمأنينة نسبية .

ومع ان العامة المسلمة والمسيحية تعرضت للاستثمار والاضطهاد بنسب متشابهة تقريبا ، الا ان النصارى كانوا عرضة لاضطهاد معنوي : فهم مضطرون لارتداء زي معين والوان من الثياب معينة . ومن كان منهم يدعى الى الطورقة فعليه ان يطورق ويسير في الطاروق[٢١] كما خضعوا لعدد من الاجراءات والتقاليد الثقيلة الوطأة عليهم . وعندما جاء الحكم المصري وسعى للمساواة بين الجميع حدث تخلخل في بنيان العرف السائد والتقاليد الموروثة من عهود التخلف والظلام ، والتي لا تمت بصلة الى العصور الزاهية في صدر الاسلام وفجره .

٤ ـ الأسباب القريبة للفتنة

ان أهم الأسباب القريبة المؤدية لاحداث تموز ١٨٦٠ في دمشق هي :

١ ـ ساوى الحكم المصري (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) بين جميع الطوائف وأشرك النصارى في الادارة وكانت لهم كلمة نافذة في ذلك العهد . فعندما عاد الحكم العثماني الاقطاعي محاولاً اعادة عدم المساواة بين الطوائف لم يكن بالامكان الرجوع الى الوراء من جهة ، كما لم يكن بالامكان تقبل المساواة بصورة

تامة ، فحدث التخلخل في المجتمع وطغا التوتر على السطح ولم يكن بحاجة الا الى عود ثقاب لإشعال نار الفتنة . وجاءت الاصلاحات العثمانية سنة ١٨٥٦ لتساوي المسيحيين بالمسلمين في عدة امور منها اللباس والوقوف امام المحاكم وغيرها . ويذكر معاصر الأحداث ابو السعود الحسيبي في مخطوطه ان المساواة بين المسيحيين والمسلمين ادت الى الاصطدامات المختلفة « وصار اذا تشاجر نصراني مع مسلم مثل ما يقول له المسلم يقول النصراني وأزود »[٢١/١] .

٢ ـ أدخل الحكم المصري بعض الاصلاحات البورجوازية الى بلاد الشام ولكن هذه الاصلاحات لم تقم على ارضية اجتماعية تستند عليها . فالنظام الاقطاعي الشرقي وتابعه النظام الحرفي بقيا سائدين وعلى الرغم من تصدع هذا النظام الا انه ظل قوياً ما فيه الكفاية لعرقلة تطور العلاقات السلعية ـ النقدية (الرأسمالية) . وكان اغنياء اهل الذمة هم نواة الطبقة البورجوازية الناشئة . ولهذا فان الصراع بين البورجوازية الناشئة الضعيفة ، المهيضة الجناح المؤلفة عموما من التجار المسيحيين وبين الاقطاعية الشرقية المؤلفة من الطبقة الحاكمة العسكرية والمدنية السنية اتخذ شكلا طائفياً أدى الى المذبحة المشهورة ضد المسيحيين .

ويؤكد الحسيبي المعاصر للأحداث هذا الرأي عندما يشير في البند الأول من مخطوطه الى « علاقة النصارى مع الافرنج في تجارة الحنطة والشعير وسائر الحبوب والسمن والصوف والقطن

وسـايـر (سـائـر) مـا يـلزم الى الفـرنـج وخـصـوصـا الفرنسيين »[(٢١/٢)] .

٣ ـ لم يكن الصـراع بين البـورجوازيـة الناشئـة والاقطاعيـة مقتصـراً على بـلاد الشـام بـل امتـد الى سـائـر انحـاء الـدولـة العثمانيـة وبخاصة العاصمة استنبول . وهناك وعلى اثر حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) وبعد تدخل الدول الأوروبية اصـدر السلطان في شبـاط ١٨٥٦ « الخط الهمايـوني » ، الـذي ضمن حـرية حـركة الـرأسمال الأجنبي في الـدولة العثمـانيـة ، وسن بعض القـوانين لصـالح البـورجوازيـة الناشئـة . كما دعـا الى المسـاواة بين رعـايا السلطان عـلى اختـلاف طـوائفهم ونحلهم وقضى بأخذ الجنود من الطوائف المسيحية » .

وقـد لاقى « الخط الهمايـوني » معـارضـة قـويـة من القـوى الرجعية في العاصمة والولايات وسعت لقبره في مهده او عـرقلة تنفيـذه . وهذه القـوى الرجعيـة المحـافـظة كـانت ذات رؤ يـا محدودة وأفق ضيق وثقافـة ضحلة . ولذلـك فانها لم تفهم طبيعـة الجهود الرامية الى فرض المركزية واشاعـة جو من البـورجوازيـة اخـذت تـدفـع اليـه داخليـاً القـوى الاجتمـاعيـة النـاشئـة في المجتمعـات العثمانيـة ، وخارجيـاً الـدول الأوروبيـة ولم تقـدر القوى المحافظة مدى الضغط الخـارجي الأوروبي ، كما بـالغت في مدى قوتها كزعيمة وحيدة للمـدينة . ولم يـروا ان ثمة قـوى جديدة اخذت تنشأ في المدينة سيكون لها شأن فيها بعد .

ويمكننـا القـول : ان احـداث ١٨٦٠ في دمشق هي حصيلة

الصراع بين القوى الرجعية المتمثلة في اجهزة الدولة القديمة وما يلحق بها من تقاليد وعادات بالية تقوم على أرضية العلاقات الاقطاعية المتصدعة وبين القوى التقدمية الناشئة الممثلة للتطلع البورجوازي التي أجهضت تطورها الهجمات المتلاحقة للرجعية دون ان تقضي عليها .

بعد صدور الخط الهمايوني بعامين جرى اختلاف في الرأي حول دخول المسيحيين الى الجندية او الزامهم بدفع البدل النقدي . وكانت السلطة العثمانية ترغب في اخذ البدل النقدي لتدعيم ميزانيتها ولم تكن تنظر بعين الرضى الى قضية دخول المسيحيين الى الجيش ، الأمر الذي أجبرت عليه . وزاد من حدة التوتر في دمشق انباء الحرب في كريت ووصول اللاجئين المسلمين الى دمشق هرباً من اليونان المسيحيين[٢٣] . ثم اخذت انباء الفتن الطائفية تتوارد الى دمشق من مناطق عدة وبخاصة من لبنان مهيئة بذلك الجو النفسي للفتنة .

الفصل الثالث

فتنة ١٨٦٠
والثورة المضادة

- الفئات الاجتماعية المُنجَرّة وراء الثورة المضادة

وهنا لا بد من معرفة الفئات الاجتماعية، التي تمكنت عناصر الثورة المضادة من جرها الى المعمعة. هذه الفئات نجد اشارة لها في مخطوط أبو السعود الحسيبي. ولكن هذه الاشارة يجب قبولها مع قليل من التحفظ. فالحسيبي باعتباره من الوجهاء الدينيين والزمنيين. وكتب مطولاً عن عدم مسؤولية هؤلاء. ونحن نرجح ما كتبه الحسيبي الى حد بعيد. لأن الاحداث دلت على ان قيادة العامة لم تكن في يد هؤلاء بل في يد الفئات الوسطى الصاعدة من موظفي الدولة (البيروقراطيين) والاغوات زعماء الفرق الانكشارية المحلية سابقاً، التي انتهى امرها رسميا وبقيت تقيم في دمشق. هؤلاء الاغوات تمكنوا، بعد خسارة مواقعهم العسكرية بسبب حملة ابراهيم باشا والاصلاحات العثمانية اللاحقة، من المحافظة على جزء من سلطتهم عن طريق السيطرة على تجارة الحبوب والماشية. وهؤلاء الاغوات انقسموا على انفسهم اثناء أحداث تموز ١٨٦٠. فأغوات الميدان وقفوا ضد الفتنة وسعوا جهدهم

لحماية المسيحيين أما أغوات الشاغور والاكراد فساروا مع التيار في الهجوم على الحي الفني.

ان الفئات الاجتماعية. التي شاركت في الفتنة في رأي الحسيبي تألفت من التجار والباعة والزعماء العسكريين المحليين (عدا الميدان) والمهاجرين الاكراد وسكان الارياف (الحوارنة) القاطنين حديثاً في الضواحي(٢٣). ورأي الحسيبي هذا ليس بعيداً عن الحقيقة، لأن الفوضى في العلاقات الاقتصادية الجارية في المدينة يلقي الاضواء على مشاركة التجار والباعة المستائين من المنافسة. والزعماء العسكريين المحليين (الاغوات) مستاؤ ن من فقدان سيطرتهم السابقة ويطمحون الى إحلال الخلل في كل وقت. أما سكان الارياف المهاجرين على الغالب من حوران الى الضواحي فكانوا مستعدين بسبب فقرهم وعدم وجود أي وعي اجتماعي لديهم من المشاركة في أي تحرك يأملون من ورائه الحصول على الغنيمة أو جزء منها. ولا سيما إذا وجد أناس يدخلون في اذهانهم ان سبب شقائهم هم اؤ لئك المسيطرين على جزء هام من الانتاج في الحي الشرقي من المدينة.

ولئن اتفقت هذه الفئات على الهجوم فإنها اختلفت في الدوافع والاهداف. وكان صيف ١٨٦٠ عقدة لقاء سلسلة من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية انفجرت على شكل صراع ديني امكن عن طريقه جر جماهير واسعة لا مصلحة لها في الصراع ودفعها في ظل ظروف نفسية

مدبرة الى الهجوم على الحي الشرقي من المدينة.

ولا شك أيضاً ان الهجوم على الحي الشرقي شاركت فيه اعداد كبيرة من الحرفيين العاطلين عن العمل بسبب انهزام حرفهم وبوار انتاجهم أمام سيل البضائع الاوروبية، التي يستوردها التجار المسيحيون. ولهذا اقترن في ذهنهم خراب حرفهم وكساد انتاجهم بالمسيحيين الذين يستوردون البضائع الاجنبية المزاحمة للانتاج الحرفي المحلي. ويبدو واضحاً ان دفع هؤلاء العاطلين عن العمل، ومن يرتبط بهم اقتصادياً من الباعة والموزعين لانتاجهم، للهجوم على علة خرابهم كان سهلاً جداً. ولم يكن لدى هؤلاء المهاجمين، بسبب نظام الحارات السائد آنذاك، أي وعي سياسي أو اجتماعي. للتفريق بين المستوردين للبضائع من المسيحيين وبين عامة المسيحيين، الذين لا ناقة لهم ولا جمل. وفي مثل تلك الاحوال يختلط الحابل بالنابل والانسان المسكين الفقير المعدم يتضرر قبل الفني ذي الامكانات الكثيرة.

- الرجعية العثمانية تشعل الفتيل...

في صيف ١٨٥٩ أُسندت ولاية الشام الى احمد عزت باشا، الذي انتمى الى الرجعية العسكرية والمدنية الناقمة على حركة الاصلاح والخط الهمايوني (١٨٥٦) والساعية لقبر هذه الاصلاحات في مهدها. وصل أحمد باشا الى دمشق والتحرك الفلاحي في جبل لبنان يهز أركان العلاقات الاقطاعية فيه، منذراً بولادة العلاقات البورجوازية المبكرة. ولكن الصراع

الفلاحي الاقطاعي في جبل لبنان سرعان ما تحول، بجهود الرجعية المحلية والعثمانية وتدخل الدول الاجنبية، الى صراع طائفي بين الموارنة والدروز. وأخذت أخبار هذا الصراع تصل تباعاً الى دمشق ورأت الرجعية المحلية، في أحداث لبنان مادة مناسبة لتهيّج الخواطر ضد المسيحيين، باعتبار انهم نواة التطور البورجوازي المقبل، الذي ضمن له الخط الهمايوني لعام ١٨٥٦ حق الحياة. وكانت الثروات المتوفرة لدى التجار والحرفيين المسيحيين[٢٤] تستثير أيضا لعاب الرجعية المحلية والفئات المتخلفة اجتماعياً من العامة والخاضعة فكرياً لسيطرة الرجعية المحلية المدنية.

في يوم عيد الأضحى الواقع في ٢٩ حزيران ١٨٦٠ لم ينزل الوالي، كما هي العادة، الى الصلاة في الجامع الاموي، بل أرسل عساكره للاحاطة بالجامع وهم مستلين السيوف بحجة ان النصارى سيهاجمون في يوم العيد الجامع الاموي ويقتلون المسلمين[٢٥]. وقد أثار هذا الاستفزاز، الذي نظمه الوالي والقوى الرجعية المحلية من ورائه، المشاعر واحدث قلقاً عظيماً بين عامة المسلمين وجعلهم على استعداد نفسي لمهاجمة المسيحيين. ولم يكن بمقدور القوى الاسلامية النيرة ايقاف هذا التيار الجارف. ومع أنه من المعروف أن مسيحيي دمشق - بعكس حلب - هم ضعاف وعددهم قليل لا يتجاوز الخمس ولا يعرفون استخدام السلاح. ولكن لا حياة لمن تنادي!.. ويعرف التاريخ امثلة كثيرة عن براعة الرجعية وقوى التخلف في تلفيق الاخبار ونشر الشائعات وقلب الحقائق واثارة القوى

المتخلفة الرثة من الجماهير خدمة لمصالحها وتنفيذاً لمخططاتها الرجعية.

ازداد التوتر في دمشق بعد سقوط حاصبيا وراشيا ووصول لاجئيها المسيحيين الى دمشق[٢٥]. فدبّ الذعر في قلوب المسيحيين وتشجع الجهلة من المسلمين الخاضعين لنفوذ الرجعية المحلية الراغبة في اعادة الامور الى ما قبل الحكم المصري وعرقلة اي تطور حضاري. وعندما سقطت زحلة في يد اسماعيل باشا الاطرش في ١٨ حزيران ١٨٦٠ عبّرت الرجعية عن سرورها باقامة الزينة في دمشق ابتهاجاً مْهيئة الاجواء للهجوم على الحي المسيحي. ويروي المؤرخ المسيحي المعاصر «ان بعض الوجهاء وأرباب الفضل من المسلمين لم يرق لهم هذا الصنيع فاطفأوا الانوار وداروا على الناس يحرضونهم على التعقل والسكينة فلم تجد مساعيهم المحمودة نفعاً لأن الحكومة والاشقياء كانوا أقوى منهم»[٢٦].

وقد تساءل «أهالي العقل»، كما يذكر ابو السعود الحسيبي في مخطوطه، عن سبب عدم اهتمام الحكومة بقمع الفوضى، التي حلت بدمشق بعد سقوط زحلة ووصول بعض الدروز الى دمشق. ويذكر الحسيبي ان «الجهال والشقيا (الاشقياء) وبعض من الدكنجي (أصحاب الدكاكين)»، ساروا مع الدروز معلنين ابتهاجهم بسقوط زحلة. ويبدو ان المبتهجين بسقوط زحلة المارونية في يد الدروز كانوا في دمشق اكثر من ذلك بكثير بدليل ما ذكره الحسيبي نفسه من تزيين الحارات بهذه المناسبة.

ويروي أبو السعود الحسيبي ان والده، وهو نقيب أشراف دمشق، «طفا القناديل في القناوات (حي القنوات) وعيط (عنّف) على شيخ الحارة وضربو»[٢٧]. وكذلك فعل محمود افندي حمزة.

ويبدو ان الفئات المسالمة في دمشق لم تكن راضية عن مجيء الدروز وغيرهم من الاغراب الى دمشق خوفاً من بث الفوضى في البلد واشاعة الاضطراب. «وفي اثناء ذلك صار الناس في الشام» - كما يذكر الحسيبي - «منزعجين من الدروز وتساءلوا عن سبب موقف الحكومة المحايد منهم»[٢٧].

ولم يكن بامكان القوى الاسلامية النيّرة التقية المهتدية بأنوار صفاء العقيدة وتسامحها، أو التي تحمل بين جوانحها بذور التطور البورجوازي وستكون فيما بعد الرافد لتيار الاصلاح، الذي دعا له جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، لم يكن بامكان هذه القوى وقف العاصفة المدمرة.

بتوجيه من القوى الساعية لخلق الفتنة قام عدد من الصبية باستفزاز المسيحيين واهانتهم. وعندما رفع هؤلاء ظلامتهم الى الوالي، قام هذا في يوم الاثنين ٩ تموز بمؤامرته الدنيئة الرامية الى إثارة عامة المسلمين ودفعهم تلقائياً وبدون شعور منهم الى مهاجمة الحي المسيحي. أتى الوالي أحمد باشا بخمسة عشر مراهق ممن دُفعوا الى الاستفزاز وقيدهم بالسلاسل في القلعة وأمر عسكره بأخذهم، وهم مقيدين عبر أسواق دمشق وازقتها المزدحمة بالناس، الى الحي المسيحي بدعوى إجبارهم على تنظيف الحي المذكور لانهم أهانوا المسيحيين، وكان عسكر

الوالي يعلنون على جانبي الطريق انهم سيأخذون هؤلاء الشبان ليكونوا عبيداً للنصارى، وكان هذا الاستفزاز المنظم من قبل الوالي كافياً لهيجان اقرباء هؤلاء الشبان ومن يلوذ بهم. ولم يكن، وهذا امر طبيعي بامكانهم ان يتحملوا ذهاب ابنائهم لتنظيف حارة النصارى، كما أنهم، بسبب جهلهم وأميتهم، لم يدركوا مرامي الوالي واهداف الرجعية في دفعهم الى الفتنة شيئاً فشيئاً. ولا بد من القول ان الوالي وحاشيته كانوا على خبرة كافية في فن إثارة الجماهير ودفعها في الوجهة التي يريدونها.

عندما اخترق «موكب» الشبان المقيدين بالسلاسل اسواق دمشق وازقتها ووصل الى طالع القبة، وهو حارة مسيحية، كان هياج العامة وتوتر اعصابها قد بلغ الذروة ووصل الى درجة الغليان. فاندفعت الجموع وخلصت الشبان من العسكر واطلقت سراحهم. وفي هذه اللحظة أُطلقت قذيفة مدفع من القلعة لاثارة النفوس ودفعها باتجاه الجريمة. وهذا ما جرى بالفعل[٢٨]. فمن المعروف ان الشعور المسيطر على جماهير متوترة الاعصاب ومهيئة نفسياً لعمل ما سرعان ما ينقلب الى مشاعر طاغية حيوانية مدمرة لا تفكر بالعواقب وتتجرد عن انسانيتها لفترة ما، طالما هي خاضعة لذلك التأثير النفسي المعين والروح الجماعية.

ـ الفتنة في أوجها، وموقف قوى التنوير الاسلامي في التخفيف من آثارها المدمرة.

«ومن تلك الساعة صاروا يضربون النصارى بالعصي

والسيوف وبذأوا بالقتل والنهب والحريق وبقوا مثابرين على ذلك الى ١٦ تموز»(٢٩). ولكن وعلى الرغم من الاسباب البعيدة لفتنة ١٨٧٠ في دمشق، وعلى الرغم من دراسة الوالي لنفسية العامة ودفعها في اتجاه رجعي لا انساني عن طريق اثارتها، فإن القتل في يومي ٩ و ١٠ تموز ١٨٦٠ كان قليلاً. وبدأت النيران تخمد. ولم يكن ذلك في صالح مخططي الفتنة. وهنا أشاع عبد الله الحلبي ان نصارى القدس مزمعون ان يهجموا على دمشق لذبح المسلمين(٣٠). والتاريخ يخبرنا ان نصارى القدس لم تكن لديهم القوة الطافية والاسلحة المتوفرة للهجوم على دمشق. وكان واضحاً ان ذلك من نسج خيال مدبري المؤامرة لاضرام النار في الهشيم، الذي لم يشتمل كما يريده مخططوه.

وكان لهم ما أرادوا فمن ١١ إلى ١٦ تموز ارتفع عدد القتلى واندلعت النيران في معظم البيوت وبدأ نهب بيوت بأثاثها ومحتوياتها ومالها. وكما ذكرنا سابقاً كانت اموال المسيحيين وممتلكاتهم مغرية بصفتهم أرباب حرفة وتجارة.

أدت الفتنة الي مقتل خمسة آلاف الى ستة ألاف انسان وزاد عدد الارامل والايتام ومن نجا من الموت على عشرين الف. ومعنى ذلك ان خمس مسيحي دمشق ذهبوا ضحية الفتنة. ولم يبق لأحد منهم مأوى بعد حرق منازلهم البالغة ٧٠٠٠ بيتا(٣١). كما قدر المال المنهوب حوالي ٨٠٠ ألف كيس(٣٢).

كان من الممكن ان يرتفع عدد الضحايا الى أكثر من ذلك

ولكن جهود القوى الاسلامية النيّرة واستبسالها في الدفاع عن المسيحيين وتعريض نفسها للمخاطر من اجل حمايتهم جعل الخسائر تقف عند هذا الحد.

اتي الامير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق في طليعة من بدل جهداً انسانياً واضحاً. فاستقبل الامير عبد القادر قناصل سائر الدول في بيته ما «عدا قنصل دولة الانكليز لكون المذكور لم يحتج لمحافظة احد لأن الشر كان غير متجه نحوه»[٣٣]. وقام رجال الامير عبد القادر وهم من المغاربة المقيمين في دمشق باعمال معروفة في حماية المسيحيين في حي المغاربة او وضعهم في القلعة والضغط على الوالي لحمايتهم.

واتى حي الميدان في طليعة الاحياء المتنورة، التي حمت المسيحيين وبحثت عنهم واطعمتهم مثل صالح آغا المهايني وعمر آغا العابد والعلامة الشيخ عبد الغني ((الغنيمي) الميداني وكذلك سليم آغا (المهايني) كبير الميدان[٣٤]. وهؤلاءهم الزعماء السابقين للانكشارية المحلية ودلت الاحداث على مقدرتهم بالتعاون مع المؤسسة الدينية المتفتحة على السيطرة على عامة حيهم. فعندما وصلت اخبار العنف الى الميدان هرعت العصابات الى مكان الحوادث ولكنها سرعان ما عادت بأمر من زعمائها ومن ثم اتخذت موقف الدفاع عن المسيحيين. ودل ذلك على قدرة هؤلاء بعكس الزعماء التقليديين داخل المدينة في السيطرة وقام العلماء مثل الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكربري وآل حمزة ومنهم محمود افندي مفتي دمشق

سابقاً واخوه اسعد افندي بمجهود خاص في تهدئة الخواطر والوقوف في وجه مثيري الفتنة[٣٥].

كما انقذ عدد «من النصارى بواسطة محلّات بعض المسلمين المعتدلين»[٣٦]، الذين كانوا على علاقات صداقة مع جيرانهم.».

هذه القوى «من كرام المسلمين واصحاب العقل الذين دافعوا ما استطاعوا عن المسيحيين»[٣٧]، لم يكن بإمكانها ان تعمل اكثر مما عملت. ودليلنا على ذلك رواية الشيخ عبد الرزاق البيطار من الميدان، وهو من رجال الدين المعارضين للفتنة[٣٨]. أعاد الشيخ البيطار أحد أسباب الفتنة الى الصدام بين المسلمين والمسيحيين في لبنان وكذلك موقف الوالي أحمد عزت باشا الساكت عن اندلاع الفتنة، حتى ظن بعضهم ان ما وقع إنما كان بأمر سلطاني. وسننقل حرفياً ما ذكره الشيخ عبد الرزاق البيطار وهو معاصر للاحداث[٣٩].

«... وصاروا يتكلمون بكلام، لا يليق إلا بالاشقياء اللئام، كقولهم حنا يقول لنخلة، اسماعيل الاطرش حرق زحلة، وامثال ذلك خصوصا مما يدل على التخويف والتهديد، وصارت الاولاد تقوله على طريقه الاناشيد. اشتكى بعض النصارى الى الوالي فامر الوالي بالقبض على بعض الاولاد فمسكوا جملة وقيدوهم بالحديد وامروهم بالكنس والرش تأديباً لهم عن هذا الفساد، فقامت عصبة جاهلية في باب البريد من الجهال والطغام، ونادوا بأعلى صوتهم يا غيرة الله ويا دين

الاسلام، وكان الوقت قبيل العصر من ذلك اليوم (٩ تموز ١٨٦٠) المرقوم، وتلاحقت الاشقياء الى حارة النصارى كأنه لم يكن عليهم بعد ذلك عتب ولا أحد منهم على نعله مذموم، واقبلت الدروز أفواجاً أفواجاً، واشتغلوا بالحرق والقتل والسلب والنهب افراداً وازواجاً، فانشأت في الحال خطبة وخطبتها في جامع كريم الدين (الدقاق) حالياً في الميدان بحرمة هذه الافعال، وانها موقعة لأربابها في اودية النكال، وانهم محترمون لا يجوز لهم التعرض بحال، وان لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن تعرض لهم بسوء فقد باء بالخزي والنكال، فانكف أهل الميدان عن سفك الدماء، واجتلبوا ما قدروا على اجتلابه من الرجال والنساء لحمايتهم من الاشقياء.

والوالي ما زال على اهماله وسكرته وعدم سؤاله... غير أن سعادة الامير المعظم، والكبير المفخم، حضرة الامير عبد القادر الجزائري قد بذل كامل همته في ذلك وبذل امواله ورجاله في خلاص من قدر عليه من المهالك، واستقامت النار تضطرم في حارة النصارى سبعة أيام، والناس فوضى كأنه لم يكن لهم إمام، فلما احضروا من احضروه من النصارى الى الميدان، وقد امتلأت البيوت، أخذنا نطوف عليهم ونهنئهم بالسلامة ونطيب قلوبهم بالأمر والأمان. والرجال منهم حيارى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى... ثم ذهبنا حملة كبرى من أهل الميدان الى حارة النصارى لعلنا نجد حيّا ننقذه من القتل فلم نجد... وما زال أهل الميدان في الليل والنهار، يحرسون النصارى من الاشقياء الأشرار، الى أن دخل الشام محمد معمر

باشا بأربعة آلاف جندي، » (انتهى كلام الشيخ البيطار).

لم يكن موقف الشيخ عبد الرزاق البيطار وادانته للفتنة بصراحة موقفاً يتيماً، بل شمل سائر القوى الاسلامية النيرة. واستمر هذا الموقف فيما بعد فقد أدان المؤرخون المسلمون النيّرون فتنة ١٨٦٠ واستغربوا وقوعها.

كتب العلامة صاحب خطط الشام محمد كرد علي معلقاً على تلك الأحداث[٤٠]: «وما كان يخطر ببال أن هذه الشرارة تسري إلى دمشق مدينة التسامح واللطف، ويقوم رعاع المسلمين بمعاونة الدروز يؤذون من أمر بالاحسان اليهم، بعد أن عاشوا وإياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناء».

لا شك أن للوالي أحمد باشا نصيب وافر في اشعال شرارة الفتنة، التي اندلعت في دمشق. أما في المدن الأخرى مثل حمص وحماة فقد فشلت محاولات نقل الفتنة اليهما بفضل موقف السلطة هناك وسعيها لاخماد النار في مهدها[٤١]. أما في حلب، التي ذاقت الأمرين في تحرك ١٨٥٠ فقد منع واليها دخول القوافل الآتية من دمشق إلى حلب حتى لا تنتقل الاضطرابات اليها[٤٢]. ويروي المسنون نقلاً عن آبائهم أن الرسائل ارسلت من دمشق إلى ريف القلمون تحرض المسلمين على المسيحيين. ولكن الآخاء الفلاحي في القلمون كان أقوى من نيران الفتنة فقد وقف مختار دير عطية من بيت شنينة ضد الهجوم على المسيحيين وأخفى الرسالة القادمة من دمشق. وعندما طالبه أحدهم، ممن كان على اتصال بالرجعية في دمشق، باظهار

الرسالة والشروع في نهب المسيحيين، رفض ذلك معلناً أنه ومعظم الفلاحين سيقمعون أي تحرك يهدف إلى اشعال الفتنة[٤٣]. وهذا ما أكده للمؤلف أيضاً خوري **صحنايا** المسن نقولا رزق نقلاً عن المعاصرين ان مسيحيين ضحايا التجأوا إلى القرى الإسلامية المجاورة (داريا وعرطوز) حيث حماهم الفلاحون المسلمون من تعديات مشعلي الفتن، الذين هاجموا صحنايا وقتلوا عدداً من رجالها[٤٤].

هذه الوقائع تدل على أن هجوم «جهلة المسلمين»[٤٥] على الحي المسيحي في دمشق ونهبه وحرقه وقتل أعداد ضخمة من سكانه ليس مرده صراع مسلم ـ مسيحي، بل هو نتيجة دوافع اجتماعية سياسية وثقافية واقتصادية أشرنا إليها بالتفصيل.

٤ ـ **نتائج الفتنة على العامة**: مع انتهاء الفتنة وجد من أراد الاصطياد في الماء العكر، وبخاصة بعد أن أثارت أحداث لبنان ودمشق الرأي العام الأوروبي، ووجدت فيها بعض الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا مجالاً للتدخل.

لقد شعرت الأوساط الحاكمة الفرنسية بأن لحظة تدخلها في شؤون سورية قد حانت. ولعبت مقتضيات السياسة الخارجية والداخلية الفرنسية، ومساعي نابليون الثالث، امبراطور فرنسا، إلى تعزيز هيبته إلى ارسال الحملة الفرنسية إلى بيروت في تموز ١٨٦٠[٤٦].

وقد أثارت الخطط الفرنسية مخاوف الدولة الأوروبية

والسلطة العثمانية. فأوفد السلطان عبد المجيد إلى دمشق وزير خارجيته فؤاد باشا مُخولاً بصلاحيات استثنائية وسلطات غير محدودة بغية سحب البساط من تحت أقدام الحملة الفرنسية وعدم اعطائها الذريعة للبقاء في بيروت والتغلغل في سورية الداخلية. وبمعنى آخر كان على فؤاد باشا أن يسوي الأمور ويهدىء الأحوال حتى لا يتقدم الفرنسيون إلى دمشق[٤٧].

وصل ناظر الخارجية فؤاد باشا إلى دمشق في ٢٩ تموز، أي قبل نزول الحملة الفرنسية في بيروت بشهر واحد. ونظم بعد وصوله حملة اعدام جماعية فقتل في دمشق ١١١ شخصاً رمياً بالرصاص وشنق ٥٦ آخر وحكم بالأشغال الشاقة على ١٨٦ وأرسل إلى السجون والمنافي خارج دمشق حوالي ألف شخص ثم أعدم بسرعة الوالي أحمد باشا حتى تختفي الجريمة وتضيع مسؤولية السلطة العثمانية في اثارة الفتنة. ثم ساق إلى الجندية الاجبارية حوالي ثلاثة آلاف شاب دمشقي. وجعل بدل الخدمة العسكرية مئتي ليرة ذهبية لمن يرغب فدفع مئتي شخص من ابناء الأعيان البدل النقدي. وفي الوقت نفسه قامت السلطة العثمانية بجمع الأموال من دمشق للتعويض على المنكوبين، وتمكنت من جباية مئات الألوف من الليرات الذهبية غرامة من أهل دمشق لبناء الحي المحروق. ويقول كرد علي أنه لم يصل إلى من أريد معاونتهم من المنكوبين النصارى أكثر من ربع المبلغ وضاع الربع الثاني في النفقات، واختلس عمال الحكومة الربع الثالث، وأصاب صيارفة اليهود الربع الرابع[٤٨]. ويقول الحسيبي المعاصر للأحداث «إن المسلمين الذين كلفوا بجمع

المال جمعوا أكثر مما طلب منهم والبلد خربت»[٤٩]. كما استغل الأعضاء المسيحيون في لجنة تقدير التعويضات مراكزهم لتحويل قسم كبير من التعويضات إلى جيوبهم وجيوب عائلاتهم القريبة منهم، في حين لم ينل فقراء المسيحيين الا النذر اليسير[٥٠].

من خلال هذه الأرقام يمكننا بسهولة معرفة من هو الرابح ومن الخاسر من أحداث دمشق ١٨٦٠.

كان موظفو الدولة العثمانية ومعهم صيارفة اليهود في ولاية دمشق هم أول من استفاد من المجازر والمذابح الجارية. وربحت الفئات الحاكمة العثمانية الاقطاعية كثيراً وحصلت على حصة النمر من الغنيمة. إن اعدام عدد ضخم من أهالي دمشق ونفي عدد آخر وسوق الآخرين إلى الجندية وابعادهم عن دمشق، على الرغم من مسؤوليتهم المباشرة عن الأحداث، كان ضربة قاصمة موجهة إلى دمشق والحركة الشعبية فيها. وقد انهكت المجازر وما تبعها من عقوبات عامة الناس وأخّرت قيام الحركة الوطنية العربية المناهضة للأتراك عشرات السنين. وربحت الدولة من كل هذا تذليل الرعية واخضاع الزعماء وأرباب المقاطعات[٥١]. كما وجهت هذه الأحداث ضربة قاصمة للتطور البورجوازي في دمشق سواء في الأوساط المسيحية أم المسلمة. فقد خسرت دمشق ألوفاً من البيوت المسيحية، التي هاجرت إلى بيروت وقبرص ومصر واستوطنت هناك استيطاناً دائماً[٥٢]. وأدى ذلك إلى خسارة النواة

البورجوازية الدمشقية، وبقاء دمشق خاضعة لفترة أخرى من الزمن للعلاقات الاقطاعية الشرقية. ولم تتمكن القوى المسلمة المتنورة، التي كان مفروضاً أن تحمل لواء التطور البورجوازي، من وقف أعمال المجازر وأُصيبت بالذعر واستسلمت إلى القوى الاقطاعية الرجعية أو اضطرت للهرب من دمشق والالتجاء إلى مصر.

وهكذا نرى أن أحداث ١٨٦٠ كلفت دمشق والحركة الشعبية فيها ثمناً غالياً. وكانت نصراً واضحاً للقوى الرجعية في استنبول ودمشق على قوى التقدم الاجتماعي الممثلة في الفئات الوسطى ذات الملامح البورجوازية الناشئة. وهذا مما أدى إلى تأخر ظهور حركة النهضة العربية في دمشق حتى مستهل القرن العشرين، ولم تتمكن الحركة الوطنية العربية في دمشق من الوقوف على رجليها إلا بعد انهيار الدولة العثمانية ١٩١٨. ووقع عبء النهضة العربية الحديثة على كاهل القوى المستنيرة في جبل لبنان وبيروت، التي وضعت أسس حركة البعث القومي في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومنذ مستهل القرن العشرين أخذ مركز النشاط القومي ينتقل تدريجياً إلى دمشق، إلى أن استقر فيها بعد الحرب العالمية الأولى.

حواشي الباب الخامس

(١) لم يكن الجو الديني العام في صالح ابراهيم باشا ومثال ذلك ما كتبه الاستاذ عبد الرزاق البيطار في تاريخه عن ابراهيم باشا : غشوم ظالم، وظلوم غاشم، خليفة الحجاج في أحواله، وتذكرة السفاح في أقواله وأفعاله». البيطار عبد الرزاق «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» حققه ونسقه وعلق عليه حفيده محمد بهجت البيطار. دمشق ١٩٦١. ص ٣٣٠.

(٢) يصف الأستاذ البيطار كيفية احتلال ابراهيم باشا لدمشق كما يلي: «. . . وفي ٣ محرم سنة ١٢٤٨ أرسل ابراهيم باشا إلى أعيان دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من دخولها، فلم يرسلوا إليه جواباً ثم طلب ذلك ثانياً، فأرسلوا إليه إن لا نمكنك من الدخول أصلاً. وفي ٨ محرم جاء الخبر بأن عسكره وصلوا إلى جسر بنات يعقوب، فاستعد أهل دمشق لقتاله واجتمع رؤساؤهم وتعاقدوا على ذلك، وحصل لأهل البلد والقرى انزعاج شديد. ثم شرع أهل الأطراف في نقل امتعتهم إلى السور وأرسل ابراهيم باشا الى بعض زعماء دمشق كتاباً يهددهم فيه. وفي ١٤ محرم وصل بعض جيوشه إلى قرب قرية داريا فخرج إلى لقائهم خلق كثير من أهل دمشق، وقاتلوهم قتالاً يسيراً ثم رجعوا مظهرين الانكسار والعجز، وباتوا تلك الليلة في كرب عظيم، وصار أهل كل محلة يحفظون محلتهم. وفي ليلة الخميس ١٥ محرم هرب وزير الشام علي باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد آغا الشربجي الديراني وغالب وجوه الشام وجميع الأتراك الموظفين، وأصبحت البلدة خالية من الرؤساء والأعيان، فأرسل ابراهيم باشا إلى أحمد بك الددالاتي فأقامه متسلماً في البلد، وأمر منادياً ينادي بالأمان. البيطار ص ٣٢١ والشطي محمد جميل «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» دمشق ١٩٤٦. ص ١٧.

(٣) المذكرات التاريخية. . ص ٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٦,.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٦) المذكرات التاريخية. . . ص ٦٠.

(٧) المذكرات التاريخية. . ص ٦٠.

(٨) «حسر اللثام عن نكبات الشام» المؤلف مجهول مصر ١٨٩٥، ص ٣٨.

(٩) المذكرات التاريخية. . . ص ٦١.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٢) عوض عبد العزيز: «الادارة العثمانية في ولاية سورية، القاهرة ١٩٦٩. ص ٢٤ نقلا عن أرشيف استنبول.

(١٣) قساطلي. . . ص ٩٠.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام ١٨٤٠ ـ ١٨٦٢» لأحد كهنة الأرمن، شاهد عياني. نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي. بيروت ١٩٢٧. ص ٢٢.

(١٦) حسر اللثام. . . ص ٣١.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(١٨) كان أحد الولاة ماراً في أحد أسواق دمشق. وكانت الأسواق ضيقة في ذلك العهد فمر رجل مسلم ومعه دابة محملة عنباً فمست الدابة الوالي، فأمر بقطع رأس ذلك الفلاح المسكين. حسر اللثام. . . ص ٣.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٢١) الطاروق منخفض في وسط الزقاق يبلغ أقل من شبر انخفاضاً وعرضاً من ذراع ونصف إلى ذراعين وعلى جانبيه رصيفين للمارة، ويسير في الطاروق الحيوانات محملة وغير محملة. وفي الشتاء تجتمع فيه مياه الأمطار وفي الصيف الأقذار. .

(٢١/١) الحسيبي. . . ص ٦.

(٢١/٢) المصدر نفسه. . . ص ٧.

(٢٢) لوتسكي. . . ص ٢٣.

(٢٣) غرايبة عبد الكريم: «سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤ - ١٨٧٦» القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢. ص ٧٤.

(١/٢٣) الحسيبي . . . ص ٦. هاجر الفلاحون الحوارنة إلى دمشق طلباً للأمان وهرباً من أعمال النهب، التي قام بها البدو، انظر فيليب خوري: «طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ - ١٩٠٨». ص ١٥. بحث قدم إلى مؤتمر تاريخ بلاد الشام بدمشق.

(٢٤) خير دليل على منزلة المسيحيين اقتصادياً **واجتماعياً** في دمشق ما أورده شاهد عيان معاصر للأحداث حول غنى مسيحيي دمشق، وهم كما قال: «مهذبون بالصنائع والآداب الحميدة ولطف الأخلاق وحسن العشرة وكثرة العلوم الأمر الذي لا يمكن نجاحه بدون غنى وافر وعقار ثابت. ثم متاجرهم وتجارتهم في البلاد السورية وافريقية والأناضول والاستانة وأوروبا». خسر اللثام . . . ص ١٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(١/٢٥) يذكر الحسيبي أن حريم راشيا وصلت إلى دمشق «حيث لا وطن لهم ولا رجال ولا حوايج (حاجات، فقط السترة» فقام محمد أفندي حسيبي فساعدهم وجمع لهم بعض الحاجيات اللازمة. كما أرسل **لهم عبد** القادر المغربي (الأمير عبد القادر) الدراهم. وأخذوا لهم داراً في حي القنوات المسلم لايوائهم وجمعت لهم التبرعات من اتقياء المسلمين. الحسيبي محمد أبو سعود: «حادثة دمشق سنة ١٢٦٠. مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (عام ٤٦٦٨)، ص ٧. نشر المخطوط بتحقيق كمال الصليبي في مجلة الأبحاث (تصدرها الجامعة الأميركية في بيروت) في العدد ٢١ (١٩٦٨) والعدد ٢٢ (١ - ٢ - ١٩٦٩) حسر اللثام . . . ص ٢٢٤.

(٢٦) حسر اللثام . . . ص ٢٢٤.

(٢٧) الحسيبي . . . ص ٧.

(١/٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) حول تفاصيل هذا الاستفزاز انظر وصف الشيخ عبد الرزاق البيطار المعاصر للأحداث في كتابه المذكور آنفاً. وكذلك حسر اللثام . . . ص ٢٢٦ - ٢٣٣. ونبذة مختصرة في حوادث لبنان وسورية لأحد كهنة الأرمن . . . ص ٢٤ - ٢٦. والحسيبي في مخطوطة ص ٤.

(٢٩) نبذة مختصرة... ص ٢٨.

(٣٠) المصدر نفسه. هذا ما ذكره المؤرخ المسيحي، أحد كهنة الأرمن. أما راوي الحادثة الحسيبي، وهو ابن نقيب الأشراف، فيدافع في مخطوطه عن الشيخ عبد الله الحلبي كاتباً أن الشيخ عبد الله الحلبي استنجد بأهل الصالحية لإطفاء الحريق وحماية الجامع الأموي تحسباً من حرقه. فما كان من هؤلاء بعد أن قتل النصارى أحدهم - حسب راوية الحسيبي - الا أن شرعوا في القتل والنهب والحرق كغيرهم. ويبذل الحسيبي جهداً كبيراً في مخطوطه للدفاع عن أهل الشام وتبرئتهم من جريمة نهب الحي المسيحي وحرقه وقتل آلاف الناس زاعماً أن معظم القتل والنهب جرى على يد «الدروز والأكراد». وهذا الرأي لا يمثل الا قسماً في الحقيقة، لأن «اشقياء» الاحياء الدمشقية شاركوا بنشاط في النهب والسلب والقتل فيما اسماه الحسيبي «حادثة نصارى الشام». ومن أجل تبرئة أهالي الشام يلقي الحسيبي، وهو من حي القنوات، التهمة على «أهل الميدان» و «هم أول من دخل حارة النصارى أكلوا الهبر وتركوا العظم».. ولكن الوقائع التاريخية تنفي اتهام الحسيبي لأهالي الميدان، الذين حموا المسيحيين في بيوتهم جهد طاقتهم.

(٣١) حسر اللثام... ص ٢٣٥.

(٣٢) نبذة مختصرة... ص ٣٠. يصف الحسيبي الحادثة بقوله: «وصارت الاشقياء ترد الى حارة نصارى دمشق الشام للنهب والقتل والحرق والسبي والعياذ بالله» ص ١٠.

(٣٣) نبذة مختصرة... ص ٣٣. اثناء تلك الأحداث لم يصب الحي اليهودي بأذى. وكان اليهود يقدمون للمهاجمين الماء ممزوجاً بالسكر وماء الليمون وماء الورد. ولا يخفى أن العداء كان مستحكماً بين النصارى واليهود. نبذة مختصرة... ص ٣٠.

(٣٤) المصدر نفسه، وحسر اللثام... ص ٢٣٤.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) نبذة مختصرة... ص ٣١.

(٣٧) هذه شهادة المؤرخ المسيحي المجهول صاحب كتاب حسر اللثام... ص ٢٣٤.

(٣٨) سيقف البيطار فيما بعد إلى جانب حركة الاصلاح، التي قادها الأفغاني ومحمد عبده. وهو من أعداء البدع واشتهر بالانكار على **أرباب** الخرافات، وممن قاوم بلسانه وبراهينه تلك الخزعبلات. انظر مقدمة حفيده لكتابة الآنف الذكر: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر».

(٣٩) البيطار. . . ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤٠) نقلاً عن البيطار في حاشية بهجت ص ٢٦٤.

(٤١) نبذة مختصرة. . . ص ٣٣.

(٤٢) أشرنا إلى ذلك فيما كتبنا عن حلب.

(٤٣) هذا ما رواه للمؤلف عبيد البطل نقلا عمّا سمعه من المسنين في دير عطية، الذين عاصروا الأحداث. في حديث معه في ٢٠ حزيران ١٩٧٧.

(٤٤) مقابلة مع الخوري نقولا رزق في ٢٠ تموز ١٩٧٧. ويقول الخوري أن أخاه كان من جملة الضحايا.

(٤٥) هذا تعبير المؤرخين المسلمين المستنيرين أمثال البيطار وكرد علي.

(٤٦) لوتسكي. . . ص ٣٨.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) كرد علي محمد: «دمشق مدينة السحر والشعر».

(٤٩) مصر **بلا** تاريخ. ص ٤٢ - ٤٣. يسوق الحسيبي أمثلة كثيرة منها أن الليرة الذهبية المجيدية كان **سعرها** الرسمي ١٢٥ غرشاً بلدياً فكان عمال الحكومة يحسبوها بسعر ١٢٣ غرشا. يذكر الحسيبي اسماء بعض المسجونين على أثر الحادثة ومنهم بعض اصحاب الدكاكين في باب البريد وبعض التجار وأغاوات الشاغور ووجهاء البلد واعضاء المجلس الكبير ص ١٣.

(٥٠) فيليب شكري الخوري. . . ص١.

(٥١) كرد علي. . . ص ٤٣.

(٥٢) المصدر نفسه.

الباب السادس

دمشق بعد ١٨٦٠

خمود تحركات العامة واسبابه .

أهم الاحداث ذات الصلة بالعامة

ظهور العائلات الثرية وترسخ اقدامها في شتى الميادين .

طباع العائلات الثرية وسلوكيتها .

اصناف العائلات الثرية وادوارها .



الفصل الاول

خمود تحركات العامة واسبابه

على الرغم من الكارثة، التي اصيبت بها دمشق في احداث ١٨٦٠، وعلى الرغم من تعثر سير التطور البورجوازي وبقاء العلاقات الاقطاعية الشرقية سائدة، وعلى الرغم من تصدع الجبهة الداخلية واجهاض الحركة الشعبية، وعلى الرغم من تأخر ظهور النهضة القومية، وعلى الرغم من الكوارث الطبيعية والبشرية التي حلت بدمشق، على الرغم من كل هذا، فإن عنصر البقاء والحياة هو الغالب. وكان لا بد للمدينة من التغلب على آثار الكارثة وتحمل مشاق العيش، الذي فرضه النظام الاقطاعي الشرقي بوجهه الجديد بعد قيام حركة الاصلاح في الدولة العثمانية.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اختفى من دمشق الباشوات الاقطاعيون السابقون، الذين رأينا نماذج من حياتهم وتعسفهم. ودخلت مع حركة الاصلاح مفاهيم بورجوازية محدودة في الادارة والحكم. وكان الامر الجديد الذي عاشته ولاية الشام وسائر ولايات الامبراطورية العثمانية، الغزو الامبريالي للرأسمال الاوروبي وتحول الدولة العثمانية الى دولة

نصف مستعمرة خاضعة للنفوذ الانكليزي والافرنسي اولا ثم الالماني ثانيا.

وثمة جملة أسباب ادت الى خمود، بل انعدام، تحركات العامة بعد ١٨٦٠ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي.

١ - الاصلاحات المعروفة في التنظيمات في الفترة الاولى ١٨٣٩ والفترة الثانية ١٨٥٦، والتي أدت الى الحد من طغيان الولاة وقضت على الانكشارية وزرعت بذور المفاهيم البورجوازية مما قضى على كثير من أسباب تحركات العامة السابقة.

٢ - التطور الاقتصادي الجاري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتحسن حياة جماهير العامة بالقياس الى الفترات السابقة. وقد أدت عملية نمو السوق الرأسمالية الى تجمع الثروات في المدن والى ازدياد الاشغال ورضاء الحرفيين عما يجري، في وقت لم تكن آثار الغزو الرأسمالي للسوق قد أدت الى ضرب الانتاج الحرفي كما جرى بعد الاحتلال الاستعماري المباشر لبلاد الشام.

٣ - ان فرض هيبة السلطة المركزية بعد الاصلاحات وتطور طرق المواصلات وتنظيم جباية الضرائب من الريف أدى الى استقرار الطبقة الفنية في المدينة وبدأت تقتبس من الحضارة البورجوازية الغربية وتقلدها وبخاصة في عملية البذخ. وهذا مما أدى الى إفقار الريف وغنى المدينة. وتمتع العامة بجزء زهيد

من هذا الغني، بسبب رواج بضائعهم وسوق عملهم مما دفعهم الى الركود وعدم القيام بأي تحرك، في الوقت، الذي تململ فيه الفلاحون من شدة وطأة الضرائب بعد تمركز السلطة وتنظيمها نسبياً.

٤ - في أواخر القرن التاسع عشر انتقل المركز الثوري في بلاد الشام الى بيروت ولبنان. وبدأت امواج النهضة العربية ترتفع من هناك معبرة عن بداية التطور البورجوازي في بيروت والساحل ودخول الافكار الثورية بصورة سهلة الى الساحل. وبقيت بيروت محافظة على مركزها الثوري هذا حتى الحرب العالمية الاولى عندما استردت دمشق مكانتها السابقة وقادت النضال الوطني ضد الاستعمار الافرنسي. وعلى الرغم من وجود طبقة متوسطة في دمشق سعت الى الاصلاح وأيدت بعض مطالب الحركة الاصلاحية في بيروت، الا أن هذه الحركة بقيت ضعيفة ولم تستطع جر جماهير العامة وراءها.

٥ - بعد مجيء السلطان عبد الحميد الى الحكم وقمعه لحركة الاصلاح وزعيمها مدحت باشا وعرقلته للتطور البورجوازي الفكري التقدمي آنذاك. تراجع الفكر الثوري بسبب الارهاب. ووصل الامر بعبد الحميد الى درجة انه منع الصحف والكتب من كتابة كلمات مثل: الجمهورية، الثورة، الاغتيال، الانقلاب، الدستور، البرلمان... الخ. وكانت ترتبط بعبد الحميد شبكة دقيقة واسعة من الجواسيس الموزعين على عدة حلقات والمنبثين في سائر الولايات لقمع أي تحرك مهما صغر شأنه.

٦ ـ فتح عبد الحميد باب التوظيف ـ وبتعبير أصح، باب الارتزاق ـ على مصراعيه لكسب ولاء المتنفذين. فأُرهقتَ خزينة ولاية الشام. وكثيرا ما كانت الرواتب تتأخر وتتراكم مدة شهور. وهذا مما دفع الموظفين للرشوة فازدادت عوامل الفساد وتغلغلت في سائر مظاهر الحياة. وعن هذا الطريق ـ طريق التوظيف ـ سعى عبد الحميد لامتصاص النقمة الشعبية عن طريق رشوة من يمكن ان يتحركوا ويقودوا العامة أو حركة الاصلاح عموماً.

٧ ـ كانت العامة، كما رأينا، منتظمة في الطرق الصوفية المتعددة ذات السمات الايجابية والسلبية، الثورية والخاملة الخانعة. وكان للجوانب الثورية من الصوفية دور بارز في تحركات العامة المشار اليها سابقاً، وجاء عبد الحميد وسعى **لاحتضان الصوفية وطرقها وخنق الجوانب الثورية فيها** وترجيح جانبها السلبي الخامل المؤدي الى الخضوع للحاكم والابتعاد عن المشكلات الاجتماعية. وقد نجح عبد الحميد نجاحاً باهراً في كسب معظم الفرق الصوفية الى جانبه وتوجيهها توجيها ينسجم مع سياسته كسلطان ممثل للسلطة الاقطاعية العثمانية في عصر الغزو الامبريالي والصراع بين قوى الرأسمال الاوروبي (الافرنسي، البريطاني، الالماني). ولهذا فان العامة، أو أقسامها الرئيسية، خضعت خضوعاً تاماً للسلطان عبد الحميد وخُدعت بسياسته المعروفة بالجامعة الاسلامية. وامسينا نرى العامة تقف في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ضد حركة التنوير والتجديد الاسلامي والنهضة

العربية عامة. بسبب اعتقادها، الخاطيء، ان حركة النهضة العربية هي ضد الدين الاسلامي، كما اوحي لها بذلك رجال الدين الموالين للسلطان عبد الحميد والمطبلين له.

٨ - لم يكن من المعقول في ظل الجو الارهابي الاستبدادي، وفي ظل الارهاب السياسي والفكري وفي الهواء المشبع بالمواد المخدرة للعامة، من ظهور أية حركة شعبية او ولادة اية حركة ثقافية.[٥٨] وعاشت دمشق في ظلام دامس بالقياس الى التطور الجاري حولها. واستمر اهتمام الناس بالقشور دون اللباب واستمر الجمود والتخلف حتى زوال السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨. وعندها تمكنت حركة الاصلاح المقهورة ان تسترد انفاسها وتبدأ في التحرك على اعتاب الحرب العالمية الاولى.

وما أن انهارت الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وتحررت العامة من العبودية الفكرية للسلطان، رأس السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية، حتى هبت العامة من جديد للنضال تحت قيادة البورجوازية الوطنية الصاعدة ضد الاحتلال الافرنسي. مستلهمة في النضال تقاليدها الثورية السابقة في القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر.



أهم الاحداث ذات الصلة بالعامة

جرت في دمشق جملة من الاحداث ذات الصلة بحياة العامة بعد ١٨٦٠ وهي:

- سنة ١٨٦٤ راجت الاعمال وكثرت ارباح التجار. وفي هذه السنة دخلت الماسونية دمشق عن طريق الوالي العثماني. كما دهم الجراد الريف واتلف المزروعات.

- ١٨٦٥ حلّ الهواء الاصفر (الكوليرا) في المدينة واخذ معه نحو عشرة آلاف نفس.

- ١٨٦٧ حدث غلاء شديد وتوقفت الاشغال وهبط سعر الحرير فلحق باصحابه ضرر كبير. واستمرت الازمة حتى ١٨٧١.

- ١٨٦٨ ظهرت في دمشق العربات لاجل نقل النفايات (الزبالة) من سائر اقسام دمشق الثمانية.

- ١٨٧٣ انحبست الامطار مما أدى الى ارتفاع الاسعار وأصاب الاهالي ضيق شديد. وفي آذار هطلت الامطار والثلوج فأغلقت الطرقات واشتد الغلاء.

ـ ١٨٧٥ عاد الهواء الاصفر واستقام شهرين ومات به تسعة آلاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى، الذين اتخذوا الاحتياطات الطبية ضد هذا الوباء. وفي أواخر أيار من تلك السنة هطلت الامطار بغزارة فطاف نهر بردى واقتلع الجسور المتينة، وارتفعت المياه فوق أرض المرجة ذراعاً ونصف ودخلت السرايا وسوق الخيل والمحايريّة ووصلت الى العمارة.

ـ ١٨٧٩ عندما تولى مدحت باشا ولاية الشام كان السوق التجاري الرئيسي ـ سوق الطويل ـ الممتد من باب الجابية الى مأذنة الشحم ضيقاً بسبب تعدي التجار على الطريق وتوسيع حوانيتهم على حساب الشارع. فأمر مدحت باشا باخلاء السوق لتوسيعه فلم يقبل التجار، فأمر بحرقه، فحرقوه بالفعل، وخلال مدة قصيرة عمّره أصحابه واصبح على وضعه الحالي[٣]. ومدحت باشا اجرى عدة إصلاحات في دمشق، كما هو شأنه في الاماكن التي حلّ بها قبل موته، أو قتله.

ـ ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ أخذت الاحوال تتأخر بسبب الحرب التركية الروسية وسوق الكثيرين الى ساحة القتال ونقص اليد العاملة.

ـ ١٨٧٧ تحسنت الاحوال قليلاً بعد عقد الصلح بين الروس والاتراك في منتصف عام ١٨٧٧ فراجت الاشغال قليلا، ثم عاد الغلاء، وفي أوائل هذه السنة هطلت الامطار بكثرة وتساقطت الثلوج بكثرة وبصورة مستمرة، حتى ان الناس لم تر الشمس مدة شهرين ونصف. وقد ذكر الشيوخ بأن هذه

الامطار الغزيرة لم تهطل في دمشق منذ أيام حكم ابراهيم باشا، وفي الربيع اتى الجراد فاتلف المزروعات الصيفية وأضر بالاشجار، ثم تبعه مرض أبو هذلان فافنى الابقار.

- (١٨٧٦ - ١٩٠٨) دمشق في ظل الاستبداد الحميدي . . . على الرغم من مجيء بعض الولاة ذوي الهمة لادارة شؤون الولاية، إلا أنهم جميعاً اتصفوا بالطمع وحب المال. فازدهرت الرشوة وعلا شأن المنافقين والمطبلين والمزمرين للولاة. وانتشرت المفاسد. ولم يكن بامكان الصدر الاعظم مدحت باشا، الذي قاد حركة الاصلاح في العاصمة استنبول ووضع دستور ١٨٧٦ المعروف بالمشروطية الاولى، وعُيِّن والياً على دمشق، بهدف إبعاده عن العاصمة تمهيداً لقتله. لم يكن بامكان هذا الوالي المصلح ان يغير شيئاً يذكر[٤]، وسرعان ما أقيل وخضعت ولاية الشام وسائر الولايات، الى الحكم الاستبدادي الارهابي للسلطان عبد الحميد من ١٨٧٦ - ١٩٠٨.

وكان ولاة عبد الحميد في دمشق صورة مصغرة عنه ومرآة صادقة للدولة الاقطاعية الشرقية في عصر انهيارها ومثال على ذلك والي دمشق عثمان نوري باشا، الذي حكمها للمرة الثانية عام ١٨٩٢. وكان لهذا الوالي كما يقول الحصني[٥].

«طرق غريبة في الرشا واستخراج اموال الناس واحتيال عجيب على الاغنياء، فجمع بذلك اموالاً طائلة، ولم يكن يهمه من احوال البلد شيء، إلا اصطياد الدراهم والدنانير وايقاع

التفرقة بين الوجهاء ليبقى آمنا من ناحيتهم ويحول دون اتحادهم ضده».

ومن طرائف ما كتبه فخري البارودي عن عهد السلطان عبد الحميد، انه وجد بين المنفيين في دمشق فؤاد باشا وهو من كبار الاتراك. ولما نجح الانقلاب عام ١٩٠٨ ضد عبد الحميد لم يطلق سراح فؤاد باشا من سجنه. ولذلك ذهب المحامي فارس الخوري واسعد بك اركان حرب الى مدعي عام الولاية، وطلبا اليه اخلاء سبيل فؤاد باشا، فأجاب: لم يصلني اوامر من الاستانة! قالوا: أي أوامر تنتظر؟ هل بيدك امر مخطوط بسجنه؟.. فلما أجاب سلباً، قالوا: اذن القانون يمنعك من إبقائه في السجن[٦]...

ولم يكن امر القاء الناس في غياهب السجون دون مذكرة توقيف قضائية ودون محاكمة امراً شاذاً انفرد به عهد السلطان عبد الحميد، بل كان سمة أساسية من سمات الحكم الاقطاعي الشرقي (العثماني) وما افرزه من بنيات فوقية في طليعتها «الاستبداد الشرقي». فقد جاء في تقرير الوالي العثماني المصلح مدحت باشا سنة ١٨٧٩ أنه وجد «في سجن طرابلس قوم سجنتهم الحكومة احدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد اخلينا سبيلهم»[٧].

ومدحت باشا هو المصلح، الذي قاد أول حركة اصلاح بورجوازية في الدولة العثمانية، ووضع دستور ١٨٧٨، الذي وافق عليه السلطان عبد الحميد ثم تنكر له بعد ان ثبت أقدامه

وشرع في قتل الاحرار ونفيهم و. . . وكان من نصيب مدحت باشا الابعاد الى ولايات دمشق وبغداد واليمن حيث مات، أو قتل مسموماً كما أشيع. ولمدحت باشا فضل كبير على تطور الحركة الاصلاحية في دمشق.

وكانت الألقاب تباع وتشرى في المزاد العلني. فيصبح الامعة والجاهل والسخيف صاحب رفعة «رفعتلو» وعزة «عزتلو» وسعادة «سعادتلو»، ويمنح عليها رتبة «البكوية»! . . والى هذا أشار احد رجال النهضة العربية فرنسيس المراشي الحلبي الاصل في شعر، ناشداً[7]:

كم دولة او رفعة او عزّة
شُريت بمال، او برشفة كاس
كلمات تعظيم على مستحقر
لم يسو فلساً في غلاء الناس



الفصل الثالث

ظهور العائلات الثرية وترسخ أقدامها في شتى الميادين

مع خمود تحركات العامة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومع التطور البطيء لحركة التنوير والنهضة العربية - بالقياس إلى جبل لبنان وبيروت - بدأت تظهر وتتوضح في دمشق معالم العائلات، التي سيصبح لها دور في توجيه السياسة المحلية حتى منتصف القرن العشرين. ولم يكن ظهور وانتعاش وترسخ جذور العائلات الثرية ذات النفوذ والسطوة، حادثاً عرضياً جرى بمحض الصدفة، بل كان وليد التطور والاصلاح المتعثر، الذي جرى في الدولة العثمانية، ونتيجة جملة عوامل نوهنا ألى بعضها في دراستنا ونجملها فيما يلي:

١ - اندفاع العلاقات القائمة على تبادل البضائع بالنقود وبداية انحسار الاقتصاد الطبيعي (بضاعة مقابل بضاعة[٨].

٢ - ازدياد التبادل بين المدينة والريف، وبين اجزاء بلاد الشام فيما بينها، وبين بلاد الشام والعالم الخارجي. وهذا مما رفع من قيمة المنتجات الزراعية وأثمانها ودفع تلك العائلات لحيازة الأرض وتسجيلها باسمها بنهم وأساليب رهيبة وشريرة.

٣ ـ وجاء قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨[٩] ليضفي الصفة الشرعية على الملكية الخاصة الفردية، بعد أن كانت ملكية الدولة للأرض هي القاعدة العامة السائدة. لقد ألغي هذا القانون بصورة شرعية نظام الاقطاعيات العسكرية وتبعية الفلاحين لأصحاب التيمار من الفرسان السابقين في الجيش، الذين حصلوا على أراضي التيمار لقاء الخدمة العسكرية في الجيش. ولكن قانون ١٨٥٨ لم يمنح الأراضي للفلاحين، بل اكتفى باعطاء مستأجري اراضي الدولة حق شرائها والزامهم بدفع مبلغ كبير كثمن لها. ووسع قانون الأراضي هذا أصناف الأراضي التي أمست ملكاً خاصاً، وساعد على تطوير الملكية الخاصة للأرض وجعلها المفروضة على استعمال الأراضي، التي كان من شأنها اعاقة المبادرة الاقتصادية[١٠].

وبعد صدور قانون الأراضي بقليل صدر في سنة ١٨٦١ قانون تسجيل الأراضي العثماني «الطابو» لضبط حدود الأراضي وتنظيم جباية ضريبة العشر[١١]. وعندما ازداد الصراع العنيف بين القوى الاجتماعية على امتلاك الأرض. وكانت الغلبة طبعاً لأصحاب النفوذ السياسي والديني والعسكري. ففي ظل ظروف سيطرة الدولة العثمانية الاقطاعية الشرقية فُسّر قانون الأراضي وطُبق في صالح «أولي الأمر»، ومن في يدهم مفاتيح تسجيل هذه الأراضي في دوائر الدولة العقارية، أو من يملكون الثروة مقدماً، وبامكانهم رشوة الحكام وتسجيل الأرض أو شرائها اسماً وبأسعار بخسة.

ويذكر أحمد وصفي زكريا سبب انتقال ملكية قرى المرج

وبعض قرى الغوطة الشرقية إلى اغنياء دمشق وتجارها ومتنفذيها، أي «أرباب الوجاهة»، «بسبب هجمات البدو وتشدد ملتزمي بدلات الأعشار ورجال الجباية في القرن التاسع عشر». «وهذا مما أجبر الفلاحين الفقراء في الغوطة الشرقية إلى اللجوء لحمى أعيان دمشق ومتنفذيها يبيعونهم قريتهم كلها أو جلها بأثمان بخسة. وقد انتقلت من جراء ذلك أكثر قرى هذه الناحية إلى أيدي بعض الأسر الدمشقية أمثال آل اليوسف والعظم والعابد والجزائري والأيبش والموره لي والبارودي والدالاتي والكيلاني والعجلاني والصمادي والعاني والأيوبي والقوتلي والصواف والجلاد والشلاح والخياط والمملوك ونصري ومردم وقصاب باشي وغيرهم. وكثيراً ما كانت تنتقل «ملكية» الأرض بين فترة وأخرى من أسرة إلى أسرة، أو من فرد إلى فرد تقاسماً أو توارثاً أو شراء وبذا صار أهل الغوطة الشرقية اجراء ومزارعين لدى الملاكين من دمشق بعد أن كانوا سادة أرضهم(١٢)...

معنى ذلك أن تسجيل الأراضي الزراعية بعد ١٨٥٨ لم يتم في صالح الفلاحين المعدمين والفقراء والمتوسطين، بل تم في صالح اغنياء الريف في حدود ضيقة، وفي صالح اثرياء المدينة وزعمائها وكبار الموظفين والضباط(١٣) ممن أسماهم كرد علي «أرباب الوجاهة»(١٤) وهذا التملك الجديد للأراضي وما تدره من أرباح وثروة أحدث خللاً في نسبة التوازنات الاجتماعية والسياسية والأسرية، وخلق قوى جديدة صعدت في السلم الاجتماعي من الفئات الوسطى، مع ترسخ اقدام الأسر

القديمة ذات النفوذ الديني.

فالعائلات الدينية **هذه** بالاضافة إلى اشرافها على الأوقاف وتحقيق النفوذ والثروة عن هذا الطريق[١٥]، قامت بتسجيل مالكاناتها السابقة كملكيات خاصة. ومع أن هذه العائلات سعت للمحافظة على مواقعها، الا أن نفوذ ها تراجع وتأثيرها تضاءل، بسبب معارضتها للتنظيمات والاصلاح وانفلاتها على نفسها. ولكن قسماً من هذه العائلات سعت للتسوية ومسك العصا من منتصفها فاهتمت في أمور الدين من جهة ونشطت في أمور الدنيا واندفعت إلى التوظيف والوصول عن طريق المراكز الادارية إلى ما تبتغي.

وقد فقد العلماء (الأسر الدينية) احتكارهم للنظام القضائي بعد تطبيق الاصلاحات وظهور المحاكم المدنية. وبذلك فقدوا بعض مفاتيح السلطة وحتى أبوابها. وبسبب المنافسة على المراكز الدينية المحدودة وعدم تمكن جميع أفراد الأسر الدينية (العلماء) من احتلال المناصب الدينية المحدودة، فإنهم اندفعوا نحو المناصب الحكومية (الدنيوية) للمحافظة على مستواهم الاجتماعي أو تحسينه والسير في قافلة السباق على حيازة الثروة.

من جهة أخرى فقد رجال الدين احتكارهم السابق للثقافة والتربية. وظهرت المدارس العلمانية المتأثرة بالثقافة البورجوازية الغربية. ومدارس ذلك العصر كانت نوعين لهما أثرهما في تخريج الكوادر للدولة وللحياة الاقتصادية، وبالتالي في

خلق مراكز قوى سياسية جديدة. هذان النوعان من المدارس هما:

أ ـ مدارس الدولة العثمانية، التي خرجت الكوادر المدنية والعسكرية. وهذه الكوادر كانت على درجات والمراتب العليا منها تمكنت أيضا من الاثراء عن طريق سرقة أموال الدولة والرشوة وتسجيل الأراضي باسمها.

ب ـ مدارس البعثات التبشرية، التي كانت أكثر حداثة وعقلانية وخرّجت الكوادر، التي نشطت في الأعمال الاقتصادية والعمل مع البعثات الدبلوماسية (ومعظم هؤلاء من المثقفين المسيحيين). وهذه الكوادر كونت بذور التفكير البورجوازي وأسهم بعضها في حركة النهضة العربية... وإلى جانب هؤلاء وجد في المدارس التبشيرية بعض ابناء الأسر الثرية المسلمة وعدد من ابناء كبار موظفي الدولة العثمانية. وقد لمع عدد من خريجي هذه المدارس في كوادر الدولة مثل أحد عزت باشا العابد السكرتير الخاص للسلطان عبد الحميد، واشترك قسم آخر بنشاط في الحركة الوطنية العربية مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الزعيم الأول للحركة الوطنية في سورية في العشرينات.

إن مجمل تلك العوامل أدت إلى امتزاج وتداخل الأسرة القديمة ذات النفوذ مع الأسر الصاعدة في السلم الاجتماعي والحديثة النعمة في الثراء والنفوذ. وقد أتى التزاوج بين الأسر القوية لتحقيق أحلاف جديدة ومراكز قوى جديدة، فالتزاوج

كان يجري مبدئياً ضمن أفراد الأسرة للمحافظة على ارثها وعدم تشتت أملاكها. ولكن التزاوج القائم على أساس عقد التحالفات **أمسى** أيضاً ظاهرة بارزة بين الأسر الكبيرة الدينية وغير الدينية. مع ملاحظة أن الأسر الدينية كانت تتردد في مصاهرة العائلات الأخرى القديمة الثراء أو الحديثة حفاظاً على سمعتها ودينها. ومن جهة أخرى كان التجار الاغنياء يسعون إلى الارتقاء من خلال مصاهرة العائلات القديمة السياسية الغنية ذات النفوذ. وذلك ليتمكنوا عن هذا الطريق من تسيير أمور تجارتهم على أحسن سبيل. فالسياسة والاقتصاد صنوان لا يفترقان، وان ظهر شكلا أنهما بعيدان عن بعضهما في بعض الأحيان. كما لوحظ اتجاه واضح للزواج من بنات العائلات «الاستمبولية» الرفيعة ذات النفوذ والباع الطويل في التوظيف ومنح الألقاب وكسب الجاه أو المزيد منه. وباتت صالونات قصور العائلات الكبيرة هذه تستخدم اللغة التركية إلى جانب العربية، وأخذت «الأيديولوجية الاقطاعية العثمانية» تترسخ أكثر فأكثر في أوساط تلك الطبقة.

إن دراسة تاريخ صعود الأسر الدمشقية إلى قمة السلطة السياسية المحلية والعثمانية تبين تفاعل عملية ديالكتيكية رائعة تلقي الاضواء على ترابط الاقتصاد بالسياسة: فالوصول إلى المناصب الادارية الرفيعة وسيلة لتسجيل الأرض باسماء هؤلاء الموظفين وضمان الثروة وما تقدمه من جاه ونفوذ وسطوة وارتقاء إلى أعلى السلم الاجتماعي الاقطاعي الشرقي العثماني. . واحتلال المراكز الهامة في المؤسسة الدينية تمكن أصحابها من

ادارة الأوقاف والوصول عن هذا الطريق إلى تسجيل الأراضي والأملاك وحيازة الثروة.. والنفوذ القديم التقليدي للعائلات شبه العسكرية (بقايا الانكشارية المحلية) يمكنها من السيطرة على طرق التجارة ومن تسجيل الأراضي وتوسيع رقعة سيطرتها ورهبتها.. وتحقيق الأرباح التجارية تدفع باصحابها أ إلى شراء الأراضي ورشوة الحكام وتسجيل الأراضي بأسعار زهيدة.

وهكذا فالجاه والثروة والمنصب والمقام الاجتماعي تجلب منفردة أو مجتمعة «الخير» والأرض المسجلة في دوائر الطابو. وهذه الأرض الواسعة الشاسعة تُغل عليهم واردات وثروة جديدة يستخدمونها لرفاههم أو لزيادة ثروتهم والمحافظة على مناصبهم ورشوة السلطات العثمانية وشراء المناصب لأفراد الأسرة الشباب، ودفع الرشاوي **للمحافظة** على المناصب الوراثية للأسرة، وشراء عقارات جديدة ونهب أراضي جديدة وثروة جديدة، وهكذا دواليك.

ويصدق هنا المثل العامي المعروف: «المال يأتي بالمال والقمل يأتي بالصئبان»... فمن يملكون ولا ينتجون يزدادون غنى وثراء ومن ينتجون ولا يملكون يزدادون فقراً وبؤساً وشقاءً.. تلك هي سنة ذلك النظام الطبقي الاقطاعي العثماني، وسنة كل نظام يستثمر الانسان فيه أخاه الانسان.. الثروات تصب في جيوب الأقلية والبؤس يعم ويخيم على الأكثرية...

وللحفاظ على نفوذ تلك العائلات الثرية قديماً أو حديثاً كانت الأراضي تسجل باسم العائلة كوحدة متماسكة وليس

باسم فرد من أفرادها. ومن أجل حماية الأراضي كانت العائلة تفضل أن تضع قسماً من أملاكها على شكل وقف أهلي يكلف عميد الأسرة بمهمة ادارته وتوزيع ارباحه على أفراد الأسرة. وكانت هذه العملية تدفع الأسرة الغنية إلى التماسك والتضامن والدفاع عن بعضها البعض، طالما أن ثمة رابطة اقتصادية مصلحية تجمعهم مع بعضهم البعض. وتزداد هذه الرابطة توثقاً بالتزاوج ضمن أفراد الأسرة بين ابناء وبنات العم للمحافظة على أرث الأسرة من التجزئة والتشتت[١٦].

طباع العائلات الثرية وسلوكيتها

يصف فخري البارودي، **في مذكراته**، المحيط الارستقراطي في دمشق بانه «محيط نفاق وجهل». «وكان أكثرهم ينظرون إلى الناس نظرتهم إلى العبيد والخدم. والخدم والعامة كانت تتزلف من الخاصة هؤلاء»[١٧]ه وساد هذا التزلف على الغالب في أوساط العامة الرثة، التي عاشت على فتات موائد الزوات من ابناء تلك الأسر.

وكان انسان الطبقة الارستقراطية والغنية، في ذلك الزمن، «لا يتحدث الا عن طعام يومه، وعن الأشكال التي أكلها وكيفية طبخها والدعوات التي دعي اليها، والحفلات الكبيرة التي أقامها وجهاء البلدة[١٨].

ولكن هبوب رياح النهضة العربية وبداية تغلغل الأفكار المتنورة في صفوف الشباب من الفئات الوسطى خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي، بثّ روحاً جديدة ومناخاً مختلفاً عن المناخ العفن السائد. وأخذ «هؤلاء الشباب الناهضون يتحدثون عن أوروبا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة،

واستبداد السلطان عبد الحميد، وسرد حكايات طويلة عريضة عن اغراق الاحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالاصلاح»[١٩].

وفي مجال الأخلاق يروي الحسيبي أن «السكر والفسق واللواط والزنا صار علناً دون خوف من كبير أو صغير. وإذا ألقي القبض على بعض السكارى فسرعان ما يطلق سراحهم بعد دفع الرشوة للضابط المسؤول. وكثرت النميمة والرياء وإذا كان الانسان طويل اللسان تخاف الناس منه ولكنه (الأصح ولكنهم) يتناولونه بالسنتهم في غيابه. وهذا شأنهم فيما بينهم فكل انسان يغتاب الآخرين في غيابهم ويكشف عن عيوبهم»[٢٠].

والحسيبي هو ابن نقيب الأشراف في منتصف القرن التاسع عشر ومن العائلات الدينية المعروفة وسكان حي القنوات الارستقراطي آنذاك، ونحن لا نرجح سيادة هذه الأخلاق في أوساط الفئات **الأدنى**، وان كانت متواجدة فيها بنسب أقل. فالفئات الدنيا المنتجة لم تتوفر لديها الأموال لرشوة «الضابط المسؤول»، كما لم يكن لديها الوقت الكافي للخوض في بحر الثرثرة والنميمة.

وكانت الفئات الثرية غير المنتجة تزداد باستمرار القنافات (المضافات) لتمضية الوقت والتسلية والتغلب على السأم والضجر، في وقت لم تكن فيه الملاهي قد انتشرت على نطاق واسع، ولم يكن ثمة ما يشغل أذهانها وتفكيرها. فالأمور

الفكرية شبه معدومة. والشؤون السياسية راكضة، طالما أن العاصمة البعيدة استنبول هي التي تقرر كل شيء. والأمور الاقتصادية لا تهم هذه الفئة الا بقدر ما تجلب لها أملاكها من ثروة ونعيم وخير عميم. فالفراغ كان يقتلها قتلا. ولذلك كان ارتياد القنافات والاستماع إلى قصص تربية الحمام وقصص الصيد ولعب الشطرنج من الأمور الأساسية في تلك المضافات[٢١].

وهنا لا بد من التمييز، نوعا ما بين الفئات الثرية ذات الأصول الارستقراطية والفئات الثرية التجارية. فثمة اختلاف واضح بين اخلاق وعادات وتفكير ومفاهيم كلا الفئتين.

والواقع أن الطبقة الارستقراطية المعروفة بالذوات كانت، في كثير من المظاهر، متميزة عن التجار. فلم يكن للتجار عربة ركوب خصوصية شأن طبقة الذوات من الزراع. وقد ركب التجار الاغنياء أصحاب المطاحن وتجار الحبوب الرهاوين (وهي نوع من الخيول سريع الجري له مشية خاصة لا يمكن لبقية الخيول مسايرته في الطريق نظرا لسرعته، أما التجار من المراتب الوسطى فركبوا البغال والخيول الأصايل. وبعضهم ركب الحمير المستأجرة من سوق الخيل. ثم أخذت المراتب العليا من التجار تقلد الذوات، وتسعى لامتلاك الأرض[٢٢] مما كوّن فيما بعد في القرن العشرين طبقة بورجوازية ـ اقطاعية مرتبطة بالتجارة من جهة وبالأرض من جهة أخرى.

وكان التجار يتاجرون بثلث أموالهم ويبقون الثلث الثاني

احتيـاطا خـوفا من الأزمـات ويشترون بـالثلث الثالث امـلاكـا كذخيرة للأيام السود[٢٣].

وعلى الرغم من الطبيعة الاستثمـارية لمهنـة التجارة وسعيهـا إلى الربح المتـأتي من استثمار العـامة[٢٤]، الا أن ثمـة اخلاقـاً للتجـار نبعت من واقع حيـاتهم آنـذاك، مـا يستـودعـه النـاس عنـدهم، ومن باع لا يـرجع ومن اشتـرى لا يقلب مهـما وقـع هناك من ارتفاع في الأسعار أو خسائر من جراء ذلـك. وبما أن هؤلاء التجـار أميـون فـإنهم استخـدمـوا كتـابـا خصـوصيـين لمسـاعدتهم في أعمـالهم التجاريـة. ومع الـزمن سعى عدد من التجـار لتعليم ابنائهم «مسـك الدفـاتر» وبـدأ بعضهم يـرسـل أولاده إلى مدرسة الآباء العازاريين ليتعلموا اللغة الافرنسية[٢٥] ويتمكنـوا عن طـريقهـا من دخـول ميـدان التجـارة من بـابهـا العريض والاتصال بالسوق العالمية.

وقد وجد تمييز في اللباس داخـل فئة التجـار. فالكبـار منهم لبسوا الـ (ساكو) من الجوخ الانكليزي المتين والصاية الحريريـة الأصلية. أما التجار الصغار وابناؤهم فلبسوا (الديمة) والجـوخ العربي. **وإذا تعدى أحدهم طوره ولبس أو لبس ابنه لباس طبقة أعـلى من طبقتـه كـان عـرضـة للتحقـير والتهكم.** وكثيـــرا مـا استـدعى «افندي المحلة»، وهـو كبير تجـار السوق، أحـد تجار الأصناف ووبخه على تعديه طوره بارتداء لباس أعلى من لبـاس طبقتـه وأجبره عـلى خلع لباسـه الجديـد والـرجـوع إلى لبـاسـه الأصلي، أي إلى لباس الفئة التي انتمى اليها[٢٦].

ان انغلاق شرائح المجتمع الاقطاعي الحرفي على نفسها وتمسكها بعاداتها وتقاليدها الموروثة دون تطوير امر معروف تاريخياً . وعلى الرغم من حمل الفئة البورجوازية لبذور التغيير ، فانها بقيت ، وعلى الرغم من طرق العلاقات الرأسمالية المبكرة لأبوابها ، منغلقة على نفسها وتحل شؤونها الاقتصادية والاجتماعية فيما بينها دون الرجوع الى الدولة ، التي كان وجودها ضعيفاً ، الا في ميدان تحصيل الضرائب والاتاوات . « ومن عجائب الدهر » ـ حسب تعبير البارودي ـ ان الحكومة العثمانية اسست في أواخر القرن التاسع عشر ، مع دخول موجة الاصلاحات ، محكمة تجارة في دمشق بقيت ثلاث سنوات مفتحة الأبواب لم تقدم لها شكوى . لأن التجار كانوا يحلون مشاكلهم فيما بينهم(٢٧) . ومن الطبيعي ان الأحوال اخذت تتغير في القرن العشرين وبخاصة بعد ترسخ جذور العلاقات الرأسمالية في بعض حقول الاقتصاد .

تاريخياً كانت فئة التجار اكثر تحضراً وتحمل بذور التطور داخل الطبقة الغنية الثرية . ولم تكن ذات جذور ارستقراطية ، وبسبب مهنتها كانت ذات عقل ديناميكي متحرك نسبياً ولم تكن تتمتع ، في البدء ، بامتيازات الفئات القديمة صاحبة الثراء والسلطة والجاه وركيزة النظام الاقطاعي الشرقي العثماني . وهذا مما حتم ظهور فوارق واضحة احياناً وخفية احياناً أخرى بين الفئات التجارية والفئات غير التجارية داخل الطبقة الغنية الثرية المسيطرة .



اصناف العائلات الثرية وادوارها

يمكن تصنيف الأسر الدمشقية الثرية ذات النفوذ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين حسب جذورها التاريخية ونشاطاتها المهنية او الأعمال التي مارستها سابقاً او لاحقاً الى الأصناف التالية[٢٨] .

٢ ـ الأسر المرتبطة بالمؤسسة الدينية ، وهي اسر العلم (الديني) ، التي ترجع نسبها الى آل البيت . وكانت هذه العائلات تتنافس على المراكز الدينية الفرعية والرئيسية (خطيب الجامع الأموي والمفتي الحنفي ونقيب الأشراف) ، وتسعى للسيطرة على الأوقاف وادارتها واحتكار النظامين القضائي والتربوي . ومن اجل تحقيق هذه الأهداف اضطرت هذه العائلات الى الاتصال بالعاصمة استنبول والبحث عن سند لها هناك لتأمين مراكزها الدينية وفيما بعد الدنيوية . وهذا الوضع دفع هذه العائلات الى الالتصاق اكثر بالسلطة المركزية الاقطاعية العثمانية والازورار عن التيارات المحلية الداخلية الداعية الى الاصلاح والحكم الذاتي . ولكن هذه القاعدة كان لها استثناءات اذ ان بعض عائلات المؤسسة الدينية ارتبطت

بفروع التجارة المحلية وارتبطت عن هذا الطريق بالاقتصاد المحلي مما دفعها للاهتمام اكثر بالسياسة الداخلية للولاية . . من جهة ثانية تمكن عدد من هذه العائلات (العجلاني ، الغزي، الكيلاني ، الحسيبي ،) من تعزيز نفوذهم في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بسبب مقدرتهم على الجمع بين الثروة الكبيرة المتركزة في العقارات والأراضي الزراعية الواسعة والاهتمام بتسلم المناصب الرفيعة ، غير الدينية ، في الدولة والمحافظة على غطاء ديني يحميهم عن طريق احتلال مراكز هامة في المؤسسة الدينية . . اما سائر اعضاء اسر المؤسسة الدينية (حمزة ، المرادي ، الاسطواني ، المحاسني ، العطار) فان نفوذها ، على اهميته ، تراجع لأن هذه الأسر لم تتمكن من السير في طريق الجمع بين الثروة والعمل في مؤسسات الدولة غير الدينية . ولهذا فان هذه الأسر انغلقت عموماً على نفسها وعلى مؤسساتها الدينية . . ومن جهة ثالثة نجد عائلات أخرى من اهل العلم واصحاب النسب (البكري ، الأيوبي ، المالكي ، الحلبي ، العمري ، الميداني) لم تحتل المراكز الدينية العليا وهذا مما حررها ودفعها الى شق الطريق الى دوائر الدولة والدخول في سلك البيروقراطية العسكرية والمدنية . وعن هذا الطريق تمكنت من امتلاك الأراضي والدخول في دائرة الصفوة المختارة .

معنى ذلك ان اسر العلم ذات النسب النبوي يمكن تصنيفها الى ثلاثة اصناف هي :

أ ـ الأسر المحتلة للمراكز الدينية الرئيسية والمهتمة كثيراً

بأمور الدنيا والدين .

ب ـ الأسر المحتلة للمراكز الدينية الرئيسية والمنغلقة على نفسها .

جـ ـ الأسر المحتلة للمراكز الدينية الفرعية والمهتمة بتوطيد اقدامها في دوائر الدولة الدنيوية .

ومن جهة ثانية فان التمايز الاجتماعي ضمن العائلات الدينية كان واضحاً . فكان هناك « الخاصة » من الأشراف و « العامة » منهم ، الذين اطلق عليهم بعض المؤرخين اسم « رعاع الأشراف »[٢٩] الذين عملوا في ميادين الحرف وكانوا جزءا من العامة المنتجة . وكانت اسماء بعضهم تدل على امتهانهم الحرف . حتى ان « شيخ مشايخ » الحرف كان من خاصة الأشراف من آل العجلاني .

ومع ان نسبة القوى الاجتماعية كانت آخذة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالتغير ، فان نفوذ العائلات الدينية بقي قوياً بسبب امتلاك قسم منهم للثروة وتسلمهم للوظائف الدينية واحياناً المدنية واتصالهم بطوائف الحرف اقتصادياً وروحياً .

من أشهر هذه العائلات :

ـ **آل المرادي** تمكنوا في القرن الثامن عشر من الحلول محل آل العمادي في احتلال منصب مفتي الحنفية . واستطاع آل المرادي بفضل صلاتهم القوية مع عدد من وزراء العاصمة من

الحصول على عدد من القرى قرب دمشق على شكل مالكانات .

- **آل حمزة** انتزعوا في نهاية القرن الثامن عشر منصب مفتي الحنفية من آل المرادي . وتنافسوا مع آل العجلاني على نقابة الاشراف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

- **آل العجلاني** في اوائل القرن الثامن عشر حصل آل العجلاني على مالكانات . واستخدموا بذكاء مصدر الثروة المتدفق عن طريق المالكانات من منافسة آل حمزة على نقابة الاشراف . وبفضل المنزلة الاجتماعية هذه لآل العجلاني وملكيتهم للأرض وتسلمهم للمناصب أمسوا من العائلات السياسية القديرة .

- **آل الحسيبي** قدم جدهم ، وكان يدعى العطار ، في اواخر القرن السابع عشر من احدى قرى حمص الجنوبية الى دمشق ، وبعد أربعة اجيال شرع علي العطار (١٧٤٢ - ١٨٢٧) الذي اشتهر كرجل علم وقضاء في اثبات انحدار اسرته الأصيل من سلالة الرسول . وقام بتغيير اسمه الى الحسيب . وتابع ابنه احمد (١٧٩٢ - ١٨٧٦) سيرة ابيه وطموحه وتمكن من الحصول على اراض (مالكانات) قرب دمشق على شكل منح من الحكومة العثمانية . ثم امسى عضواً في مجلس الولاية . ولذلك انتقل من حي العقيبة الشعبي الى حي القنوات الارستقراطي . وبعد صدور قانون الأراضي ١٨٥٨ سجل آل الحسيبي اراضي المالكانات التابعة لهم في **قطنا** و جديدة الى

الجنوب الغربي من دمشق . وحتى لا يحتج الفلاحون على هـذا التسجيـل كانـوا يبشرون بينهم ان اللجـان التي تمسـح الأرض لتطويبها (تسجيلها) هي لجان لمعـرفة مقـدار ضريبـة العشر . وهكذا كان الفلاحون ينكرون صلتهم بالأرض هـرباً من هـذه الضريبة .

- **آل الغــزي** اتــوا من فلســطين وشغلوا في دمشـق منـصب الشافعية واداروا الأوقاف الخيرية . وكانوا من الأسر الـدينية ، التي شغلت المنـاصب الـدينيـة والعلمـانيـة في المجلس البلدي ولجنة الأشغال العامة وعضـوية الغـرفة الـزراعية وبعـد ١٨٥٨ سجلوا الأملاك باسمهم .

- **آل الكيلاني** اشتهروا بشدتهم في جمع الضرائب في حماة ، مما أدى الى قيام تمرد العامة الحموية ضدهم ، واضطرار قسم منهم للنـزوح الى دمشق . وفي القـرن الثـامن عشـر شغــل بعضهم منصب نقيب الأشـراف . وفي سبعينات القـرن التـاسـع عشـر امسى سعيد الكيلاني رئيساً للبلدية واحتل ابناؤه مـراكز رفيعـة في الأجهزة المحلية . ويلاحظ ان آل الكيلاني لم يهتموا فيما بعد بـالمنـاصب الـدينيـة وركـزوا جهـودهم عـلى اعتـلاء المنـاصب الادارية .

- **أسـرة وحيدة ذات منصب رفيـع سابق هي أسـرة العـظم** التي تمكنت من خــرق العــرف الـعثمــاني وصمــدت امــام المصادرات والابادات الجسدية ، التي مـارسها الحكم العثمـاني تجاه ولاته السابقين . واسـرة العظم بـرزت كما هـو معروف في

حماة ثم وصلت الى قمة السلطة في دمشق في منتصف القرن الثامن عشر . وولاة آل العظم اشهر من ان يعرفوا . وبقاء جذورهم وفروعهم في دمشق هو الاستثناء في ذلك العصر . وآل العظم من الأسر التي لم تشتهر بالعلم (الديني) . وفي اواخر القرن التاسع عشر انقسمت الى فرعين : العظم والمؤيد العظم . وقد شغلوا من المناصب العليا في دمشق اكثر من أية عائلة اخرى .

- اسرة قادمة من خارج بلاد الشام بسبب ظروف سياسية وهي آل الجزائري الذين قدموا مع الأمير عبد القادر الجزائري بعد خمود المقاومة الوطنية في الجزائر عام ١٨٤٨ . وكان آل الجزائري يعتبرون انفسهم ارقى اجتماعياً من العائلات المحلية . وبسبب مجيئهم من الجزائر واقامة عدد منهم في فرنسا فانهم لم يهتموا كثيراً بالسياسة المحلية الدمشقية ولم يتسلموا المناصب الادارية ، ولكنهم تمكنوا من حيازة الأملاك وكانت لبعضهم رواتب ثابتة معلومة .

- الأسر ذات الجذور الانكشارية المحلية او المتهنة للأعمال شبه العسكرية (الاغوات) لمعت هذه الأسر قبل ١٨٣٢ ، وجاءت الحملة المصرية لتسدد لها الضربات على يد ابراهيم باشا الطامع في اقامة سلطة مركزية وخلق نظام غربي (شبه بورجوازي) وتصفية البؤر العسكرية او شبه العسكرية المحلية ، وجاءت الاصلاحات العثمانية المتتالية وسعي الدولة العثمانية لتكوين جيش نظامي لتوجه ضربة اخرى للتنظيمات شبه العسكرية القائمة في دمشق آنذاك والتي تعرضنا لها

بالتفصيل في الفصول السابقة . ولكن قسماً من هذه العائلات استطاع التلاؤم مع الأوضاع الجديدة والتكيف مع الظروف المستجدة والمحافظة على الجاه والثروة والمنصب .

ويلاحظ ان هذه العائلات لم تكن ذات جذور دينية عميقة وهي لم تشتهر بالعلم (الديني) . وكانت العائلات الدينية المتواجدة داخل اسوار المدينة تنظر اليها في البدء نظرة استعلاء واحتقار مخفي ، وترفض عموماً التزاوج معها . وبعد ان تراكمت الثروة في جيوب هؤلاء تمكنوا من الاتصال بتجار المدينة بسبب ظروف المهنة وعن طريق المصاهرة . واستطاعوا احتلال مكانة اجتماعية في اواخر القرن الماضي .

هذه العائلات وبسبب جذورها العسكرية ركزت اهتمامها على العمل في تجارة الحبوب والمواشي وتعاملت مع المرابين وعملت في الربى وجمعت عن هذا الطريق ثروة مادية استغلتها بذكاء للمحافظة على **مجموعات** شبه عسكرية والوصول الى المناصب الادارية وبالتالي امتلاك الأراضي وتسجيلها باسمها بعد ١٨٥٨ فهذه الأسر استغلت بأسها وقوتها العسكرية ومقدرتها على حماية الطرقات غير المأمونة وثروتها للوصول الى قمة السلطة السياسية . وكانت من أبرع من قام برشوة الأجهزة المركزية وتقاسم الغنيمة معها . ومعظمهم ربط مصالحه بمصالح العاصمة استنبول وكانوا بذلك بعيدين عن حركة النهضة العربية وعلى خلاف مع الحركة الوطنية (الاصلاحية) .

هذه الأسر شبه العسكرية عاشت بعيداً عن احياء دمشق

القديمة وتمركزت اخيراً في حي الميدان جنوب دمشق على الطريق المؤدي الى الحج وسهول حوران المشهورة بانتاج الحبوب واشتهر منها آل سكر ، وآل المهايني ، وآل العابد والشملي (الشوملي) وغيرهم . اما المركز الثاني لهذه الأسر فكان الى الشمال الغربي من دمشق على السفوح الجنوبية لجبل قاسيون في ضاحية الاكراد . واشتهر من العائلات الكردية آل اليوسف ، وآل شمدين ، وآل بوظو ، وآل اغريبوز . وسوف نتعرض لعائلتين شهيرتين فقط هما آل العابد وآل اليوسف .

- **آل العابد** عملوا في تجارة الحبوب والمواشي وبعد ان ازدادت ثروتهم انتقل كبراؤهم من الميدان ، الحي الشعبي ، **وإلى** سوق ساروجة . برز من الأسرة هولو العابد ، الذي خدم متصرفاً في حماة ونابلس **وتمكن** من جمع ثروة . هذه الثروة اوصلته عام ١٨٧٨ الى عضوية المجلس الاداري للولاية ، ثم لرئاسة هذا المجلس . وجاء بعده ابنه احمد عزت (باشا) العابد ، الذي درس في مدرسة تبشيرية كاثوليكية في **بيروت** أهلته لتعلم اللغة الفرنسية ، التي كان قلة من المثقفين المسلمين يتقنونها . وفي استنبول استفاد من موقع عائلته ومن اجادته للغة الفرنسية ومن طموح السلطان عبد الحميد في الدعوة الى الجامعة الاسلامية ووضعها في خدمة مطامحه وسياسته ، استفاد لكي يمسي كاتم اسرار عبد الحميد وسكرتيره الخاص . وعن هذا الطريق تمكن من جمع ثروات هائلة واخذ عمولات من الشركات الأجنبية الساعية الى توظيف رأسمالها في الدولة العثمانية . وابن احمد عزت العابد هو محمد علي العابد سفير الدولة العثمانية في

الولايت المتحدة قبل الانقلاب على السلطان عبد الحميد واقالته **١٩٠٩** . ومحمد علي (باشا) العابد هذا « انتخب » رئيساً للجمهورية السورية عام **١٩٣٣** .

تميز آل العابد بعدم حصر **اهتمامهم** في التجارة الداخلية وامتلاك الأراضي ، وانتقالهم الى الاهتمام بالأعمال التجارية العالمية والمضاربات وشراء الأسهم في الشركات الأجنبية ، ولكن دون نسيان القاعدة العامة آنذاك وهي امتلاك الأراضي الزراعية وشراء العقارات واشادة الأبنية .

ـ **آل يوسف** الأكراد وبعد ان تحالفوا مع منافسيهم آل شمدين الأكراد ايضاً امسوا قوة رهيبة الجانب وقد تقلدوا امارة الحج الشامي المكلف بتسيير قافلة الحجاج وحمايتها بين دمشق الشام ومكة المكرمة . واستغلوا مركزهم هذا لجمع الثروة وامتلاك الأراضي في حوران والقنيطرة والغوطة . ومن أبرز افراد هذه الأسرة عبد الرحمن باشا اليوسف امير الحج الشامي في مستهل القرن العشرين . وعبد الرحمن اليوسف هو نتيجة زواج التحالف بين آل شمدين وآل اليوسف . وكان آل اليوسف قبيل الحرب العالمية الأولى المنافس **الرئيسي** لآل العظم على زعامة دمشق . وبعد وقعة ميسلون في تموز **١٩٢٠** عين المستعمرون الفرنسيون عبد الرحمن باشا اليوسف وزيرا ، لم يعش بعدها طويلاً ، اذ قتله الفلاحون الحوارنة اثناء انتفاضتهم الوطنية في آب **١٩٢٠** .

العائلات التجارية العريقة او الحديثة العهد بالتجارة ، اهم

ما يميز افراد هذه العائلات ارتباطها بالتجارة الداخلية والانتاج المحلي فأمسوا ، بسبب ارتباطهم بالاقتصاد الدمشقي الوطني ، اكثر التصاقاً بالسوق الداخلية وتحسساً بمتطلبات هذه السوق ومصالح الانتاج المحلي . ولذلك فانهم كانوا على اتصال بالعامة وطوائف الحرف ويتعاطفون مع سياسة الحرف وانتاجها . وقد تزعموا حركة الاصلاح في دمشق ونادوا بالحكم اللامركزي ساعين الى نوع من الاستقلالية عن الحكومة العثمانية المركزية . وهم الذين شكلوا ، مع الزمن ، البذور المنتشة للبورجوازية الوطنية الناشئة ، هذه البورجوازية التجارية الناشئة لم تكن بورجوازية تجارية خالصة ، بل كانت بورجوازية تجارية ، مالكة للأراضي الزراعية . ولهذا فان طبيعتها كانت مزدوجة فهي ، من جهة ، تحمل بذور الثورة والتحرر من القديم الاقطاعي ومن جهة اخرى تتعاطف ، بسبب ملكيتها للأرض ، مع العلاقات الاقطاعية السائدة . وهذا الطابع المزدوج انعكس على سياستها المترددة وخطها المتعرج المناوىء للحكم العثماني والساعي للتفاهم معه في آن واحد .

ومن هذه العائلات انبثقت ، على الغالب ، البورجوازية الوطنية الدمشقية ، التي سعت بعد الحرب العالمية الأولى الى اقامة صناعة وطنية واقتصاد مستقل . وقد اصطدمت سياسة البورجوازية السورية بسياسة الاستعمار الافرنسي الراغب في ابقاء سورية بلداً زراعياً وسوقاً رابحة لمنتجاته ورساميله[٣٠] .

الى جانب العائلات التجارية الممثلة والمدافعة عن الانتاج

المحلي والسوق الداخلية بدأت تظهر في دمشق بورجوازية كومبرادورية ، ولكنها بقيت ضعيفة ولم يكن لها دور بارز ، كما كان الأمر في بيروت ـ في الاقتصاد والسياسة .

وقد سعت هذه الطبقة التجارية ذات الصيغة الكومبرادورية منذ اواخر القرن التاسع عشر الى ادخال دمشق في السوق الرأسمالية العالمية والاستفادة من تصدع النظام الاقطاعي لاقامة علاقات اقتصادية جديدة تقوم على اساس تبادل السلع بالنقود بدلاً من العلاقات الاقطاعية السائدة وما يتبعها من التجارة القائمة على تبادل البضائع دون اثر للنقود .

وبعد غزو السوق الرأسمالية للمدن الشرقية ازداد شره الطبقة الاقطاعية الى الحاجيات الطفيلية والكمالية . وهذا مما انعش مهنة « القومسيونجية » وهي الوسيط بين التاجر واصحاب البضائع في اوروبا لقاء عمولة معلومة . ومع ان بورجوازية الكومبرادور هذه استقرت في بيروت الا ان ممثليها في دمشق تكاثروا وكانوا عموماً من التجار المسيحيين الملمين باللغات الأجنبية وذوي الثقافة المتطورة نسبياً بالقياس الى زملائهم من المسلمين . وهؤلاء كانوا في البدء ممثلي الرأسمال الأجنبي في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، قبل ان تتشكل بورجوازية الكومبرادور المسلمة .

العائلات العاملة في الحقل التجاري كثيرة ومتعددة وبعضها انحدر من العائلات الدينية الضعيفة او الصغيرة والآخر برز من صفوف اغنياء الحرفيين والثالث اتى الى دمشق من خارج

الولاية . ومن هـذه العائـلات آل القوتـلي والحلبوني والليمـوني ودياب والحفار والرباط والجـلاد والكزبـري والمسوكي والعسـلي وغيرها . . وسنتكلم عن ثلاث من هذه الأسر كنماذج وهي :

ـ **آل القوتلي** كانوا تجاراً اتوا من بغداد وأقاموا في حي الشاغور الشعبي وحافظوا على صلاتهم مـع عامـة هذا الحي ، وبفضـل التجارة مع **الولايات** المجـاورة والمقاولات جمعـوا ثروة طـائلة ، **وكـما هـي عـادة تجـار ذلـك الـعـهـد، اشـتـروا بثلثـهـا اراض وعقـارات وخـبؤوا الـثلث الـثـاني لـلأيـام** السود وتاجـروا بالثلث الثـالث . كما انهم استخـدموا مـركزهم التجاري وثروتهم للوصول الى عضوية المجلس الاداري للولاية وتوسيع املاكهم عن هذا الطريق . واحتل احد كبرائهم مـراد عضوية غـرفتي التجارة والـزراعة وفي عـام ١٨٩٤ وصل احـد افراد الأسرة الى رئاسة مصرف الولاية الزراعي .

ومنهم شكري القوتـلي عضو جمعيـة العربيـة الفتاة المنـاهضة للحكم العثمـاني واحد قـادة الكتلة الوطنيـة المناوئـة للانتـداب الافـرنسي ورئيس الجمهوريـة السوريـة (١٩٤٣ ـ ١٩٤٩) و (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨) .

ـ **آل مردم بـك** اصلهم البـان خـدمـوا في حـريم السلطان في القرن السادس عشر . وفي دمشق عمل اخوان من آل مردم في المحاكم الشرعيـة والتجاريـة ، وتمكنا من تـولي إرث قديم لهـما بمساعدة بعض رجالات العاصمـة . ثم قامـا بشراء الأراضي الـزراعية في الغـوطة وشـراء العقارات في المـدينـة والنشـاط في

الأعمال التجارية والمقاولات . واستغل آل مردم مناصبهم للمضاربة بالأراضي وبناء امتداد السوق المركزية .

وآل مردم حديثي النعمة سياسيا واجتماعيا . وهذا مما أكسبهم ، على ما يبدو ، مرونة في التعامل مع الآخرين وفي حقل السياسة . وكانوا مقاولين ماهرين استطاعوا ، بذكاء ، استخدام مناصبهم السياسية لتوسيع مصالحهم المالية وزيادة ارباحهم .

وبرز منهم في القرن العشرين ، ثعلب السياسة ، جميل مردم بك ، عضو جمعية العربية الفتاة واحد قادة الكتلة الوطنية ورئيس الوزراء (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وفي سنوات ما بعد الحرب .

- **آل الشمعة** كانوا من كبار التجار في باب الجابية واحتلوا مناصب عالية في مجلس الأوقاف والتعليم ، برز منهم احمد باشا الشمعة ، الذي كان في البدء من احصن رجال السلطان عبد الحميد . وقد منحه السلطان امتيازاً واعطاه آلة برق (تلغراف) مرسلة ولاقطة في داره ، ليخابر بها السلطان رأساً . ولسبب مجهول غضب عليه السلطان وأمر بمراقبته . وبرز على اعتاب الحرب العالمية الأولى رشدي الشمعة احد رجال الاصلاح البارزين في دمشق ، الذي أعدمه جمال باشا ايام الحرب .

***

صدر قانون الاصلاح الزراعي رقم ١٦١ في ٢٧ / ٩ /

١٩٥٨ ، ثم جرت عدة تعديلات على هذا القانون اهمها المرسوم التشريعي رقم ٨٨ تاريخ ٢٣ / ٦ / ١٩٦٣ ، الذي هدف الى اقتلاع الجذور الاقتصادية لأكبر عدد ممكن من السياسيين « القدامى » ، الذين ايدوا الانفصال وسعوا لالغاء قانون الاصلاح الزراعي وقرارات التأميم الصادرة في تموز ١٩٦١ ، وكانوا بطبيعة الحال معادين للوضع السياسي القائم بعد ٨ آذار ١٩٦٣ . وان المطلعين على خفايا الأمور وعلى ملابسات صدور المرسوم التشريعي رقم ٨٨ يعلمون ان المادة الأولى من المرسوم رقم ٨٨ نصت على ان سقف الملكية في الغوطة هو ٣٠(هـ) في الأرض المروية . . وفي اللحظات الأخيرة عدلت هذه المادة وخُفض سقف الملكية في الساحل السوري ٢٠(هـ)وريف حلب (حقول الزيتون) وغوطة دمشق الى ١٥ (هـ)،بهدف تمكين قانون الاصلاح الزراعي من شمول اكبر عدد ممكن من اولئك السياسيين « المخضرمين » في اللاذقية وحلب ودمشق ، الذين لم يشملهم قانون عام ١٩٥٨ . ومعنى ذلك ان المرسوم التشريعي لعام ١٩٦٣ ، امسى اكثر عمقاً من قوانين الاصلاح الزراعي السابقة .

ولدى مراجعتنا لوثائق دائرة الاستيلاء في مديرية الزراعة والاصلاح الزراعي بدمشق تبين ان قانون الاصلاح الزراعي الجديد لعام ١٩٦٣ شمل بالدرجة الأولى العائلات ، التي « ملكت » الأرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، وكانت تحتل المراكز الهامة في الدولة العثمانية والمؤسسات الدينية ، كما مر معنا . ثم جاء الانتداب

الافـرنسي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣) فثبت هؤلاء اقـدامهم اكـثر في امتلاك الأراضي ، كما برز عدد آخر من الملاكين الجدد ، نـالوا هذه الملكيات لقاء تعاونهم مع الاستعمار الافرنسي . كما ظهـر أيضاً عدد من الملاك الجدد ، أقل شأنـاً ، يرجعـون بجذورهم الى البورجوازيـة التجاريـة . وبدت للعيـان ظاهـرة الاقطاعيـة المتبرجزة والبورجوازية المالكة للأراضي الزراعية وذات النزعات الاقطاعية . وهذا ما عـالجناه بـالتفصيل في كتـابينا : « الحـركة العمـاليـة في سـوريـة ولبنـان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥ » و « المسـألـة الزراعية والحركة الفلاحية في سـورية ولبنـان ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ ـ الجزء الثاني » وقد ألقينا الاضواء على استراتيجية وتاتكيك هـذه الشرائح من الانتداب الافرنسي ودورها في الحركة الوطنية .

ان ابنـاء هذه العـائـلات ، التي شملهـا قـانـون الاصـلاح الزراعي ، هـم الذين قبضوا على ناصية الأمـور لمدة من الـزمن في دولة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، قبـل ان تعصف ريـاح التغيـرات الاجتمـاعيـة في النصف الأول من الستينـات وتقتلع الجذور الاقتصاديـة الاجتماعيـة ، التي اعتمدت عليهـا هذه العائلات لتوطيد نفوذها السياسي والفكري .

وفيما يلي قائمة بـاسماء أهم العـائلات ، التي شملهـا قانـون الاصلاح الزراعي لعامي ٥٨و٦٣ وتعديلاتهما وهي :

الايبش . . الاسـطواني . . الألـوسي . . آل اغـريبـوز . . بـوظـو . . البكـري . . بهنسي . . البـارودي . . تللو . . الجلاد . . الجزائري . . الحلبوني . . حسيبي . . حتـاحت . .

حفـار . . حمزاوي . . دالاتي . . آل داغستـاني . . ديـاب . . الـرجلة . . سكر . . الشمعـة . . الشـلاح . . الشـربجي . . الصفـدي . . الصـوان . . العجـلاني . . العـظم . . مؤبـد العظم . . العابـد . . الغزي . . القـوتلي . . قنـدلفت . . آل قصـاب بـاشي . . الكـزبـري . . الكيـلاني . . المهـايني . . الميداني . . **المملوك** . . . مردم بك . . الموره لي . . اليوسف . . ابو حمد . . الهبل . . الحفار . . حتاحت . . الشربجي . .

(١) معظم ما سيرد من الأرقام مأخوذ عن قساطلي نعمان: «كتاب الروضة الفنار في دمشق الفيحاء» بيروت ١٨٧٩. ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) راجع: حنا عبدالله: «القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان ١٨٢٠ ـ ١٩٢٠» القسم الأول. بيروت ١٩٧٥ الباب الرابع.

(٣) البارودي فخري: «مذكرات البارودي» بيروت ـ دمشق ١٩٥١ جـ ١ ص ١٩.

(٤) جاء في تقرير مدحت باشا عن أحوال سورية عام ١٨٧٩ ما يلي:

«. . . فالأوامر التي ترسل من الاستانة قاصرة على طلب المال والجند وهذه الحالة تفتح للأجنبي باب الاستعمار وخصوصاً بعد أن اشتغل موظفوا الولاية بمصالحهم الشخصية وتركوا المصلحة العمومية فأخلوا بواجباتهم وفسدت اخلاق الأهلين بسبب أعمالهم وكثر القتل والنهب واختل الأمن العام. . وطالما سجنت الجناة فأفرجت عنهم ويوجد في سجن طرابلس قوم قد سجنتهم الحكومة احدى عشر سنة بلا حكم قانوني وقد اخلينا سبيلهم وان الأعشار قد خربت بيوت الأهالي. . .» نقلاً عن العطار نادر.

في بداية حكم عبد الحميد لم تكن الرقابة قد اشتدت بعد وكانت نفحات الاصلاح، الذي قاده مدحت باشا ١٨٧٦، لا تزال تعبق هنا وهناك. وهذا ما يفسر ظهور عدد من الكتب المطبوعة في بيروت أو المباعة هناك باللغات العربية والأجنبية. فمكتبة ابراهيم صادر وأولاده في بيروت المعروفة باسم «الروضة البهية في اسماء كتب المكتبة العمومية». وكان لهذه المكتبة ممثلين في دمشق الخواجا ايليا باسيل وفي حلب الشهباء أحمد افندي وهبي وفي مصر الخواجا جرجي غرزوزي وفي الاستانة العلية ادارة الجوائب.

في عام ١٨٨٣ أعلنت المكتبة العمومية عن المطبوعات الجديدة المتوفرة لديها على غلاف كتاب مشهد الأحوال للشاعر الأديب فرنسيس فتح الله مراش الحلبي وهي:

مجاني الأدب في حدائق العرب من جزء ١ إلى ٧.. منظومات الشيخ أمين الجندي.. قصة سليمان الحكيم بن داود. قصة حيقار الفيلسوف.. قصة المقدم على الزيبق بن حسن الغول طبعة ثانية.. كتاب المبتكر.. ماية حكاية وحكاية.. قصص العشرة وززرا.. تسلية الخواطر في منتخبات الملح والنوادر.. قصة شهريار.. تاريخ نابليون.. تاريخ العرب.. تاريخ اسكندر ذي القرنين.. تاريخ جبل لبنان.. قطف الزهور في تاريخ الدهور.. تاريخ بطرس الأكبر.. ديوان الفارض مع شرحه.. ديوان عزتلو نقولا أفندي النقاش.. ديوان مكرمتلوا الشيخ أبي الحسن أفندي الكستي.. ديوان مكرمتلو الشيخ ابراهيم أفندي الأحدب.. ديوان يوسف أفندي الشلفون.. البدر المنير في نظم مصباح البربير. نفحات الأزهار في مدح النبي المختار.. ديوان صفي الدين الحلي.. روضة الأزهار في نظم الأشعار.. ترجمان المكاتبة تأليف يوسف أفندي الشلفون.. عقد البديع في فن البديع.. مفتي المتعلم عن المعلم.. السمير الأمين نظم عزتلو خليل أفندي الخوري.. الذهب الابريز في مدح السلطان عبد العزيز.

ومن خلال هذه الكتب نستطيع تصور الجو الثقافي السائد آنذاك في أوساط المتعلمين وانصاف المتعلمين.

(٥) الحصني محمد أديب تقي الدين: «منتخبات التواريخ لدمشق» دمشق ١٩٢٧ - ١٣٤٦ هـ. المجلد ١ ص ٢٧٥.

(٦) ويذكر البارودي أن حفلة خطابية أقيمت تكريماً لفؤاد باشا خطب فيها لأول مرة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الشخصية البارزة في حركة التحرر الوطني العربية بعد هذا التاريخ، ومن ألطف ما جرى في هذه الحفلة انهم كلفوا بعض الوجهاء بالقاء كلمة في هذه الحفلة. ولما كان أكثرهم لم يقفوا على المنابر في حياتهم. فقد تلعثموا، ومنهم الأمير علي عبد القادر الجزائري الذي قرأ خطاباً مكتوباً له، وكان نور السراج ضعيفاً، فوصل إلى كلمة لم يتمكن من قراءتها فنادى بأعلى صوته «مطموسة»، وترك الكلمة واستمر في قراءة الخطاب، فكان لهذه النكتة وقع جميل وصفق له الحاضرون طويلاً.

البارودي . . ص ٦٥ .

(٧) نقلاً عن العطار . . ص ١٥٠ وقد كتب مدحت باشا أن الولاية محتاجة إلى اصلاح أحوالها المالية ومنع الرشوة التي «تورث الخجل» . ويعتقد مدحت باشا الوالي المصلح أن النظامات أي القوانين ، الموجودة لا تفيد في الأحوال الحاضرة ، وان تلك الحالة ستستمر طويلاً .

(١/٧) نقلاً عن : الكيالي سامي : «الأدب العربي المعاصر في سورية» ، مصر ١٩٦٨ . ص ٥٨ .

(٨) راجع : حنا عبد الله : «الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» دمشق ١٩٧٣ . الفصل الأول .

(٩) انظر النص الكامل لقانون الأراضي العثماني في : الدستور ، المجلد الأول ، ترجمة من اللغة التركية إلى العربية ، نوفل أفندي نعمة نوفل . بيروت ١٣٠١ ص ١٤٠ ـ ١٦١ . . وحول هذا الموضوع راجع : حنا عبد الله : القضية الزراعية . . الباب الثالث .

(١٠) لوتسكي : «تاريخ الأقطار العربية الحديث» موسكو ١٩٧١ ص ١٦٠ .

(١١) المردعيبس : «كتاب احكام الأراضي» القدس ١٩٢٣ ، ص ٧٨ .

(١٢) زكريا أحمد وصفي : «الريف السوري ، محافظة دمشق» . دمشق ١٩٥٥ جـ ١ ، ص ٣٤٥ .

كلما اقتربنا من المدينة تقل الملكية الكبيرة وتكثر الملكية الصغيرة ، التي تتجاوز ثلث قرى الغوطة ، وهذا برهان على ان القرى البعيدة عن المدينة والقريبة من البادية كانت بحاجة إلى حماية «أرباب الوجاهة» . انظر : خير ، صفوح : «غوطة دمشق» دمشق ١٩٦٦ ، ص ٣٢٩ ولا شك أن انتشار الملكية الصغيرة حول المدينة له أسباب أخرى بالاضافة إلى السبب المذكور أعلاه .

(١٣) إن الصراع العنيف بين القوى الاجتماعية لامتلاك الأرض أدى في مستهل القرن العشرين إلى انتصار اثرياء المدينة وزعمائها وكبار الموظفين والضابط ، الذين أمسوا من كبار الملاك وحازوا في ولاية الشام (دمشق ـ حمص ـ حماة) حوالي ٦٠٪ من اراضي الولاية ، في حين كان في حيازة الفلاحين المتوسطين ١٥٪ من الأرض المزروعة وامتلك الفلاحون الصغار ٢٥٪ وكانت أراضي الدولة والسلطان ضئيلة جداً في جنوب سوريا

بالقياس إلى شمالها ووسطها.

روبين آرثور: «سورية كنطقة اقتصادية» برلين ـ فينا ١٩٢٠ (بالألمانية) ص ٨٤.

(١٤) يقول كرد علي: «ما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة الا ويملك مساحات واسعة في الغوطة. فإن نصف الأرض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الأخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق» كرد علي، محمد: «خطط الشام» جـ ٤ دمشق ١٩٢٦. ص ٢٠٤.

(١٥) قسمت الأوقاف باعتبار الانتفاع بها إلى:

- مسقفات وهي الأراضي المنشأ عليها الأبنية، والمعدة للبناء.
- مستغلات وهي الأراضي التس يستفاد منها بالزراعة وغرس الأشجار.

وكما ذكر عبد العزيز الدوري كانت «بعض الشخصيات الدينية المتنفذة تتوالى أراضي الأوقاف» و«كان شيئاً مألوفاً ان عدداً كبيراً من العائلات الميسورة ورثت هذا «الغنى» عن طريق توليها لأراضي الأوقاف». الدوري عبد العزيز: «مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي»، بيروت ١٩٦٩، ص ١٢٦.

(١٦) عالج جزءاً من هذا الموضوع وبمنظار ليبرالي: فيليب شكري الخوري، في دراسته المقدمة إلى «المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام» بعنوان «طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ ـ ١٩٠٨»، والباحث يعمل في مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة هارفارد.

(١٧) يذكر البارودي ان ذوات تلك الأيام ومعظمهم من المزارعين الأغنياء يكثرون من اقتناء الخدم. وكانت بيوت الأكابر تعج بالخدم من سود وبيض خاصة بالمماليك المنتمين إلى الشركس. وكانوا يقتنون الجواري على اختلاف الوانهن. ويستولدون الاماء، ومنهم من كان يعترف بولده، ومنهم من كان يحرمه اكراماً لزوجاته الأحرار وأولاده منهن. وكانت تربية أولاد الأكابر في ايدي الخدم والجهلة، وما تزال كذلك إلى اليوم» أي يوم كتابة مذكرات البارودي في الخمسينات. البارودي.. ص ١٣.

(١٨) البارودي.. حـ ٢، ص ٥٧.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) الحسيبي محمد أبو سعود: «حادثة دمشق سنة ١٢٦٠» مخطوط في المكتبة

الظاهرية بدمشق برقم (عام ٤٦٦٨) وقد نُشر المخطوط بتحقيق كمال الصليبي في مجلة الأبحاث، التي تصدرها الجامعة الأميركية في بيروت. العدد ٢١ (١٩٦٨) والعدد ٢٢ (١٩٦٩).

(٢١) البارودي . . جـ ١، ص ١٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٤) المرابون من الفئات القريبة من التجار، الذين لم يشفقوا على الفلاح باشتطاطهم في أخذ الربا الفاحش، الذي بلغ من الخريف إلى البيدر (حزيران) مبلغ المئة بمئة وثلاثين وأحياناً وخمسين. ولذلك فان الفلاح كان مجبراً أخيراً على بيع أرضه للمرابي لسداد ديونه. . كرد علي. . الخطط جـ ٤، ص ١٥١.

وساق المحبي قصة أحد المرابين في القرن الحادي عشر الهجري وهو برهان الدين بن محمد البهنسي الدمشقي المشهور بشقلبها، وهو - حسب تعبير المحبي - من ذوي البيوت بدمشق التي خرج منها علماء وفضلاء. . نشأ (شقلبها أي البهنسي) في مبدأ أمره ببيع الحرير بحانوت قرب باب العبرانيين من أبواب جامع بني أمية ثم نما حاله وأثرى. . وبعد أن يذكر المحبي الوظائف التي تقلدها، قال: وبقي يعامل الفلاحين واشتهر بالربا وبلغ فيه مبلغاً ليس وراءه غاية. وكان إذا استحق ما له على الدائن يغلظ عليه في طلبه ويقول لا سبيل الا ان تعطيني ما لي أو تشقلبه. وهذه عبارة جارية على السن العوام يقولون شقلب ماله أي رابح فيه مرة ثانية. فكان منهم من يعطيه ماله ومنهم من يرابحه وبذلك عرف بشقلبها. وجمع كنوزاً نفيسة وأملاكاً وعقارات». المحبي: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» دار صادر بيروت، بلا تاريخ المجلد الأول ص ١٢٣.

(٢٥) أول من تخرج من المدرسة العازرية: مسلم السويفي ورشدي السمان ورشدي السكري وعبده الصبان. . البارودي. . جـ ٢ ص ٢٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٧) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٥.

(٢٨) اعتمدنا إلى حد ما على دراسة فيليب شكري الخوري المذكورة في الحاشية ١٦. ولكننا اعتمدنا أساساً على خلاصة دراستنا للمجتمع الدمشقي في

أواخر القرن التاسع عشر. ولا بد في هذا المجال من الاشارة إلى المصادر التالية: كرد علي محمد: خطط الشام الجزء السادس. والمذكرات.

- المحبي: «خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر» ٤ اجزاء.
- المرادي، محمد خليل: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» ٤ أجزاء (بولاق ١٣٠١ هـ).
- البيطار عبد الرزاق: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» ٣ أجزاء دمشق ١٩٦١/١٩٦٣.
- الشطي محمد جميل: «روض البشر في اعيان دمشق في القرن الثالث عشر (دمشق ١٩٤٦).
- الشطي محمل جميل: «تراجم اعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري ١٣٠١ - ١٣٥٠ دمشق ١٩٤٨.
- مردم بك خليل: «اعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع» بيروت ١٩٧١.
- المنجد صلاح الدين (جمع)، أبو الحسن علي بن محمد الربعي، «فضلاء الشام» دمشق ١٩٥٠.
- الحسني محمد تقي الدين: «كتاب منتخبات التواريخ لدمشق» ٣ أجزاء دمشق ١٩٢٧.
- الزركلي، خير الدين: الاعلام باجزائه المعروفة.

(٢٩) شيلشر، شاتكوفسكي ليندا: «بعض مظاهر وضع الأعيان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في دمشق». بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ص ٩.

خاتمة

عامة القرن التاسع عشر ، خلفية تاريخية للحركة العمالية في القرن العشرين

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اختفى من دمشق الباشوات الاقطاعيون السابقون ، ودخلت مع حركة الاصلاح مفاهيم بورجوازية محدودة في الادارة والحكم . ودخل الغزو الامبريالي للرأسمال الأوروبي عاملاً جديداً في تحول الدولة العثمانية الى دولة نصف مستعمرة خاضعة للنفوذ الانكليزي والافرنسي اولا ثم الألماني ثانياً .

ومن جهة اخرى خمدت تحركات العامة بعد ان بدأت بلاد الشام تدخل في نطاق الاصلاحات المعروفة بالتنظيمات وازدادت هيبة الدولة المركزية نسبياً وتحسنت حياة جماهير العامة بالقياس الى الفترات السابقة .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت تصعد الأسر الدمشقية الى قمة السلطة المحلية والعثمانية . وظهر بجلاء تفاعل عملية ديالكتيكية رائعة تلقي الأضواء على ترابط الاقتصاد بالسياسة . . فالجاه والثروة والمنصب (الديني او السياسي او العسكري) والمقام الاجتماعي ، هذه الأمور مجتمعة او منفردة جلبت « الخير » والأرض المسجلة في دوائر

الطابو . وتلك الأرض الواسعة الشاسعة تغل الواردات والثروات الجديدة على الاسر الصاعدة ، التي استخدمتها ، اي الثروة ، لرفاهها او لزيادة ثروتها والمحافظة على مناصبها ورشوة السلطات العثمانية وشراء المناصب والعقارات ونهب اراض جديدة وتجميع ثروات جديدة وهكذا دواليك ،

تلك كانت فئة الخاصة ، التي تكونت في دمشق ، كما في غيرها من عواصم الولايات العثمانية ، في اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . وقد أيد يمين طبقة الخاصة (الأسر المرتبطة بالمؤسسة الدينية والاسر شبه العسكرية) الدولة العثمانية الاقطاعية ودعمها وكان جزءاً منها . اما يسار طبقة الخاصة (العائلات التجارية) فهو الذي بث الحياة في حركة النهضة العربية وحركة التنوير الديني وقاد حركة الاصلاح واللامركزية وتطلع بأبصاره الى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وكانت صلاته مع العامة حسنة .

اما العامة ، التي أنهكتها احداث ١٨٦٠ والغرامات المفروضة في اثرها ، فانها خلدت عموماً الى الهدوء والسكينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين لأسباب كثيرة تعرضنا لبعضها .

لقد ذكرنا في مستهل هذه الدراسة ان الحرفيين الفوا العمود الفقري للعامة وقلبها النابض . وكان كل ازدهار للانتاج الحرفي معناه ازدياد قوة العامة وتنامي بأسها وارتياحها ، اذا لم تفرض عليها السلطات الضرائب الباهظة .

ومعلوم ان اتساع نطاق دائرة العلاقات الرأسمالية المبكرة بدا جليا في اواخر القرن التاسع عشر . ومع الزمن حدث تفاوت بين صغار المنتجين ، واستطاع قسم منهم ان يؤسس المانيفاكتورات وعلى الرغم من ذلك فان هذه المانيفاكتورات بقيت محصورة في نطاق ضيق ولم تستطع القضاء على دكاكين الحرف ، التي بلغ عدد انواعها في دمشق في اواخر القرن التاسع عشر ٤٣٧ حرفة . وقد ذكر صاحب كتاب قاموس الصناعات الشامية بأن عدد العاملين عام ١٩١٠ في حرفة النحاس والنقش وحدها بلغ ١٠,٠٠٠ عاملاً يدوياً (حرفياً) صدروا بضائع بقيمة ٦٠٠٠٠٠ فرنك ذهبي .[٢] .

بعد غزو الدول الأوروبية الاقتصادي للدولة العثمانية نشأ وضع جديد لم يكن في صالح المعامل اليدوية والمانيفاكتورات . فقد اصاب الكساد ، بسبب تدفق البضائع الأجنبية الجيدة الصنع والرخيصة الثمن نظراً لقلة الرسوم الجمركية المفروضة عليها ـ انتاج فروع عديدة من الأعمال اليدوية والمانيفاكتورات . ولم يستطع القطاع الصناعي السوري الذي كان يحول المواد الزراعية ، الصمود امام البضائع الأجنبية لأن مستواه التقني كان بدائياً وقوته الانتاجية متدنية ، بالرغم من العدد الضخم للقوى العاملة التي كانت تشتغل فيه . ومن أمثلة ذلك ان انتاج ١٥٠ معملاً للصابون العاملة في بلاد الشام آنذاك لم يتجاوز انتاجها اكثر من ٢٠,٠٠٠ طناً في السنة . بالرغم من ان عدد العاملين فيها تراوح بين ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ شخصاً[٣] .

وكان من الضروري رسم سياسة اقتصادية من اجل حماية الصناعة الناشئة والأعمال الحرفية من المنافسة الأجنبية . ولكن الحكومة العثمانية ، التي تحولت دولتها الى بلد نصف مستعمر والخاضعة للرأسمال الأجنبي لم تقم بأي مبادرة وقائية . والواقع انه لم يكن بامكانها القيام بأي عمل يؤدي الى انتعاش الصناعة بسبب خضوعها للمستعمرين ، واضطرارها لتقديم التسهيلات للتجار الأجانب لبيع منتجاتهم داخل البلاد .

ولم تكن الرسوم الجمركية البالغة ٨ ٪ على البضائع الأجنبية(٤) كافية لحماية الانتاج المحلي امام تدفق البضائع الصناعية الأوروبية ، التي اغرقت السوق شهراً بعد شهر .

ولم تكن ايضاً السياسة الضريبية للحكومة المركزية في مصلحة الانتاج المحلي ، بل ان كثرة الضرائب كانت ، على العكس ، ترهق الانتاج المحلي وتعرقل تطوره . ويذكر باسيلي ، القنصل الروسي في بيروت ، ان الضرائب المباشرة وغير المباشرة بلغت ٤٠ ٪ من قيمة البضائع ذات الانتاج المحلي في منتصف القرن التاسع عشر(٥) .

وقد أضعف ذلك كله قدرة المنافسة لدى الصناعة السورية . فتأخر انتاج فروع عديدة من المانيفاكتورات والمؤسسات اليدوية تأخراً ملحوظاً . وبدا ذلك واضحاً في حرفة النسيج بسبب منافسة النسيج الانكليزي . ومنذ القرن التاسع عشر بدأت عملية انهيار صناعة النسيج الشامية وازدادت حدتها في اواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين

وتشير المصادر الى وجود حوالي ١٣,٠٠٠ نول يدوي عام ١٨٨١[٦] انخفضت عام ١٩٢٩ الى ٦٠٠٠ نول . ولم يتجاوز عدد الانوال اكثر من ٣٠٠٠ نول عام ١٩٣٣[٧] .

ورغم هذه الكارثة فان عاملاً هاماً ، وهو طبيعة انتاج الصناعة الشرقية ، ساعد صناعة النسيج السورية على الوقوف على قدميها وضمان الأسواق المحلية لها حيث لم يكن في مقدور النسيج الأجنبي منافستها .

ويلاحظ من جهة اخرى ان فروعاً عديدة للمانيفاكتورات والأعمال اليدوية استطاعت ان تحافظ على تطورها وان توسع في كثير من الأحيان انتاجها المرغوب في السوق الأوروبية . والأمر نفسه سرى على المعامل التي اقتصرت على الانتاج نصف المصنع . الذي صُدر الى اوروبا . كما ان فروعاً صناعية حرفية كثيرة لم تتأثر بالمزاحمة الأجنبية لأن بضائعها الشرقية التقليدية كانت مرغوبة من السكان المحليين ولم يكن بامكان الصناعة الأوروبية القضاء عليها .

ولكن اتساع الطاقة الانتاجية للفروع المذكورة لم يمنع تردي الوضع المعاشي لسكان المدن المرتبطين بالصناعة ، الذين ازدادت احوالهم سوءاً . وقد خسر كثير من العمال والحرفيين اماكن عملهم ودخلوا في جيش العاطلين عن العمل . وسار بذلك الوضع الاجتماعي للقوى العاملة . وزاد الأمر سوءاً محاولة مالكي المعامل والمشاغل المحافظة على معاملهم من الخراب عن طريق تخفيض أجرة العمال الى الحد الأدنى[٨] .

وبسبب غياب المنظمات الكفاحية العمالية لم يكن نضال العمال من اجل زيادة اجورهم مفروشاً بالورود . اما الصناع الحرفيون المنضوون تحت الوية انظمة طوائف الحرف والطرق الصوفية المتممة لها فلم يكن بامكانهم القيام بأي تحرك ذي قيمة . وزاد في الأمر تعقيداً ان العمال والحرفيين (الصناع والاجراء) خضعوا قبل الحرب العالمية الأولى الى ثلاثة اشياء :

١ ـ نير الرأسمال الوطني ، وهو ألطف الأنيار وأخفها وطأة .

٢ ـ نير الاستعباد الاقطاعي العثماني (الشرقي)

٣ ـ نير الرأسمال الأجنبي .

وقد أدت السيطرة الاقطاعية العثمانية والغزو الاقتصادي للدول الأوروبية في النصف الثاني من القرن الماضي واوائل القرن الحالي على كل امكانية للتطور الصناعي الطبيعي وبخاصة بناء المعامل الكبيرة نسبياً في البلاد . ولم يؤد طموح العاملين في الصناعة الناشئة القائمة وبعض التجار واغنياء الحرفيين من اجل بناء المعامل الصناعية ، الى نتيجة تذكر . وذهبت ادراج الرياح جهود السوريين الطامحين الى بناء صناعة وطنية[٩] للأسباب التالية : فقدان الحماية الجمركية ، نقص المواد الأولية والخبرة الفنية ، ضعف الامكانات المتوافرة لتراكم رأس المال ، عدم وجود نظام مالي متطور ، سياسة السلطات العثمانية المعرقلة لكل تطور صناعي[١٠] واخيراً طبيعة العلاقات الاقطاعية الشرقية ، التي ربطت البلاد اخيراً بعجلة

الرأسمالية الغربية وأخضعتها للضغط الاستعماري وكانت عوناً للرأسمال الأجنبي[11] .

ومثال ذلك قانون تعطيل الأشغال العثماني الصادر في **٢٢** رجب **١٣٢٧ / ١٩٠٩** م منع منعاً باتاً على المستخدمين والعملة في المؤسسات الحائزة على الرخصة والامتياز من الحكومة السنية مثل سكة الحديد والتراموي والمرفأ والتنوير القيام بمظاهرات او اتيان اي فعل او حركة يخالف حرية العمل ، ولا يترك للمستخدمين والعملة الا حرية ترك الخدمة في هذه المؤسسات ، اذا لم يتفق الطرفان العمال واصحاب المؤسسات على حل . كما ان القانون المذكور منع تأليف النقابات (ستديل) في المؤسسات التابعة للرأسمال الأجنبي « الحائزة على الرخصة والامتياز من الحكومة السنية » وفرض القانون المذكور العقوبات الشديدة (السجن من اسبوع الى سنة مع الغرامة النقدية) على من يؤلف نقابة او يتسبب بتعطيل الأشغال أو يحرض على الاضراب . وسار قانون تعطيل الأشغال العثماني اشواطاً بعيدة في خدمة الشركات الأجنبية الى درجة انه ألغى جميع النقابات المؤسسة ، قبل نشر قانون **١٩٠٩** ، في الشركات الأجنبية مثل الخطوط الحديدية والتراموي والمرفأ والتنوير .

ان قانون تعطيل الأشغال العثماني هذا وقف صراحة الى جانب المستثمرين الأجانب ضد العاملين في الشركات الأجنبية وعبر عن قلق الشركات الرأسمالية الأجنبية في الدولة العثمانية

من تطور الأوضاع بعد ثورة ١٩٠٨ البورجوازية وقيام الفئات العاملة بالمطالبة بحقوقها والحد من استثمار الرأسمال الأجنبي . وهذا القانون كان احد العوامل التي وضعت بعد ثورة ١٩٠٨ للقضاء على أية امكانية تؤدي الى تطور الحركة الجماهيرية ، التي تهدد النفوذ الأجنبي الاستعماري .

يتضح مما سبق ان الطبقة العاملة السورية لم تستطع قبل الحرب العالمية الأولى وفي ظروف غياب الصناعة الحديثة وسيادة الانتاج الحرفي والعلاقات الاقطاعية الشرقية ان تكون نفسها كطبقة . ولم تستطع لذلك ان تقوم بدور بارز في حركة التحرر الوطني قبل ١٩١٨ بسبب تبعثر القوى المنتجة وبتأثير عوامل كثيرة لم تساعد على تطور وعيها الطبقي .

ومع أن العناصر العمالية الوليدة لم تتمكن قبل الحرب العالمية الأولى من القيام بدور ما في الأحداث الجارية، فإن عناصر منتجة أخرى، سترفد الطبقة العاملة فيها بعد ١٨١٨ ، مثل الحرفيين أثبتت وجودها قبل الحرب العالمية الأولى وشكلت قوة رئيسية من قوى الصدام داخل حركة التحرر الوطني .

والفئات الحرفية هذه وجدت من يعبر عن أفكارها ومفاهيمها وتطلعاتها قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

* * *

إن دراسة الأرضية الاقتصادية الاجتماعية والفكرية للعامة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومعرفة تحركاتها وتململاتها

ضرورية لفهم بدايات تكون الحركة العمالية في النصف الأول من القرن العشرين. وهي ضرورية أيضاً لأدراك الخلفيات الايديولوجية التراثية للحركة العمالية.

فالحركة العمالية، التي **نشأت** في العشرينات وعجمت عودها المعارك الوطنية والاجتماعية في الثلاثينات والأربعينات، **هي وريثة العامة** في القرن التاسع عشر في كل ما حملته العامة في صدرها من تناقضات وما **اختزنته** من طاقات ثورية أو ميول اتكالية خانعة خاضعة.

وبعد انهاير الدولة العثمانية عام **١٩١٨**، وتحرر العامة من العبودية الفكرية للسلطان، رأس السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية، هبت العامة - الممثلة الآن لطوائف الحرف والعمال - من جديد للنضال تحت قيادة البورجوازية الوطنية الصاعدة ضد الاحتلال الافرنسي مستلهمة تقاليدها الثورية السابقة في النضال ضد الاستعباد والاستغلال والظلم[١٢].

والواقع أن العقود الأولى من القرن العشرين (العهد العثماني الأخير حتى **١٩١٨**، وأوائل عهد الانتداب **١٩٢٩**) كانت مرحلة انتقال من عهد تحركات العامة الممثلة أساساً لطوائف الحرف إلى عهد الحركة العمالية الممثلة بالنقابات العمالية العاملة في المؤسسات الصناعية، ويمكن القول أن تحركات العامة في النصف الأول من القرن العشرين هي مزيج من تحركات الحرفيين والعمال.

فالحركة العمالية الناشئة في العشرينات قامت في عهد سيادة

الانتاج الحرفي ومفاهيمه وإيديولوجيته.

وعندما ترعرعت الحركة العمالية وأينع عودها احتفظت ـ بحكم الاستمرار وبسبب بقاء النظام وعدم قيام ثورة صناعية مدمرة للنظام الاقطاعي تحل محل النظام الحرفي ـ احتفظت بكثير من العادات والاخلاق الحرفية وحافظت على تقاليد العامة **ومثلها** وتصوراتها وثوريتها وخنوعها، كما أنها ورثت ما خلّفه النظام الاقطاعي الشرقي من ظواهر، لم يكن من السهل التغلب عليها في ظل ظروف تتسم بالتطور البطيء.

من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة ـ تحركات العامة الدمشقية كخلفية تاريخية للحركة العمالية من أجل فهم مواقف واخلاقية الحركة العمالية وجذورها الممتدة إلى أعماق الماضي وتراثه والمتطلعة إلى المستقبل. . .

(١) إن ذلك تم ضمن اجراءات قانونية منها إصدار قانون الأراضي العثماني عام ١٨٥٦. وحول هذا الموضوع راجع: حنا عبد الله: «القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (١٨٢٠ - ١٩٢٠) الجزء الأول. دار الفارابي بيروت ١٩٧٥. الباب الثالث. أنظر النص الكامل لقانون الأراضي العثماني في: «الدستور، المجلد الأول، ترجمه عن اللغة التركية إلى العربية، نوفل أفندي نعمة نوفل. بيروت ١٣٠١. ص ١٤٠ - ١٦١.

وحول الاسر الدمشقية راجع دراسة فيليب شكري الخوري: «طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ - ١٩٠٨» بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام. والباحث يعمل في مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة هارفارد. ولكن معظم الاستنتاجات استقيناها من دراستنا للمجتمع الدمشقي في أواخر القرن التاسع عشر. ولا بد في هذا المجال من الاشارة إلى المصادر التالية:

- كرد علي محمد: خطط الشام. جـ ٢. وكذلك المذكرات.
- المحبي: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» ٤ أجزاء.
- المرادي، محمد خليل: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» ٤ أجزاء بولاق ١٣٠١هـ.
- البيطار عبد الرزاق: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ٣ أجزاء. دمشق ١٩٦١/١٩٦٣.
- الشطي محمد جميل: «روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر (دمشق ١٩٤٦).
- الشطي محمد جميل: « تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر

الهجري ١٣٠١ ـ ١٣٥٠ (دمشق ١٩٤٨).
ـ مردم بك خليل: «أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع» بيروت ١٩٧١.
ـ المنجد صلاح الدين (جمع)، أبو الحسن علي بن محمد الربعي، «فضلاء الشام» دمشق ١٩٥٠.
ـ الحسني محمد تقي الدين: «كتاب منتخبات التواريخ لدمشق» ٣ أجزاء. دمشق ١٩٢٧.
ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام، بأجزائه المعروفة.

(٢) القاسمي جمال الدين، خليل العظم: «قاموس الصناعات الشامية» باريس ١٩٦٠. جـ ١، ص ١٥.

(٣) روبين، ارثور: «سورية كمنطقة اقتصادية» برلين ـ فينا ١٩٢٠، ص ١١٥، (بالالمانية).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) موجز عن تاريخ البلدان العربية، مجموعة مقالات ـ موسكو ١٩٦٩، ص ١٠٥.

(٦) روبين... ص ١٦٠.

(٧) حمادة سعيد: «النظام الاقتصادي في سورية ولبنان» ـ بيروت ١٩٣٦، ص ٥٨.

(٨) روبين يورد إجصاءات دقيقة ص ١٨٦.

(٩) تظهر مطامح التجار السوريين لتأسيس المعامل واضحة في الصحف السورية الصادرة آنذاك. أنظر على سبيل المثال جريدة «الكرمل» في صيف ١٨ ـ ٢ ـ ١٩١٣.

(١٠) لم تستورد سورية مثلاً في عام ١٩١٠ سوى ٣٠٨ آلة وزنها مجتمعة ٦٧٤٥ كغ وهذا العدد من الآلات ضئيل جداً. أنظر: روبين... ص ٢٥٠.

(١١) راجع نص القانون في: «مجموع القوانين»، عرب تعديلاتها وضبط ترجمتها عن الاصل التركي عارف أفندي رمضان، الجزء الثاني، جـ ٢ ـ بيروت ١٩٢٩، ص ٤١٨ وما يليها.

(١٢) راجع حنا عبد الله: «الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ ـ ١٩٤٥» دمشق ١٩٧٣.

صدر للمؤلف

١ ـ الاتجـاهات الفكـرية في سـورية ولبنـان (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) الطبعة الأولى دمشق ١٩٧٣.

٢ ـ الحركة العمالية في سورية ولبنان (١٩٠٠ ـ ١٩٤٥) الطبعة الأولى دمشق ١٩٧٣.

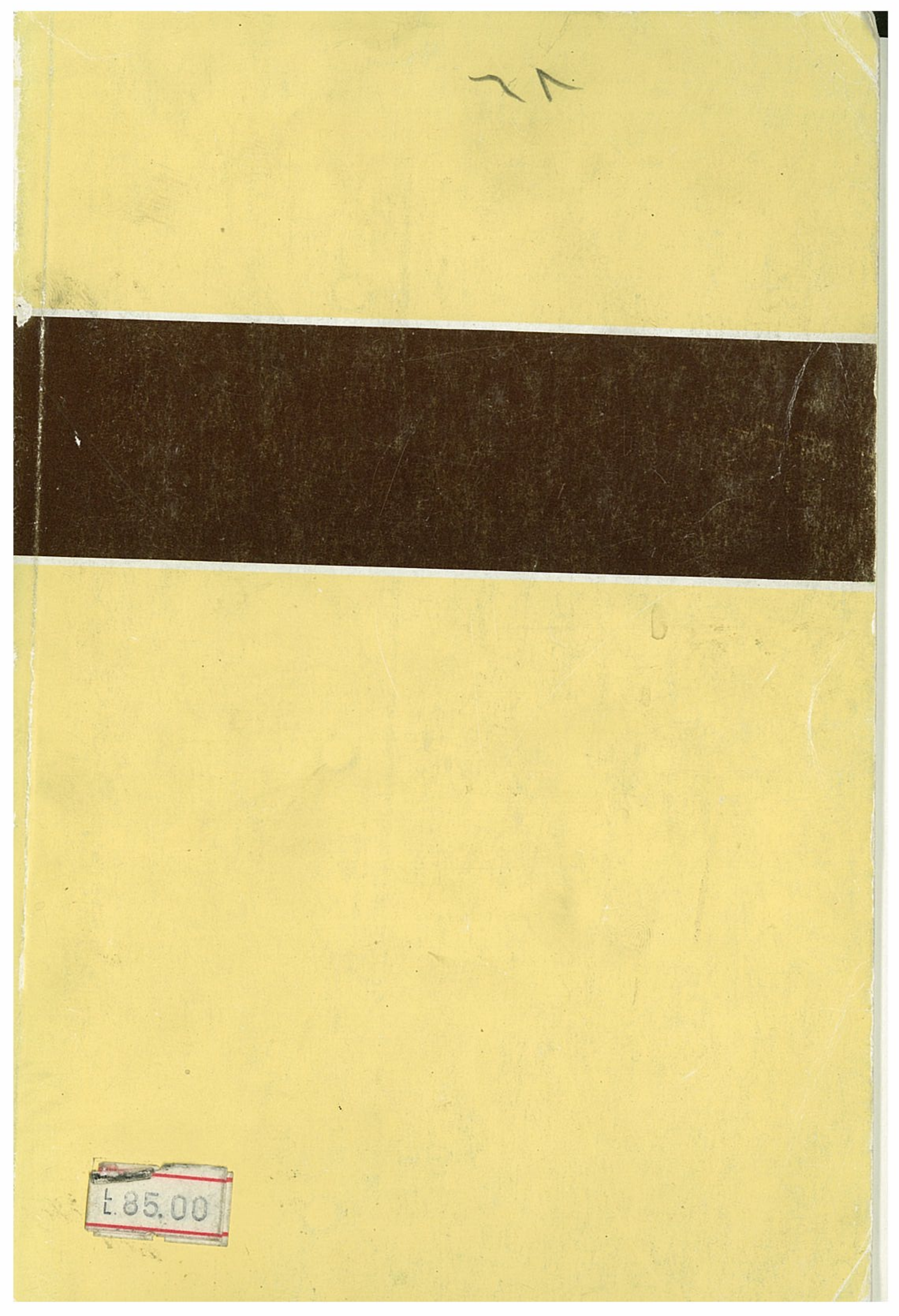
٣ ـ الحـركة المنـاهضة للفـاشستية في سـورية ولبنـان (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥). دار الفارابي بيروت ١٩٧٥.

٤ ـ القضيـة الزراعيـة والحركـات الفلاحيـة في سوريـة ولبنـان ١٨٢٠ ـ ١٩٢٠. الجـزء الأول. دار الـفـارابي بـيـروت ١٩٧٥.

(٥) القضيـة الزراعيـة والحركـات الفلاحيـة في سوريـة ولبنـان (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) الجزء الثاني. دار الفارابي بيروت ١٩٧٨.



الفهرس


L.85.00